

د. عبد الغفار مكاوي

بكائات

ست دمعات على نفس عربية



بكتابات مختارة على نفس عقيدة



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٨٧

نصميم الغلاف

الاخراج الفنى

قنتحي أحمد

ألبير جودجى

بکائیات

اهداء

الى ابنتى نوران :

بثت الشمس بقلب الظلمات

وبدلت دموعي ضحكات

الدمعة الأولى

دموع على حائط مبكاي

اللمعة الأولى :

دموع على حائط مبكاي

قلت للصوت الصديق الذى دعاني للمشاركة في العيد الفضى
 « الآداب » انت توقظنى من نومة أهل الكهف . منذ سنين وأنا غارق فى
 بحر السواد والاكتئاب ، منذ سنين وأنا جثة تأكل وتمشى وتنام وتضحك
 أحيانا وتثرثر بالحكمة ، تنكر الصوت الخارج منها وتضيع فى المتاهات بحنا
 عن هويتها . طماننى وألح على قلت سأكتب بكائية . وسأرثى نفسى
 وشبابى ! سأفعل ما فعل الشاعر العربى الذى نعى نفسه - ذكرت اسمه
 ونسيته الآن ! - قال افعل . قلت أليست قلة ذوق أن أنصب ماتما وسط
 أفراح العرس ؟ هل كتب علينا أن نبكى طوال العمر ؟ ثم فكرت أن اقيم
 حائط مبكى عربيا أدعو اليه الأحباب . فكرت أن أهتف بالقراء : دعونا
 نبكى فنحن أولى من أعدائنا بالبكاء . . فدموعنا على الأقل ليست دموع
 التماسيح ، وذنوبنا فى حق أنفسنا أثقل من ذنوبهم عبر التاريخ . لكننى
 وجدت من الغرور أن أدعو غيرى للبكاء ، ولن يغفر لى أحد أن أسقط ذنوبى
 عليه ، أو أعمم اتهام الذات - وهو فى حد نفسه لا يخلو من الزهو
 والتبرير - على عشرات من جيلى أنا أول من يحبهم ويقدرهم ولا يقارن
 نفسه حتى بالتراب الذى ندوسه أقدامهم . فلاذرف وحدى دمع العين على
 حائط مبكاي . وليغفر ثرثرتى القراء . وليتسع الصدر لاعتراف جاء بعد
 خمسة وعشرين عاما ، هى فى النهاية عمرى المسفوح فى دم القلم ، وهل
 كانت « الآداب » طوال هذه السنين الا حائط مبكاي الذى تلقى بالحنان
 دموعنا ، وفتح صدره لصراخنا واحتجاجنا وتجاربنا الساذجة التى ضاقت
 بها بلادنا ؟ هل كانت الا المهجر والملجأ للشائر والمتعب والباكى ؟

فى دمك « صوات » الندابة القديمة ، سجن المغنى الأعمى على القينار.
 أحزان ايزيس التكللى وأحفادها الذين تترنم بهم الرباب والمواويل . أهو

القبر والتابوت الفرعوني الذى لم تستطع الفكك منه (من عجب انه يتسع للنكات والضحكات ، ان السياح يقصدون طيبة وقاعة المومياءات فى المتحف المصرى ويغفلون عن القبور والتوابيت والمومياءات الحية !) أهو سجن العمر الموروث ؟ وهل كانت كل كتاباتك لطما فى ماتمك الأزل - نصبتة « معات » الربة لكن نسيته ؟ ها أنت ذا بعد آلاف الصفحات وآلاف الليالى الوحيدة تدرك فجأة أنك لم تخرج من التابوت ولم تستطع أن ترحزه لأن الأجداد صنعوه من ضلوعك . تفتح عينيك فجأة - بعد قوات العمر - ترى الكتب تحيط بك ، سورا شائكا غرسته بنفسك فحرم عليك بستان الحياة . صور لك الوهم ان الحياة كتاب وان الكتاب حياة ، لم تدر الا وقد أصبحت مجلدا يمشى على قدمين . ينطح صخر الواقع بأحلام ليست هى أحلامه . عند أول ريح تطايرت الأوراق . عند أول صدمة غرقت كما غرق تراث أجدادك فى مياه دجلة والبحر الابيض . فتشتت عن طوق النجاة . أه لو كنت كتبتة ! كتابك أنت لا ما نقلته عن الآخرين . لربما كان أغاثك أو خف اليك كقارب نجدة . يا نوح العجوز ! لا عاصم اليوم من الطوفان . يا نوح ، لم لم تصنع سفينتك ؟ دموعك الآن هى الطوفان . فالجأ قبل قوات الوقت الى حائط مبكك . لكن حاول أن تبكى بدموعك أنت . أن تتعري فى الريح أمام المكتبة المحترقة . أقم الحائط وابك عليه . . فلعلك يوما تتطهر . .



« الناس جميعا فرحون . كأنهم يشاركون فى وليمة ، كأنهم ذاهبون الى مهرجان الربيع . أنا وحدى أرقد فى سكون ، أشبه بطفل صغير . لم يتسم مرة فى حياته . أنا وحدى غير الآخرين » - سطور من كتاب ترجمته منذ سنين (١) . أهنأك شئ يصدق عليك مثلها ؟ الاكتئاب كان قدرك . أمك المسكينة كانت تسميك مالك الحزين . كنت لا تبكى وتنشج الا فى الأفراح . أيها السم الأسود ، من الذى خلطك بدمى ؟ أهذا هو الذى قربك من الشعر ؟ عرفت مبكرا أنك أفلست فيه . أهذا هو الذى جعله يلزمك كظلك فأخذت تنقله الى لغتك ؟ سودت عنه مئات الصفحات . تجولت فى جزره البعيدة والقريبة (فى العام الماضى منحوك الجائزة - فضلا منهم وكرما - فأغرقتك فى مزيد من الاكتئاب) . يا أوديسيوس الخائب . سدى كانت مغامراتك . الحوريات كذبت عليك . الرحلة كانت مضيفة للعسر . وعزفت على قيار لم تصنع أوتاره . لا لم يصنع لك . هل تعجب بعد رسولك ايتاكا أن تتنكر « بنيلوبة » لك ؟ أن تهتف بك : « لا لست الزوج ! والتوب الواعد لم يغزل لك . لم أنفق فيه العمر لكى أنتظرك » .

ها هي ذى تطردك الآن . وعلى مرأى من كل الخطاب الجشعين وأهلك ومريبتك . هل كان الأولى بك أن تبقى فى زى الشحاذ ؟ طهر نفسك واغسل كفيك . هل يتسع العمر لرحلتك الأخرى ، رحلتك الحقّة ؟! (موضوع مسرحيه بدأتها ولم تنميا . ما أكر ما بدأت ! نرى لماذا لم تسنم لصديق عمرك (٢) الذى وجيك لسيف وأبى زيد وعنترة ؟) لم غربت وما شرفت ؟ لم تبعد دوما عن نفسك وعلى من تلقى الذنب ؟ الطفولة كانت قاسية . الزمن اشتد عليك . طوفت بكل الآفاق وها أنت تعود : الابن الضال . يهرع نحو أبيه ليغرق كفيه بدمع التوبة ، لكن الأب مشلول . فقد الذاكرة ونسى الابن . وهو الآن تراب يرقد فى حضن براب - والابن التائب يصرخ : لم تتركنى ؟ (عنوان رواية تدور فى غفلك منذ سنين . لم لم تبدأها بعد ؟) أما كان الأولى من رحلة الشعر (ضيعت فى كتاب واحد عنه ست سنين ، حبست شبابك فى سجن لا تدخله الا أوزان الشعر وكلماته ، هل كان الأمر يساوى هذا الجهد ؟ أم أنك تهوى دوما أن تلعب دور ضحية ، حتى لو كان الجلادون هم الشعراء ؟! هل هى مأساتك وحدك ؟ أم سحرت « كيركه » بحارة جيلك فى سفن الفن كما سحرتك ؟) أما كان الأولى من هذه الرحلات أن تعلم أميا واحدا ؟ وهل تنسى أن أمك ماتت وهى أمية - تذكر تعبك أياما وأسابيع لتحفظها انا أعطيناك الكونر ! وأين تهرب من كلمة ذلك الذى زار بلادك ؟ (٣) سارع اليه كهنة الثقافة - وكم انبهرت مثلهم بكل جديد - فقال ما معناه : لو كنت مكان المتقف عندكم لأخذت طباشيرا ولوحا أسود وهرعت الى الريف لتعليم الأميين . وها هي ذى الهاوية تتسع بين الكاتب والقارئ ولا تضيق . ونحن نواصل كتابة الرسائل المفتوحة الى بعضنا . لا تكف عن الصراخ من ذنبنا وخجلنا من عار الأمية . مع ذلك لا نفعل شيئا . (أين اتحادات الأدباء لتوجه قوافلنا نحو الريف ؟) هل نعرى أنفسنا بأجيال أخرى - قد تأتى أو لا تأتى - تتذوق عندئذ أشعارنا المترفة وعباراتنا الرنانة ونظرياتنا المتعالية وقصصنا ومسرحياتنا التى نفرغ فيها مشاعرنا المذنبية ؟ عزاء يستحق البكاء ! فابك اذن على حائط مبكاك

وهبطت الى المتاهة كما هبط ثيسوس (يا للأسماء الصعبة . . لو كنت أدرى بترائك لوجدت أسماء أرحم !) متاهة الحكمة التى ضاعفت حماقتك . فى كل ركن عجوز أشيب ثرثار . وخيوط المذاهب كثيرة ومعقدة . تخرج من نسيج عنكبوت لتقع فى نسيج عنكبوت . من طاليس الى هيدجر وأنت تقرأ وتتابع . تجعد الجبين واكفهرت الملامح . والشعر

شاب فوق السالفين . وأنت تتحمس لكل رأى وتتأثر بكل صوت . تفرق نفسك على خبزهم الجاف لكى يبلعه الناس . يقولون لك : أنت تكتب الفلسفة بقلب شاعر . هل يعزوك أم يجرونك من أنفك كما جر فاولست تلاميذه عشر سنين : سموه الأستاذ وسموه الدكتور ، فاكشف انه ما يزال هو الأحقق المسكين ، واننا عن معرفة أى شئ عاجزون ! وها هم يسمونك الأستاذ ، ينادونك حضرتك وسيادتك . (لكن من يقف بجوارك . من يشعر بك ؟) . هناك تجلس كصنم بوذا المسكين . بين جدرانك الأربعة أبكم أخرس كالصوت . ويرونك - حين تناقش أطروحة - فى مسوح الحكماء المملين . ويثر صوت يخرج منك فتكره حين تفاجأ به . وتود لو أنك نخرج من جلدك ، تدخل جسدا آخر - أبهى وأصح - أو أن تجرى عريانا كالمذعور . لكن الدور يمثل فوق المسرح . سيطر يمثل حتى تنفجر وتخرج منه الى قبرك أو للنور . (أيتها العين الواسعة السوداء . نابتت صعودى نحو الواحد وأنا أقرأ أفلوطين . هل أحسست بأنى أتمنى أن ألقى السلم كى أصل اليك ؟) وتكتشف أنك تورطت . أنت ونحن وهم متورطون . تورطت فى جسد فرض عليك ، فى عصر وبينة لم تختبرهما . يقولون وتصدقهم أحيانا : مصيرك بيدك ، فاقبض عليه ! قارب حياتك من صنعك ، فوجه دفته بنفسك . فى هذا الزمن وجدت وهذا الركن من العالم . فواجه الموقف وتحد المشكلة ! وتندق كلمات التحدى والكفاح وسائر الطبول الضخمة . وحين يجن الليل تقول : أنا مع ذلك فى ورطة! وتناجى نفسك : لو خيرت لكنت اخترت ، أن أصبح شجرة ، أو أقمص قطة ! (فالشجرة تلقى ظلا ، للتائه والحيوان ، تعطى خشبا للبردان ، فاكهة أو خبزا أخضر للجوعان - والقطة متوحدة ، متكبرة تعشق سر الانجم والكتمان) وتكتشف أنك ضيعت الحيط . و «أريادنة» لم تمسك بطرفه ولم تنتظرك يوما على باب المتاهة . (أصبحت الآن أما لثلاثة أطفال . هل تتذكر جوع القلب وذل العين ؟) .

وتواصل ثرثرتك ودموعك تجرى فى صمت . والسنة الدراسية على الأبواب وعينك داخل المتاهة تبحت عن حائط مبكك .

وحيدا تذهب . وحيدا تجيء . (فى الليل ، على فراشى ، طلبت من تحبه نفسى . طلبته فما وجدته (٤)) . آلاف الليالى ، مكورا كالجنين فى بطن أمك ، تمد آكف الجوع اليه . تتعري ، من يغطيك . يسعل صدرك يتفجر بالربو ، تتشنج معدتك وأمعائك - بالمرض القوفى الأزل ! - من ينعطف عليك ، من يطعمك ويسقيك . يا جوعا أبديا للأشئ

والأم ! ومنذ تخطيت الأربعين وأنت تخاف - فى الظلام تتربص عين
 اللص وعين الغيب : والسما تمطر الكوارث كل يوم . وصفة
 الحوادث قضاء ينزل على الرأس مع كل افطار . ضيقت الحبيبة فضاعت
 الزوجة والأبناء والأحفاد ، ضاع الآباء وضاع الأجداد ، ضاع الماضى
 والحاضر والمستقبل . صرت رابا ، عدما ، هاوية معتمة فى لحظة . لحظة
 رحت لبيتها فانعقد لسانك ، شل القلب وأطبق فوق الشفتين الموت .
 (كل سنة أو سنين تراها صدفة ، فى منعطف طريق أو عند عبور
 شارع - ان ساء حظك لم تر الا ظهرها ، فأتتك عينها السوداءوان
 النافذتان كحد السيف ، اللامعتان كسحر الموت - فى يدها طفلها .
 كان من الممكن أن يكونا منك . وحين اكتست السواد تحركت . لكن
 النجم المنحوس هناك . تتحسر : آه لو كانت ، لو كنت وكنت وكنت . .
 ونمضى مسرعا الى مسكنك . تضع المفتاح فى الباب . تتحاشى عيون
 المتطفلين . تطالعك سدود الكتب كحيوانات منقرضة . تتفرس فيك
 عيون الأموات - الأحياء ، طالت رفدتهم فى كهف الورق المصفر ! تدفن
 رأسك بين يديك . فى بحر الحزن الاسود تغرق سفن العمر . يوم سلمت
 عليها - للمرة الأولى أيها الريفى ! - صرت شعاعا ، عصفورا وفراشة .
 وحفرت التاريخ على الحائط ، ومعه كلمة نينشه : حب القدر - مازال
 الحفر هناك . يشبه شاهد قبر الغرباء ، فى أرض الغربة : «أيها العابر ،
 قل لمواطنينا فى اسبرطة : منا نرقد مقتولين ، ومازلنا فى الموت لوصاياه
 أوفياء » (٥) . ما أشبهك بنيتشه . كم أحببته : نورته ، وجنونه ،
 خيبته والتسليم بقدر محبوب ملعون . هل نملك الا التسليم ؟ (فى
 أواخر حياته ، بعد أن أطبق عليه ليل الجنون ، لم يعد يعرف أنه نيتشه .
 تنظر أخته اليه فلا تملك أن تحبس دموعها . ينظر اليها ويقول : لم
 تبكين ؟ ألسنا فى النهاية سعداء ؟!) واللحظة كانت مسؤولة . لم تتركها
 تمضى وتفر ؟ لحظة عجز عن تصميم فى وجه الحب - الموت . عبرت لن
 ترجع أبدا . لم تمسكها من خصلات الشعر الذهبى . كانت تدعوك
 وتبسم لك : لم أحجمت ؟

وتجىء الموجة بعد الموجة فى طوفان الجرى وراء الحبز المر مغموسا
 فى أوعية الملل ، اليأس ، القبح ، الذل . واللحظة لا ترجع أبدا . أهى
 فكرة ثابتة تنام على فراشها المريح ؟ عزاء وتبرير ؟ هل تخدع نفسك ؟
 نضع الدرع البراق على جثة فارس ؟ كى تستمتع بالحرية خلف السور
 الشائك ؟ تتلذذ ببيكائك فى كهفك ؟ يا للأوهام السهلة ! سهل أن تتهم
 النفس ، تعذيبها ، فالتعذيب شريعة هذا العصر . لكن الفاجعة أمر .

والمحنة أكبر من مشكلة الحب . فلكم أحببت وجربت . حاولت أن تكون
البرجوازي الصغير - من يملك أن يخرج من جلده أو يتخلص من ظله ؟ -
تقرأ الجريدة وتتابع أخبار النجوم والأغاني الجديدة ، تحرص على سلسل
الاذاعة والتلفزيون . تنتحسر على أيام الخير وتقول مع ذلك : غدا يتحسن
كل شيء - لكنك لاتدري كيف ؟ - ومثله وضعت الحاتم في يدها (وضعت
مرتبن في يدين . أبرأت ذمتك ككل مواطن صالح يؤمن بالله والوطن)
وعندما أردت أن نضع يدها في يدك خلصتها منك . كانت مع الآخر
ترقص وتأكل من الشجرة المحرمة - على آدم المسكين وحده ! - كنت مملا
والكنب ممل . وجه الحكمة لايلمع منل وجوه العملات الصعبة . والأخرى
كانت أذكى وأمر . داعبت الطفل الراقد فيك وسخرت منه . أخذت منه
الذهب المشرى بعرق العمر . يامن تتلوى في محراب الفكر . أحرق
كتبك قبل فوات العمر . اربط ربطة عنقك واسمع آخر أغنية في مايلدبه
المستمعون . واذكر حين يجن الليل ، أنك وحدك . وحدك كاله الصمت
كوحش مجروح . وحدك تتألم وتموت ، حتى لو كانت في أحضانك ملكة
تدمر .

واحمل حائط مبكاك الى القبر .

اللحظة ضاعت (هل يتسع العمر لعودتها ؟ هل يرجع دولا الزمن
الدوار فتظهر لك ، ببتسم كنجم صاف خلف سحب الدمع ؟) عبنا نجعم
عنها أكوام المعلومات ، تشغل نفسك بالزمن القاسى . ها أنت تحاضر عنها
منذ سنين . تهتف أحيانا : مادام القلب يدق فلا يأس ! فاللحظة فاكهة
ننضج في موسمها . حين يحين أوان النضج . اللحظة - سر الوهج الخالد
تحت تراب الفانين - تحتاج لمروحة الشمس وأجنحة الريح وأنفاس المطر .
سينينا بعد سنين . لاتيأس أبدا ، حين تزيد المحنة يأتى المنقذ (عنوان
كتاب عن أفلاطون ! هذا المنقذ سيفادر كهفه . يترك كهف الأشباح ويتصعد
للنور الحق . فمتى يخرج منه ؟ أم خرج ولم يرجع بعد ؟) تهتف بقلوب
بكر : عيشوا اللحظة ! لحظة الحسم والقرار والاختيار . لحظة التحدى
والفعل الحر . بيا يواجه الفرد نصيبه ، والشعب قدره . من يخذلها ،
يهرب منها ، من يحجم عنها يبقى مدحورا أبد الدهر . هذا قانون الرمن
وسر التاريخ . من يتحدى الموت يعيش ! من يحيا الموت يكون ! كلمات
ضخمة . (أحيانا تتجسد ، تتحقق ، تنفذ فردا أو شعبا يفرق . احمد
ربك أنك عشت اللحظة . لحظة عبر أخوك الجندى الى سيناء . ماأظلمه
وهو «يكبر» صبة «بدر» . ماأكرمه وهو يلف حزام البارود على جسده

أضناه الفقر ، كى ينسف - باللحم الدافىء - درع حديد متكبر . عل
تتكرر هذه اللحظة فى سيناء وغزة والجولان ؟ هل تنقذنا الا لحظات الحسم
الحر ؟ أم نشغل عنها ، نهرب منها ، نستشمرها فى شيكات وشعارات ،
فى المستورد والبوتيكا ، فى أفلام أو حلقات ، فى الجشع الذاهل عن
لحم الجندى المسكين ؟) . أخشى ما أخشاه الآن : أن تأتى اللحظة وأنا
أحتضر وألفظ آخر أنفاسى . أن تتقدم منى كالعذراء وتهمس : عمل
تذكرنى ؟ - وأذكر عندئذ اننى نسيت . انى لم أكن أنا نفسى . يقول
قائل يعزبك : ومن الذى حقق نفسه ؟ أين الذى رضى عنها ؟ حتى الذى
أنجز الأعمال الكبرى ، فى الفن أو الحياة ، هل رضى عن نفسه ؟ وربما
قلت لنفسك : حقا لم تتم عملا كبيرا . ولكن آلاف الصفحات التى كتبتها
- يا للذنوب الثقيلة ! - لا تخلو من أنفاسك . ترجمت كثيرا وأنكرت نفسك .
أليس هذا عطاء ؟ ألم تعيش ونجرب كل كلمة وسطر ؟ وا أسفاه . الطيبة

جنت عليك . (فى أيامنا يسميها الكذابون ضعفا ، كما يعدون أرفه
عجزا والوداعة والأدب جبنا) . البراءة والنقاء ظلماك (وكل ما فعلت
أن حاولت البقاء نقيا أبيض مهما خضت المستنقعات) . فنيث فيما كتبت
ونقلت (صادقاً تقول : ما أقله وأهون شأنه ! كم كانت هناك أعمال
أخرى أجدر وأهم !) حتى أوشكت أن تتقمص أرواح الذين شغلت بهم .
أسروك حتى كدت تصبح صدى لا صوتا ، نسخة لا أصلا . أكانت «شهادة»
وأداء واجب ، فريضة لغة نادرة شاعت المصادفة أن تطرق باب حضارتها

وأدبها . ولم لم تستطع الجمع بين هذا « الواجب » وواجب آخر أكبر
منه ؟ أهو ضعف الحيلة ، قلة الهمة ، غباء الطبع ، ذل الخبز اليومي .
لذة الانبهار بالآخر والغير ، غرور التلويح به فى وجوه الآخرين ؟ ربى ،
ماذا كان الأمر ؟ المسألة - كما قيل بحق - نسبية ، والغرور لم يبلغ بك
أن تصدق الثناء (فى النهاية : ماذا تقوى الكلمة أن تفعل فى مجتمع
متخلف ؟) والشوكة ما زالت تدميك : لم لم تحقق نفسك أو بعض
نفسك ؟ لم لم تستجب للحظة الخلق ؟ لم لم تصبر وتثابر ، وفى أجيال
الرواد وأجيال معاصريك وجوه مضيئة تحبها وتتعلم منها ؟ بالأمس فتحت
كراساتك القديمة - كدت تنساها فى غبار الأدراج ! - طالعت خواطرك
وقلبت المشروعات - (عشرات القصص بداتها ولم تتمها ، مسرحيات
وروايات طويلة وقصيرة) - أين كنت ؟ لم جرفك التيار ؟ كم نحن أغنياء
بالافكار فقراء فى الأعمال (٦) ! يهزون رؤوسهم ويقولون : مترجم حساس
وباحث جاد . وتطعن فى القلب . وتدور دوامة التدريس . تطحنك
الطاحونة (ترى كيف يواجه المحنة من هم أعظم منك وأعلم : أم انك تهول
كعادتك وتصارع شبحا لا وجود له الا فى رأسك ؟ !) . وفى النهاية لم

تقول هذا الكلام ؟ لمن ؟ ألم يكن الأولى أن تصوره في مشاهد ومواقف
وسُخسيات ؟ أهو العشق الموروث : تعذيب الذات ؟ ألا يجدر بك أن
تبدأ السير على طريق الثقة والاطمئنان ؟ أتبدل وعدا ؟ أتحاول أن تنزع
خيطا من عقدة صمتك ؟ من يكثر بدمعك ؟ من يهتم بحائط مباكك ؟

قاس عليك الزمن . كان الزمن قاسيا . عشت الزمن الأسود .
الضوضاء حاصرتك . والازعاج طوقك وأطبق عليك . (ألهذا آويت لكهفك ،
وحملت تراث الإنسانية منفاك ؟) الجهد كان قليلا والحيلة ضعيفة .
النساعات تنطلق وتدوى . رياح الجديد والغريب تعصف . الانبهار
بالموضات والعجائب يذهل النفس عن ذاتها (أنت أيضا شاركت فيه .
هل تتقبل توبتك الآن ؟) . البطولات الزائفة والصيحات الكاذبة وتعليمات
كيفية الايديولوجيات « ينبغي ويجب ولا بد » سحقته براعم المواهب المتفتحة
وشنتت أوراقها وأزعجت عصارتها الحية وسلطت عليها سموم الادانة
(بعضها سكنت . بعضها اتجه للسلسل والتلذذ بطعم الدولار ، بعضها
لاذ . من جحيم الضوضاء الى قاعات الدرس ، أقلها نجح وصمد وأبدع أعمالا
لا يبدعها الا الصبر) .

عشت الزمن الأسود . (عندما يظهر الطاغية الكبير يصبح الجميع
طغاذ صفارا ، من الحاكم الى الكناس وجندى الشرطة) (٧) لم تعذب ولم
تعلق من قدميك ولم تركل ولم تلطم على وجهك ، ولكن بعض الذين
ـ واللم لم كانوا أقرب الناس اليك . وكتب
يان (حنى أوسك أن يكون هو اللحن الأساسي في كل كتاباتك
الثقيلة الشأن) . حتى الدراسات لم تخل منه ـ مع الحذر الواجب ! ـ

حاولت ـ على طريقتك الهامسة الحية ـ أن تواجه الازعاج
والضوضاء . كتبت عن « صمت جوته » وعن السكينة التي قتلناها فقتلنا
معها روح العلم والهدوء والنظر المتزن . كانت الحناجر أقوى من العقول
(هناك الآن بصيص أمل في أن كفة العقل والعلم بدأت ترجح . لكن هل
اختلفت من حياتنا الأصوات العالية والادعاءات المدوية والعنتريات الزائفة ؟
أليس من واجبنا نحن الكتاب ـ أن نقاومها ونخمد أنفاسها ؟ يتردد في
سمعي الآن صوت يح من الدعوة للعلم ، للفكر المنتج عملا ، للنظر الخالص
من اضطراب العواطف وزعيق الشعارات وبريق المطلقات والتعميمات ـ
وبالجملة من الكذب والضوضاء التي كادت تصبح علامة عربية (٨) مسجلة .
والنتيجة ملايين اللاجئين والمشردين ، والأدعياء والمتبجحين ، والعاطلين
والمنسولين . والخطر المحدق بملايين أخرى .

والخطر المحدق أن نصبح « كغناء السيل » - أن تنقرض حضارتنا ، ونصبح تاريخاً فات ، حقل تجارب للأمم الأقوى ، مثل خيام وعقالات وعيون جائعة وبقايا آبار النفط : هل عرب أنتم ، هل عرب أنتم ؟ هل عرب (٠٠٠) (٩) . أعرف أنني أبالغ وأسرف في المبالغة ، ان شبح الانقراض - الذى خيم على سنين طويلة وجسمته أمامى قراءات طويلة فى فلسفة التاريخ - ربما يكون قد بدأ يتهكم على . ولقد عشت - بحمد الله - حتى رأيت مواجهة الصمود فى أكتوبر - رمضان ، ولمست أبواب الحرية وهى توارب والأصوات تردد شعار العلم والايمان (ولا بد من الصبر والعمل المشترك حتى يصبح سلوكاً حياً لا مجرد شعار) . لماذا أستطرد ؟ أأجد تبريراً ؟ الأفضل ضعفى وعجزى أنا وجيلي ؟ الأقول للمواهب الشابة : تأبروا على الأعمال الكبيرة ، اصمدوا لمعرفة الذات ، فمعرفة الصبر على اكتشافها والدفاع عنها فى وجه كل ما يشتهاها هو العبقرية نفسها : ومن أنا حتى أقول هذا (أو أدعو إليه) كيف يعطى الشيء فاقده ؟ هل يشاركنى أحد فى ألمي ، هل يحس به ؟ أهو اعتراف ، ولمن ؟ ولماذا أعلنه فى هذا المكان ؟ ألم يكن من الممكن أن أستغل كرم هذه المجلة فى شيء أنفع ، وقد سبق لها أن أكرمتنى ورعت بعض بذورى الفقيرة التى أقلب الآن حصاها الفقير ؟ هل أعدتني البطولة « التى يدعيها الكاتب حين يرتدى مسوح النبى والكاهن والمعلم والرائد ؟ أم أصابنى - دون أن أدري - المرض الذى حذرت منه كثيراً حين تكلمت عن التواضع والاعتدال ، حين جعلت مثلى الأعلى ذلك « البطل » الصينى المسكين ، ذلك الحكيم الطاوى الذى حارب معركته وحقق انتصاره ، ثم استقل مركباً خفياً وتوارى عن الأنظار ، أنظار الذين وعدوه بنصف المملكة هدية وانتظروا للاحتفال به ؟ رب لم هذا التناقض كله ؟ هل آن أن أخلص نفسى من هذه المناجاة وأعبر بالصورة لغة الفن ؟ أم يمنعنى أكل العيش وضعف الحيلة ؟ أنتم يا من ستظهرون بعد الطوفان الذى غرقنا فيه ، فكروا عندما تتحدثون عن ضعفنا ، فى الزمن الأسود الذى نجوت منه ، وإذا رأيتمونا نبكى ، فاذكرونا ، وسامحونا (١٠) .

« الضعيف هو الغبى الذى لا يعرف سر قوته ، وأنا لا أحب الأغبياء » (١١) .

هنا أجد نفسى أمام عمل يكشف لى اليوم - وبعد كتابته بحوالى عشرين سنة - عن معان وإحياءات جديدة ، شأنه شأن كل فن عظيم . أجد نفسى أمام فنان لم يكف عن التجربة والريادة والمغامرة ، هو بالنسبة لى (وربما لكثير من جيلي ، وان كنت لا أحب التعميم ولا التورط فى الكلام نيابة عن أحد) منارة شامخة ترسل ضوءها الهادئ لسفينة المصير العربية ،

ولقوارب المواهب الصغيرة التى تتلمس طريقها فى الظلمات . هذا رجل عرف نفسه ، سر قوته . كجبل المقطم بقى صامدا يطل - بحبه وحزنه الجليل - على المدينة العتيقة المضطربة بالفقراء والمقهورين والمتسولين والفتوات . كتب ما كتب ليمحق الفقر والقذارة والتسول والطغيان ، لتختفى الحشرات والذباب والنبايت . وبشرنا بالسحر - العلم ليخلصنا من قهر الفتوات وكذبيهم - الفتوات فى كل مكان ، فهل آن أن يختفوا ؟ - ومن الزيف والبطش والدجل - وهو فى حكايات الرباب كما هو فى دعاوى المتبجحين وبلاغيات الهتافين ، حتى كدنا نحن العرب أن نصبح ألقاظا تمشى وتاكل وتنام - هل نقرأ هذا العمل من جديد ؟ وهل نأمل أن نحاول قراءته بعيدا عن التشنيج والخوف ؟ هل ندرك الآن أنه كان رؤية بصيرة لتصحيح النورة ومحاولة للمزج بين العقل والوجدان أو بين العلم والايمان الذى أصبح الآن كلمة على كل لسان ؟ هل نطمع فى قدر كاف من الحرية الظاهرة والباطنة التى تسمح للأديب بتناول مادته من التاريخ الدينى أو الأسطورى فينصرف فيها كما يشاء له فنه وضميره (والفنان الحق ضمير العالم ، ميزان التاريخ) مثلما يحدث فى كل بلاد الله فلا يرتفع اصبع اتهام ولا يجمع قلم ولا يتناول لسان ثرثار ؟

(١٩٧٧ - السيد الفضى لجللة الآداب البيروتية)

اشارات

- (١) هو كتاب تاو - تى - كنج (الطريق والفضيلة) للحكيم الصينى لاو - نى .
- (٢) هو الكاتب الدارس فاروق خورشيد .
- (٣) هو الفيلسوف سارتر .
- (٤) نشيد الانشاد ، الاصحاح الثالث .
- (٥) ابيجرام منسوب الى سيمونيدز (من حوالى ٥٥٦ الى حوالى ٤٦٨ ق.م شاعر اغريقى من جزيرة كيوس) .
- (٦) عن قصيدة لهدرلين (راجع كتابى عنه ، القاهرة ، دار المعارف . ١٩٧٤ .
- (٧) رأى للكوكبى فى « طبائع الاستبداد » .
- (٨) هو صوت اسناذنا زكى نجيب محمود الذى يدعو للتفكير العلمى وحضارة العلم لا حضارة الألفاظ منذ حوالى نصف قرن وبخاصة فى كبه الأخيرة .
- (٩) عن قصيدة لمظفر ثواب .
- (١٠) بتصرف عن قصيدة برشت المشهورة « الى الأجيال المقبلة » . واود الإشارة الى خواطر رائمة لفرانسوا باسيل نبهتني اليها صديقى الفنان ضياء الشراقوى وقد نشرت فى مجلة « الكاتب » القاهرية تحت عنوان « ساؤلات لحُدش كبرياء المداع » ، العدد ١٨١ ، ابريل ١٩٧٦ ، ص ٥٢ - ٦٤ .
- (١١) صفحة ٢٤٨ من أولاد حارتنا وهى العمل الفنى الذى أثار هذه الدفعة عندما كنت أعمل فى دراسة ترجمتها عنه . وقد نشرت الدراسة فى مجلة « مراسلات الشرق » العدد ١٣ ، دون تاريخ (حوالى ١٩٧٥) ، عدد خاص أهداه الى ذكرى المستشرق أ. آيبل نخبة من تلاميذه وأصدقائه تحت عنوان « أمشاج اسلامية » وصدر ضمن منشورات مركز دراسة مشكلات العالم الاسلامى المعاصر : مدينة بروكسيل . واليك العنوان الاصلى للدراسة وبيانات النشر لترجع لها ان شئت .

Mélanges d'islamologie — dédiés à la mémoire de A. Abel
par ses collègues, ses élèves et ses amis. Volume II. Bruxelles, p. 375-
Gott, die Futuwwat und die Wissenschaft — àu Nagib Mahfuz :
Aulad haratna par Fritz Steppat in : Correspondance d'Orient No. 13

(الله والفتوات والعلم - عن أولاد حارتنا لنجيب محفوظ لأستاذى
الدكتور فرتس شتيبات - نشرت ترجمة المقال مع مقدمة له فى مجلة
الثقافة ، نوفمبر ١٩٧٩ بعد أن اعتذرت مجلة الآداب عن عدم
نشرها) .

اللمعة الثانية

لمن أتحدث يا نفسي اليوم ؟ (١)

الدمعة الثانية :

لمن أتحدث يا نفسى اليوم ؟

— آه ...

— ما بك ؟

— ضاقت نفسى سئمت نفسى من نفسى .

— نفسك تسمعك — تكلم !

— ماذا يجدى أن أتكلم ؟

ماذا يبقى غير الصمت وماذا يبقى ،

غرقت سفن الغرقى قبل الغرق

والطفل تمنى لو لم يولد أبدا

والموت تسكع فى الطرق

ينتظر البائس صوت البوق ويرنو للأفق

والطير الواجم شلته نذر الشفق

نعق البوم وفى عينيه ارتسمت أطلال الكون وفى الحدق

وتنهى من لا زالت فيه القدرة أن يتنهى

والكل شقى .

— ألهذا جئت ؟ ألا تندم ؟

— جئت أبئك أحزاني ،

وأريك عيون الجرح والتمس البلسم

أتلقف منك الحكمة ...

- القردة منك ومنى أحكم ..
- فأنا لا أنظر .. لا أسمع .. لا أتكلم ..
- سيعز علي سكوتك عني ..
- من يسمعني ان صلت نفسي
- وتخلت عني في يؤسى ؟
- هلا حبيب الى الغرب وأوصيت بمركب شمس ؟
- رب الأرباب سيسمع شكواي هناك و « آمون » لن يخل همسي
- و « جحوتي » يقضى في أمرى
- ويدون مظلمتي « خنسي »
- لكأنني أسمع صوت المتعب يلعن عيشه
- من مملكة العرب يجيء ويحمل نقشه
- يسترحم نفسه .
- أن تمضي معه في مركبه ، فتقاوم طيشه
- وتعاتبه وتهذئه وترمم عشه
- هل جئت تزين لي موتى ؟
- بل جئت لأشكو من يأسى .
- أحياتك تقبل في النعمى ، في الشدة ترفض والبأس ؟
- يا اختي مهلا لا تأسى ،
- سأسوى مثواك بنفسى
- وأقيم الظلة تحميك من البرد ومن قيظ الشمس
- عش يومك ، لا تقس عليا
- ان أقس فانك لن تقسى
- ولن أتكلم أو أشكو
- ان صلت وابتعدت نفسى ؟
- ولن أتكلم ؟ واليوم يعاف اسمي
- أكثر من رائحة الرخم بيوم القيظ المحموم ،
- ولن أتكلم ؟ والجار يدبر همى
- وصديق الأمس نعاه اليوم ؟
- ولن أتكلم ؟ قر الناس على السوء

وججدوا الحسنى والاحسان ،
ولمن أتكلم ؟ والماضى ينسى من ذاكرة الناس
ولا عون من انسان ،
ولمن أتكلم ؟ فقد القلب رضاه
وظل الصاحب مفقود ،

– ما بالك تتمنى الموت ؟
هل يبدو اليوم أمامك
فتخاطبه ، أم طيف زارك فى النوم ؟

– يبدو الموت أمامى اليوم
كشفاء من مرض طال وعثق من ذل الأسر
يبدو الموت أمامى اليوم
كشوق سجين للبيت الآمن بعد سنين قضاها فى القهر

– دع شكواك وألق بخورك فوق الجمر
وأهنا فى يومك ٠٠

– أهنا ؟ هل تخفى عنك هموم القلب ؟

– افتح قلبك ٠٠ هات السر !

– يا نفسى ٠٠ لست بأول من يرثى نفسه
ينعى غده ، حاضره ، أمسه

أرثيها مثل الشاعر « عديغوث » (٢) أو « مالك » (٣) أو « فيون » (٤)
عل دموعى تسقط فى حقل فؤاد محزون

فتنبه بذرة أمل أو شوكة غضب مدفون •
أحمل مصباح « ديوجين » (٥) المسكين

أهتف فى وجه الناس لتسمع أذن من طين :
أنتم فى جنح الليل – متى تصحون ؟

دولاب الزمن يدور وأنتم تنقرضون وتندثرون
أشعلتم حرب بسوس أخرى

وهزمتم بعضكم البعض وأنتم مهزومون
واستسلمتم لطغاة الدنيا والدين •

– تسقط قطرات الدمع على قلبك
كالمطر على أرض مدينه

هجر الناس مساكنها

تروى زهرة أمل ٠٠

زهرة أمل

أم شوكة ألم بعيونى ؟

- يروى دمعك شجرة أمل فى غابات شجونك وشجونى

وغدا ستمر خطى الخطاب ويقطف من ثمرات عيونك وعيوني

يوما ينجز وعد سنين

فالرجل أمين !

- أظنين ؟

- كفكف دمعك يا عبد يغوث ٠٠٠

يا مالك (٦) ممن ترجو الغوث وليس هناك مغيث ؟

الدمع على خد البطل مهان

ذابت أعمدة الملح وثار الموتى فى الأكفان

وقريبا تلد الأرحام الفرسان

والفارس لا يذرف الا دمع الفرح

على صدر الشجعان ٠٠

- أقدام الحيل قد انكسرت ، ٠

ساحت فى رمل الأحزان

والفارس مقهور يبكى

فى ظل جدار الكتمان

لا الشعر يفيد ولا الدرع المكسور يزود الأشجان

- لا الشاعر أنت ولا الفارس ، قل لى من أنت ؟

- سؤال يحتاج الرد عليه لألف سؤال ا

لغز يفترس العمر الضائع بين القدرة والآمال ٠٠

- أرنى وجهك ، مرآتك ٠٠

- مرآتى ؟ لا تبصر متلى ٠

هل تكشف ما لم تكشف لى ؟

- فى كل صباح تنظر وجهك فى المرآه

تكرهه ، تلعن صحبته ، تهرب من رؤياه

تسمع شخصا آخر وتراه

تتجول فى طرقات النفس وتعجب مما تلقاه :
 أعراس جذلى ومآتم ، موكب غابات ويساتين
 جنات نعيم وجحيم ، رقص ملائكة وشياطين
 تدخل من أبواب الرؤيا وتعانق
 محبوبا هجرك منذ سنين
 لكن آه من وحدتك الأزلية وسط الموكب يا مسكين !

— وحدتى الأزلية .. جرحى

الديك دواء يا نفسى ؟

قولى وأشيرى بالنصح

— ما جدوى الصمت أو البوح ؟

فدواؤك داؤك لو تدرى

والبلسم يكمن فى الجرح •

تمشى وحدك

تبكى وحدك

وحدتك تنادىها وحدك ،

حين يعجى الموت ويلجم خيلك

من منهم يسبل عيئك ومن يستر عريك ؟

من يلقي حفنة رمل وتراب فوقك ؟

تتسلق جبل الوحدة وحدك ..

آه كم فى الدنيا من أشياء عجيبه •

لكن أعجبها الانسان (٧)

والأعجب أن يتخلى الانسان عن الانسان ..

— أنا لا أتخلى ... بل أستغنى كالاشجار

تحيا فى الغابة ، لم تسأل عن رغبتها

لم يطلب منها أحد أن تختار

تنمو ، تزدهر ، تشيخ وتذبل أو تنهار

لكن تحمى وحدتها باستمرار

وتصر عليها كالنساك بلا اصرار •

ماذا تحتاج الشجرة ؟

تتنفس من أنفاس الريح تقبلها الأمطار ،

تطعمها الأرض وزاد الأرض غنى بالأسرار ،

لكن الشجر ضنين بالأسرار
لا يفشيها الا للحطاب أو النار !
« إذا أحتاج اليه ؟ ماذا يحتاج الانسان ؟
الجرعة تروى عطشه ،
واللقمة تستر عيشه ،
وامرأة تدفىء فرشه ،
والنور ليطرد عنه الوحشة ،
والكلمة تحرس من ريع الصدفة عشه
حين يغيب وتنطفئ الرعشه
ويشيع ملك الأحزان المرة نعشه
يحتو فوق القبر ليحفر نقشه :
« منكسرا عاش ، منكسرا مات ،
فى الظل اليائس شيد عرشه
سار من الوحشة للوحشة .. »
ألمح فى عينيك الضحكة ..

- ما زلت صبيا بين ذراعى أمك

لم تكبر أبدا
فمتى تعرف موضع قدميك
وتطرح عكازا تسند عليه أو يستند عليك ؟
ومتى تقنع أو تغتبط بشئ ؟
تكره نفسك
فتفوح روائح منك
كالماء الآسن فى مستنقع
تتناثر فقاعات الملل السام الضيق الأبدى المفزع

- يا نفسى .. لا تشتطى فى اللوم المقذع .
ان كان الذنب شنيعا ، ذنب العالم فى حقى أشنع
والحمل ثقیل مفجع ..

- ماذا لو جربت :

أن ترسل طائر عينك فى أغوار النفس
وفوق صدور الموجودات
ليرفرف بالحب عليها ، يفرق فى النبع المترع

- بالحكمة والمعرفة ويرجع
ليشيد العش الدافئ بالحب ويجمع ؟
- يفرعنى الصمت الخالد فى أرجاء الكون المفزع (٨)
وجه الموت شنيع ، وجه القتلة أشنع
والظلم الراكض فى الطرقات
يدوس الناس ويضمر ظلما أظع
وأنا أتعثر فى عجزى
وطريقي تذهب ٠٠ لا ترجع
- هاجر واهجر تلك الطرق الملتوية طرا
حاول أن تصبح سيد أقطار أخرى
سيد نفسك ،
وادفن جسد عبوديتك الماضية
وواجه موتك
وتحد الخطر لتولد أو تهلك ،
لا تسرف فى خيبة أملك ٠٠
- ماذا أفعل ماذا أملك ؟
- قبل أملك ٠٠ غيره بمطرقة الخلق
واجبل من طينة ذاتك روحا ينطق
واذا فاض بنفسك نهر العشق
فارو الأرض العطشى
وانفخ فيها أنفاس الصدق ٠
ماذا تبغى ؟
- تدرين بما أبغيه فكم كابدت الشوق !
لمسة صدق
- فى الفن ؟
- وفى العيش وفى الشعر الحق ٠٠
- الشعر زهور ، ذات جذور
تنمو وسط الدود وفى أعماق الطين
لا فى الجنة أو بين الحور العين !

طوبى لرجال عرفوا كيف يعيشون
وكيف يموتون
كماعرفوا كيف يغنون !

_ لست بشاعر ..

انى أحيا الشعر ولا أكتب شعرا ،
تفتننى كل الأشياء وتملؤنى ذعرا ،
فى قلبى طفل مندبوح
فى عقلى شيخ مجروح
تصدح عيني كالصفور على شجر الليل وفى غابات المر تنوح
تظفر بالدهشة والألم وأحزان الموتى والأحياء
أحزان لا تدركها الأبصار ولا الأسماء

_ من يدريك لعل العصفور يحلق فى الأجواء
كسفينة أمل ، زورق سعد يحمل فوق جناحيه السعداء ؟

من يدريك بأن العصفور
هو كرة الكون المسحور
تجرى فى فلك الغبطة وتدور ؟
عشت طويلا فى قبضة شبح حالم
مرآة فى غابات العالم .
ينعكس عليها غضب الريح وهمس الطير
قوقعة فى قاع البحر الساكن
تجتز عذاب الموج وأشواق السمك الهائم
فى أحشاء العقل الباطن
هل حانت ساعة صحوك من هذا الكابوس القاتم ؟
هل يستيقظ فيك الانسان
ويثار من « كاليبان » ؟ (٩) .
هل يلقي حمل الشبح الجاثم
فى آبار النسيان
ليهب النور من الأكفان
وتنبت فيه القوة والعينان ؟
_ ها أنت سرحت مع الأحلام ..

- بل أنقذك من الأوهام ٠٠
- ووهمك أنت ؟
- هات البرهان !
- هل يخرج فوق - الانسان
من شبح ، صورة انسان ؟
- هل تخرج صورة انسان من صلب قرود ،
أو عملاق أشقر من نسل الأقزام السود ؟
- ويلك ٠٠ هل تكفر بالانسان ؟
- بل احترم الانسان ، عبدا أو حرا كان ،
أحيا وأموت لأجله
أكل من ثمرة عمله
روحي تكتئب وتكدح
كى تروى شجرة امله ٠
- أو ليس شريكى فى الوحدة والصمت
أخى فى المولد والموت ؟
- أو لا يجمعنا سقف واحد
فى بيت الرعب القاتم
أولا نجلس فى ظل واحد
تلقيه شجرة هذا العالم ؟
- لو تتشبث بجبال الرؤيا فى أعماقك
لو تصعد فوق الجبل الرائع مع كل رفاقك
لعرفت بأن الانسان
أكثر من انسان ٠٠
- أنصت للصوت الهاتف فى صحرائك
يهدر بالكلمة والحرف وبالمعنى الشائك
أصغ لصوت اله واحد
يطبق بيديه على أعضائك ٠
- من يسمعك اذا صحت من الألم سواء ؟
من يتحمل ربعك الاله ؟

أنصت للصوت الممطر
تثمر أشجار بكائك !

تشرق شمس يقين في كبد سمائك
تتفتح زهرة قلبك في عتمة صبحك ومسائك
يتفجر نبع الخضر ببحر ظلامك
تثب الأفكار على صوت نداءك
ينشر عقلك ..

- علقى كنسيج هاو تلطمه الريح
مصيدة ذباب العالم ،

مسكن كل جريح
مأوى كل كسيح ،
ينفرد مع الأحزان المرة والأفكار المرة
في سجن الحرف

أخوته الضمة والكسرة وحروف العطف
ما يشقيني أن الكلمات بلا سيف
ماذا أفعل بنسيج هاو في وجه الغلظة والعنف ؟
هل يبقى الا الصمت العاجز ، الا العزلة والخوف ؟
عشت أحارب في معركة خاسرة بسلاح الوهم
آه لو كنت سمعت نداء الحب فلبيت

وبسطت يدي العاريتين لوجه الشمس أو الموت
لحملت حطامى فوق حطام سفين يعبر بى هاوية اليم
أو يسعفتنى فى ليل الصمت

وعرفت حقيقة حالى قبل فوات الوقت :

ما عشت حياتى ، مت وراء قناع جهم
بل سبعة أقنعة نسجتها كف الوهم
الحكمة ، والصبر ، وقار العالم والسمت ؛

- لا يكره قلب الحكمة أن ينفذ فيه الحب !

- قالوا .. الرأس حكيم غطاء الشيب ،
والقلب كبير ، أكبر من أن يكره ويحب .
ومضوا بضمير مرتاح لم يثقله الذنب ،

- لم يلتفتوا كي يجدوا العابد
يخترق كما احترق اليوذى الزاهد (١٠)
ليصير ترابا يطفىء نار الحرب ،
ويخلص لحم الشعب البائس من ناب الذئب ٠ -
ها هو عار مجروح كيسوع بعد الصلب ،
ضنت حتى الريح بأن تحمل شكواه الى الرب
بعد فوات العمر وتعب القلب
ما خلص حتى شعره كلب !
- وعرفت الهوة بين القول وبين الفعل
بين الحرف وبين السيف ،
بين النطق وبين الخلق ؟
- لم أعرفها ٠٠ غصت بلجتها حتى العمق
أشهب ، أختنق ، وأحترق وأحرق
تفجعني الهوة بين القدرة والآمال
بين الكلمات وبين الأفعال
كم أحبيت الكلمات
كم صليت لها وركعت
أمسح بالدمع الأقدام
أضفر رأسي بالأوهام
جعت ، ظمئت
من زاد الكلمات طعمت سقيت
وعلى صدر الكلمات غفوت
أطرق أطرق كي ينفتح الباب
أجمع خشبي والأخطاب
لأمد الجسر الى الأحباب
سدت في وجهي الأبواب
تداعى الجسر وشاخ الحاطب والحطاب
وافترس الكلمات كلاب
دربهم كذاب الزفة والنصاب
ظل الحلم يداعبني أنا وصحابي
أن نعدل قامة هذا الكون المقلوب بقلم وكتاب

خرج العالم عن محوره (١١) ،
 هل تصلحه كلمة صدق من قلب شاب
 ما دام الحب غريبا يستجدي بالأبواب
 والعدل كسيرا ينتظر الاذن من الحجاب ؟
 مرت أيام العمر ، تساقط يوم موءود
 فى يوم آخر مولود كابى
 وانغرس السهم بقلب الورد
 جفت أوراق شبابى
 كنا نقف على الأقدام ونقف الآن
 على رأس يشتغل الشيب بمفرقه الخابى
 ويدب القلب
 ويعرج من صحراء لسراب
 تسألنى ما بك ؟ أصمت
 أسأل نفسى : حقا ما بى ؟
 أصرخ من هاوية الخمسين فيختنق سؤالى وجوابى
 ها أنا أهبط تل العمر
 تمضى الأيام سراعاً نحو القبر
 تتلفت عينى : أمسى صخر
 وغدى قفر
 وعلى طول طريقى شجر مر
 ويوسوس شيطان غر :
 لذ بالظل قليلا من وهج الحر •
 كيف أذود الطير
 عن ثمر لا أبلو منه الا القهر ؟
 يا شجر العمر !
 يا شجر العمر !
 أغصانك هذى أم تتدلى منك مشانق خضر ؟
 مشنقة للسر النائم فى تابوت الصدر
 ولأطفال الحب الموءودة قبل طلوع الفجر
 للقبلات الحلوة لم أطبعها فوق شفاه حمر

للرجبات المجنونه
 والشهوات المسجون
 والآمال المدفونه
 فى كفن الحكمة والفكر •
 تمضى الأيام سراعاً والأيام شجون
 وتعلل نفسك : سوف تكون
 وتمر اللحظة بعد اللحظة مر الفرس المحموم
 ينظر فى عينيك لتقبض خصلات الحظ المقسوم
 فتشيع بوجهك ، تهمس : انتظر الفرس المأمون !
 سقطت خيل الزمن المطعون
 وتعثر يوم محزون فى يوم آخر محزون
 وتنكرت لنفسك حين أضعت وصية مت لتكون
 لا استدفأت بنور « أبوللو » المقتون
 ولا شب بدمك حريق من كأس « ديونيز » المجنون (١٢)
 - لو شب بدمك حريق من كأس « ديونيز » الملعون
 لو كنت رقصت كرقص « الباخيات » المجنون
 لغدوت طريقاً كالجدى المأفون
 وسعيداً وسط السعداء ..
 - بل قولى وسط التعساء ..
 كيف آكون سعيداً وسط التعساء ؟
 أو أفرح برنين الكأس أو الذهب اللامع بين الجوعى والفقراء
 من يمكنه أن يبقى حياً وسط الأشلاء ؟
 أحياناً أضحك من شدة نزقى أو خطى
 أسرع أضع الكف على شفتى من الحجل
 فالضحكة تصبح اثماً أفدح من اثم القتل
 حين يسيل الدمع من القل ..
 والكلمة تصبح
 - دع شأن الكلمة فهى رنين وطنين
 ان لم تسرح مصباحاً يهدي ليقين

ان لم تحمل بالعمل كما تحمل أم بجنين
فالكلمة ٠٠٠٠

.. ماجدوى الكلمة ؟

صمت الشعب كصمت الطين
وحواة السيرك الخالد يجتهدون
أن ترقص رقص القردة ، تلعب بالبيضة والحجر ،
تغنى تضحك تبكى للجمهور المسكين
أين الحق من الباطل ؟ ٠٠ كدت أسلم بجنونى !
- لو كنت تغوص ببطن الأرض مع الفلاحين
لعرفت الحق
لو كنت تعلم أميا كيف يميز بين الميم وبين النون
لعرفت الحق
لو كنت تجاهد فى ساحات فلسطين
لعرفت الحق

- معك الحق • معك الحق •
ياربيع الصدق !

هبى واقتلعينى من أوحال الرق
ياوجهى الباكي مزق أقنعة الموت بلا رفق
أخرج من جسد الليل ، ادخل فى جسد الريح
وتأهب للمطر القادم والبرق ٠٠

- كلمات ٠٠ فى كلمات ٠٠ فى كلمات
كالشحاذ المتسول من شحاذ تمشى فى الطرقات
ومتى يحدث هذا ؟

- حين تتم المعجزة وينفجر البركان العاتى
يطمر آثار القهر ويبعث كل الطاقات
كل ينابيع الخلق لدى الأحياء - الأموات ٠٠
حين تتم المعجزة ٠٠
- فات زمان المعجزة

فواجه سيف اللحظة واليوم الآتى •
هذا الزمن الحاضر ••

— انا لم نختر هذا الزمن المجنون
لم يسألنا أحد أن نولد فى هذا البلد المحزون
لم يسألنا أحد أن نرحل فوق سفين
يغرق فى جوف التنين
قولى •• ماذا نفعل
ماذا نفعل •• قولى ••

— مايفعله البحارة فوق السفن الغرقى
والربان العابس فى وجه العاصفة الكبرى

— هل يملك الا أن يغرق
ويظل يحدق ويحدق
فى فك الطوفان المطبق ؟

— بل يقف شجاعا
ويحب مصيره
وينازل محنته وحده ••

مد يدك الى أيدى الغرقى
وابن سفينة نوح أخرى

— أتقولين سفينة نوح ؟

آه من نوح وسلالة نوح !
يانوح الصامت كالأوثان

يانوح الغارق فى النسيان ••
يانوح الذاهل عنا

هذا زمن الطوفان

زمن وسام العار على صدر الطغيان

كيف سقطنا تحت سنابك خيل العصر

وكيف اختل بيدنا الميزان ؟

كنا السادة فى طيبة ، مأرب ،

فى القدس وفى الأندلس وكان وكان

لا تسأل أرواح الموتى واسأل عنا الآن

حيث ينام المسجون مع السجان
واللاجئ في خيمته المشتعلة بالنيران
يحلم بجناح براق وعد به الرحمن
ليقبل خد الصخرة ويطوف بالأركان
في زمن الجوع الكافر وثب القرد على عرش السلطان
واليوم تهاجر أسراب النمل الخائف
من زلزال أو بركان
يأنوح الغائب هذا زمناك
زمن الطوفان ٠٠٠٠

- كفكف دمعك ٠٠

- انى أغرق ٠٠

- بل تغرقنى فى الطوفان

- انى تهاجر

وينهار على رأسى سقف الدار
أنجرف مع التيار
نحو الهاوية بغير قرار
تلطمنى كف القيصر والشرطى الجبار
هل توقف زحف السيل الأسود
كلمات أو أشعار ؟
ماذا أملك الا الدمع

أسكبه فى عينيك لتنسى طعم العار
ثم ألوذ ككلب يحتضر بجانب جدار
وأحرق فى سحب الغيب
وأسأل : من يحميك من الاعصار ؟

- ومن يحمينى منك ؟

- منى ؟!

- تتحسر ، تبكى ، تحتضر بجانب جدار

هل يبدو الموت اليوم أمامك
فتحن اليه حنين العائد للدار ؟
تتمنى لو ذبت به ذوبان الموجة فى أمواج البحر الهدار

أوحقا تتمنى الموت ؟

ـ أتمنى ٠٠ الموت الحق ٠٠

أنظر فى عينيه ٠٠ أحقد

وأعانق وجه الخطر المحدث

ويعانقنى فأكون بحق ٠٠

• أولد ، أبعت ، أحيا فى صدق •

الموت جليل وجميل

كجمال المجد أو الشعر

والموت يعبق ويصدق

• هو ثمرة عمرى أو عرقى •

هبنى ياربى أن ألقى

معشوقى فى ليلة عشقى

وعزائى عن رحلة سفرى

وذذ الأطياف اذا جاءت

كى تأكل من ثمرى المر

قد عشت بقبرى ما عشت

فما ضر يغيبنى قبرى ؟

ما ضر أموت لكى أحيا

كى يشرق من ليل فجرى ؟

ـ فجرك ؟

ـ أسمعت ؟

ـ ألا تدرى ؟

وفهمت ، فسرك من سرى

ـ قد كنت أثرثر ، معذرة

من غيرك يقبل بالعدر ؟

ولن أتكلم يا نفسى

وأبوح بسرى أو جهرى ؟

ـ يكفى ما قلت ، ألا تسأم ؟

ـ ولن يا نفسى أتكلم

وأبشر بالفجر وأحلم

– الطير المتعب نام فتم
– أأنا ؟
ونحن نيام منذ دهور
عمى – فمتى تنفتح العين
وتنفتح الأيدي الكادحة وينغلق الفم ؟
– حين يؤذن ديك الفجر ٠٠
– انى أنتظر أذانه ٠٠
– لا يكفى أن تنتظره
اعمل له !
الفجر قريب لو تعلم
فتأهب ، واعمل ، وتعلم
حتى لا تشكو أو تندم
وتلوذ بحكمتك وتحلم
كالقرد الأعمى والأبكم ٠
– الفجر ؟!
– الفجر ٠٠٠
هو الأحكم !

(١٩٧٩)

١ – الموت أمامى اليوم
كالشفاء فى يوم نظر العليل
كالخروج (من البيت) بعد المرض
الموت أمامى اليوم
كرائحة المسك
كالجلوس تحت الشراع فى يوم عاصف
الموت أمامى اليوم
كشوق الغريب للعودة الى بيته
بعد سنوات طوال فى الأسر

هذه سطور قليلة من أنشودة ، أو قصيدة طويلة تعد هذه البكائية تنويعات عليها • ولعل هذه الأنشودة أو الحوارية أن تكون أقدم مرثية عرفها العالم • انها مناجاة رجل تعب من الحياة فراح يحاور نفسه التي تقنعه بالتمسك بدينه – دنياه التي يئس منها بعد أن اختلت فيها كل الموازين وانقلبت كل القيم – بينما أخذ يحن الى العدالة والحقيقة والسلام فى أخراه • وهى نص مصرى قديم حققه وترجمه أكثر من عالم من علماء التاريخ والأدب القديم (مثل ارمان وزيتة وفولكنر وسليم حسن) وأعطوه هذا العنوان : حوار متعب من الحياة مع نفسه ، وحددوا عصره بفترة الثورات والاضطرابات التي جاءت بعد الدولة القديمة • ومع أننا لانستطيع أن نصف هذا الحوار الشعري بأنه مرثية أو بكائية بالمعنى الذى عرف فيما بعد ، فانه يعد قطعة من أصدق الشعر وأنبله ، وأشدّه تأثيراً على القلب •

غير أن المرثية أو البكائية قد عرفت فى الشعر اليونانى والرومانى القديم لتدل على شكل شعري يتألف من بينين (كوبليه) يجرى أولهما على الوزن السداسى وثانيهما على الوزن الخماسى ، ويعبر منذ القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد عن أغراض متنوعة كالحرب والحب والبطولة والسخرية السياسية قبل أن يطلق الاسم المحدد (اليجوس أو اليجابا) على الحداد على ميت أو الشكوى من فواجع الحياة والتأمل فى مآسيها ، وقد يتسع فيشمل قصائد الحب كما حدث فى العصر السكندري والرومانى والبيزنطى ، ويظل الحب والشكوى طابعه فى الشعر اللاتينى – خصوصاً فى عصر أغسطس – عند تيبولوس وبروبريتوس وأوفيد •

ولم تقتصر محاكاة الغربيين المحدثين منذ عصر النهضة لأنواع الشعر القديم وأوزانه على هذا الشكل الثنائى للمرثية ، وانما امتدت الى مضمونها الذى يعبر عن الأسى والحسرة والاكتئاب • ففي ايطاليا نجد المرثية منذ القرن السادس عشر عند « تاسو » و « أريوستو » حتى القرن التاسع عشر والعشرين عند ليوباردى وكاردوتشى ودانزيو ، وفى أسبانيا التى قلد شعراؤها النماذج الايطالية يتصل هذا الشعر من جارتىلا زودى لافيجا ولوب دى فيجا حتى خيمينيث وجارثيا لوركا ، وفى فرنسا يتصرف بعض الشعراء فى الشكل الأصيل وان ظلوا محافظين على المحتوى والنغم الأسيان، بدءاً من جان دوبليه ورونسار حتى لامارتين فى تأملاته وأندريه شنييه(*)

(*) نذكر مما قاله عن المرثية هذه الأبيات الدالة : لكى فتننى المرثية الرقيقة بحنائها الذى يلمس القلب – المرثية ذات النشيج المنقطع – ذات الضحكات المنزحة بالدموع – ذات الشعر الطويل المنثور – تلك الجميلة التى ترفع للسماء نظرات مبتلة •

فى أغنياته الرقيقة الحزينة قبل أن تختلط المراثية فى الأدب الفرنسى بأنواع وموضوعات أخرى ، وفى ألمانيا بدأت مع بداية القرن السابع عشر عند أوبيتز ثم كلوبشنوك وتأثرت بمدرسة القبور فى الشعر الانجليزى وبشعراء آخرين مثل يونج وأوسيان وجرى - صاحب المراثية المشهورة فى مقبرة ريفية - وظهر هذا التأثير على « جوته » فى روايته آلام فيتر التى تعد مراثية طويلة ثم على قصائده الكبيرة « مراثيات روما ومارينباد وتحولات النبات » ، كما ظهر على شيلر فى قصائده آلهة اليونان ، والحنين ، والحاج ، بجانب رسالته عن الشعر الساذج أو المطبوع ، والشعر العاطفى أو المصنوع وهى الرسالة التى ميز فيها الرثاء عن غيره من ألوان الشعر الأخرى بأنه تشوق الى المثل الأعلى ، أما الشاعر « هلدلين » فيمكن أن نصف شعره كله بأنه مراثية متعددة الألحان والأشكال يبكى فيها نفسه وعصره ، ويردد حنينه الى مثل مستحيلة وأيام ذهبية عاشها البشر المباركون فى ظل الآلهة المباركة التى تخلت عنهم ولم تعد تكثر بهم ، حتى جدد « رلكه » المراثية ونفث فيها أنفاسا وجودية بعثت فيها الحياة والقوة فى القرن العشرين وذلك فى قصائده العشر المعروفة بمراثيات دوينو . وفى الأدب الانجليزى تحددت المراثية كنوع مستقل تقترب فيه الشكوى والحب والموت من أوائل القرن السابع عشر عندما أطلق جون دون هذه التسمية « مراثية جنائزية » على قسم من أقسام قصيدته « تشرريح العالم » ، ووضع ملتون مراثيته الرعوية « ليسيداس » التى ساعدت على جعل المراثية نوعا مستقلا فى الأدب الانجليزى ، وان اختلطت حدوده مع كل شعر تأملى اكتسب بطابع الرثاء ، وأوضح مثل على ذلك وأشهره هو قصيدة توماس جرائ السابقة الذكر « مراثية فى مقبرة ريفية ، وخواطر الليل ليونج ، وعبت الرغبات البشرية لسمويل جونسون ، ومراثية موت سيدة نغسة لألكسندر بوب ، وفى ذكراء لنيسون ، وعندما تزدهر الزنايق فى فناء الدار لويتمان وأخيرا مراثية أودن التى كتبها فى ذكرى الشاعر الايرلندى الكبير « بيتس » ، ناهيك عن مراثية سيلي الشهيرة « أدونيس » لصديقه كيتس ، وقصيدته « ثريزيس » ، ولعلها جميعا كانت محاولات لمحاكاة رعويات كلاسيكية مزجت بين الحب والموت عند فيرجيل وثيريوس .

٢ - هو الشاعر القحطاني الجاهلي المشهور عبد يغوث بن وقاص ابن صلاة الحارثي ، من أهل بيت شعر معروف فى الجاهلية والاسلام . كان حارسا شديدا مذكورا ، وسيدا من سادات قومه ، قادهم فى معركة تسمى يوم الكلاب الثانى ، لمقاتلة بنى تميم ، فأسر فى القتال ، وأنشد فى رثاء نفسه قصيدة قتل بعد انشادها . جاء فى النقائض أن يوم الكلاب الثانى كان بعد البعثة المحمدية ، وإذا صح هذا فإن الشاعر يكون قد أدرك

الاسلام ، وتكون قصيدته التي نكتفى بمطلعها وبعض آيات منها قد
قيلت في مبعث النبي عليه الصلاة والسلام :

ألا لا تلوماني ، كفى اللوم ما بيا
فما لكما في اللوم خير ولا ليا
ألم تعلمنا أن الملامة نفعها
قليل ، وما لومي أخى من شماليا ؟
فيا راكبا اما عرضت فبلغن
نداماي من نجران ألا تلاقيا
جزى الله قومي بالكلاّب ملامة
صريحهم ، والآخريّن المواليا
أبا كرب ، والأيهمن كليهما
وقيسا ، بأعلى حضرموت اليمانيا
ولو شئت نجتني من الخيل نهدة
تري خلفها الحو الجياد تواليا
..... الخ

٣ - هو مالك بن الريب المازني النيمي ، من شعراء العربية ، توفي
سنة ٦٠ هـ ، وقصيدته التي تبدأ بهذا البيت :

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة
بجنب الغضا أزجي القلاص النواجيا

هي من القصائد النادرة التي يرثى فيها شاعر نفسه ، ويصور لحظة
صدق تأدرة وهو على البرزخ بين الحياة والموت ، لحظة تتحد فيها البداية
والنهاية ، يلتقي الماضي المجيد بالذاهب بلا عودة مع حاضر الألم والغربة
والوحدة في مواجهة الموت . ان قصيدة مالك بن الريب في رثائه لنفسه
تذكرنا بقصيدة عبد يغوث ، ويحتمل أن يكون مالك قد حاكي الشاعر
الجاهلي أو أن نكون قصيدة هذا الأخير قد تراءت له بصورها ووزنها
ومشاعرها بحيث فرضت نفسها عليه في لحظته البرزخية تلك . ومهما

يكن الأمر في رثائه لنفسه الذى بلغ الغاية فى قوة التصوير واتقان الشكل
وصدق العاطفة ووحدة الموقف الأخير أمام النهاية الوشيكة ، فلا شك فى
أنها من عيون الشعر العربى والانسانى فى كل عصوره ومواطنه .

نكتفى - بعد المطلع السابق - بذكر بعض أبياتها التى تعبر عن أهم
تقلاتها وحركاتها التصويرية والشعورية (ويستطيع القارئ أن يرجع
الى نصها الكامل وشرحها الفنى الوافى فى كتاب الشاعر الدكتور عبده
بدوى وزميليه « الأدب وروح العصر ، منشورات ذات السلاسل ، الكويت
١٩٨٥ ، من ص ٤٧ الى ص ٦٢ ، كما يمكن الرجوع للأغاني (٦٩/١٥ - ٧٠)
والنقائض ١٥٢/١٥٣ ، والعقد الفريد ٦٨/٦ ، والكامل لابن الأثير
٢٢٨/١ ، وأسماء المختالين ٢٤٦ ، وشرح شواهد المغنى ٢٣٢) :

فليت الغضا لم يقطع الركب عرضه
وليت الغضا ماشى الركاب لياليا
لقد كان فى أهل الغضا لودنا الغضا
مزار ولكن الغضا ليس دانيا
أجبت الهوى لما دعانى بزفرة
تقنعت منها أن الأم ردائيا
تقول ابنتى لما رأت طول رحلتى
سفارك هذا تاركى لا اباليا
ان الله يرجعنى من الغزو لا أرى
وان قل مالى طالبا ما ورائيا
تذكرت من يبكى على فلم أجده
سوى السيف والرمح الردينى باكيا
وأشقر محبوبا يجبر عنانه
الى الماء لم يترك له الموت ساقيا
صريع على أيدى الرجال بقفرة
يسوون لحدى حيث حم قضائيا
فيا صاحبنى رحلى دنا الموت فانزلا
برابية انى مقيم لياليا

أقيما على اليوم أو بعض ليلة
ولا تعجلاني قد تبين شانيا
وقوما اذا ما استل روجي فهيثا
لى السدر والأكفان عند فثا
وخطا بأطراف الأسنة مضجعي
وردا على عيني فضل ردائيا
ولا تنسيا عهدي خليلي بعد ما
تقطع أوصالي وتبلى عظاميا
يقولون لا تبعد وهم يدفنوني
وأين مكان البعد الا مكانيا
غداة غد يا لهف نفسي على غد
اذا ادرجوا عني وأصبحنا
فيا ليت شعري هل بكت أم مالك



General Organization of the Library and Documentation
كما كنت لوالديك

اذا مت فاعتادى القبور وسلمي
على الرمس أسقيت الحساب الغوايا
على جدث قد جرت الريح فوقه
ترابا كسحق المر نباني هابيا
رهينة أحجار وترب تضمنت
قرارتها منى العظام البوايا
فيا صاحبا اما عرضت فيلغا
بنى مازن والريب ألا تلاقيا
غريب بعيد الدار ثاو بقفرة
يد الدهر معروفا بألا تدانيا
أقلب طرفي حول رحلى فلا أرى
به من عيون المؤنسات مراعا

وبالرملة منا نسوة لو شهدننى
بكين وفدين الطبيب المداويا
فمنهن أمة وابنتاى وخالتى
وباكية أخرى تهيج البواكيا

٤ - فرانسوا فيون (من حوالى سنة ١٤٣١ - الى حوالى سنة ١٤٦٢)
شاعر فرنسى ، امتزجت حياته المشبوهة بشعره الغنائى الرائع ليجعلا
منه أسطورة ، ولد فى أسرة أمية فقيرة ، وتعهده بالرعاية والحنان قسيس
عطوف كان من أقاربه وسمى الشاعر الشاب على اسمه . تخرج فى
الواحدة والعشرين من عمره من جامعة باريس ، ثم ما لبث أن عاش حياة
الصعاليك والمتشردين والأفاكين فى حانات الحى اللاتينى ، قبض عليه عدة
مرات لاشتراكه فى جرائم القتل والسرقة ، واضطر للهروب من باريس
فلم يرجع إليها الا بعد صدور العفو العام سنة ١٤٦١ ، وسرعان ما ألقى
به فى السجن سنة ١٤٦٢ وحكم عليه بالإعدام شنقا . وخفف عليه الحكم
الى النفى لمدة عشر سنوات ، ولكنه اختفى بعد ذلك عن الأنظار وهو لم
يتجاوز الثلاثين من عمره ، وان كانت مؤلفاته الشعرية قد ظهرت مطبوعة
فى سنة ١٤٨٩ .

كان شعر فيون هو السجل الحى لضياعه وفقره ومغامراته فى الحب
والجريمة وحزنه وراثته لنفسه وشبابه مع سخريته ومرحه ورضاه عن
نفسه .

ومن أهم قصائده « الوصية الصغيرة » (١٤٥٦) و « الوصية
الكبيرة » (١٤٦٢) اللتان تعبران فى وقت واحد عن تأثره بتقاليد الأدب
الوسيط وعن أصالته وواقعيته وبراعته الفنية (فى التزامه بالبيت
ذى الثمانية مقاطع وبشكل البالد - الأغنية القصصية أو الموال - والرونو
الذى يكرر البيت الأول وسط القصيدة ونهايتها مع اتباع قافيتين
فحسب) وأهم ما يدل على أصالته هو عاطفته الجياشة بالصدق وقدرته
على تحليل ذاته وعمق مشاعره وأحزانه على شبابه المهده وآماله فى الخلاص
الأخير ، ويكفى أن نذكر القارئ بأغنيته القصصية أو « بالاد » المشنوقين
بصورها الواقعية المخيفة عن الأجساد المعلقة فى المشانق وقد أحرقتها
الشمس والتهمتها الطيور الجارحة وموسيقاها العذبة التى تردد لازمة
تتكرر وتحولها الى قداس جنازى تختلط فيه رهبة الموت بقسوة العالم
والبشر بمخاوف الشاعر من أن يلقي نفس المصير « لقد طحن العذاب

أعصابى ، وعلمنى أكثر مما علمنى أى شئ فى أرسطو ٠٠ « ألهم شعره عددا كبيرا من الشعراء مثل روسيتى وسوينبيرن وهينلى وبرشت فكتبوا عنه أو ترجموا له أو ضمنوا شعرهم بعض أشعاره ، كما كتب فيكتور هيجو وروبرت لويس ستيفنسون قصة حياته ، وظهرت عنه مسرحيات وأفلام سينمائية عديدة ٠٠

٥ - ديوجين : نسبة الى الفيلسوف اليونانى ديوجينيس الكلبى من سينوب فى آسيا الصغرى ٠ ولد حوالى سنة ٤١٢ ق ٠ م ومات فى كورنثه سنة ٣٥٣ ق ٠ م بالغ فى مفهوم القناعة السقراطية حتى وصل به الى الزهد فى كل مظاهر الحياة المتحضرة ، وجعل من الاستغناء والعودة للطبيعة وانكار الأعراف والقوانين واجبا يلتزم به الانسان الى حد الكلية والحياة التلقائية الصرف ٠ رويت عنه حكايات ونوادير مشهورة منها أنه كان يقيم فى برميل ولما زاره الاسكندر وطلب منه أن يعبر له عن حاجة يحققها له طلب منه أن يتعد لثلا يحجب عنه ضوء الشمس ! ومنها انه سار فى سوق أثينا فى وقت الظهر وهو يحمل فى يده مصباحا وينادى أين الانسان ؟ أين الانسان ؟ (راجع عنه قصة الكاتب السطور بعنوان « قصة كلب يبحث عن انسان » نشرت فى مجموعته ، الحصان الأخضر يموت على شوارع الأسفلت ، دار المعارف بالقاهرة سنة ١٩٨١) ٠

٦ - هما الشاعران عبد يغوث الحارثى ومالك بن الريب التميمى اللذان سبقت الاشارة اليهما ٠

٧ - عن بيت ورد فى أحد أناشيد الجوقة فى مسرحية « أنتيجونا » لسوفوكليس ٠

٨ - عن حكمة مشهورة للفيلسوف الرياضى المتصوف باسكال (١٦٢٣ - ١٦٦٢) ٠

٩ - كاليبان Caliban هو اسم وحش بشرى شائه الخلقة فى ملهاة شكسبير « العاصفة » ولعله أن يكون تجريفا لكلمة كانيبال cannibal التى تعنى أكل لحوم البشر وهو « شبل » الساحرة العجوز «سيكوراكس» التى نفيت من وطنها الأصيل فى الجزائر الى جزيرة بروسبيرو ٠ استبق شيكسبير بهذه الشخصية العجيبة تلك الحلقة المفقودة بين القرد والانسان التى طال الجدل حولها عقب اعلان نظرية داروين عن أصل الأنواع والانتخاب الطبعى ، ويعد كاليبان تجسيدا للشهوات الوحشية وانفعالات الحقد والكراهية ، وقد ورت عن الساحرة قوة عقلية جبارة لا تخضع الا لسيد الجزيرة الوحشة - وهو الدوق المنفى بروسبيرو - ولا تدفع الا لحكمته وتدينه وعبقريته ٠

- ١٠ - اشارة الى الحادثة المشهورة عن الراهب البوذي الذي أحرق نفسه أمام المعبد احتجاجا على حرب فيتنام ودعوة للسلام .
- ١١ - اشارة الى عبارة هاملت المشهورة فى مناجاته « أكون أو لا أكون تلك هى المسألة » .
- ١٢ - اشارة الى الپى الفن والنور والنظام (أبوللو) والنشوة والحقیقة المفجعة (ديونيزيوس) عند اليونان ، وهما قطبا كل حياة وإبداع عن نیتشه .

الدمعة الثالثة

الكابوس

الدمة الثالثة :

الكابوس

(ليست حياة الروح أن تشيح بوجهك عن الفساد

والموت ، بل أن تحديق فيهما) .

١ - هيجل فوق العرش :

قصر مهجور . يبدو كالنسر الهرم الجائم فوق السفح ، يحتضر وحيدا
من ألم الجرح . تحملنى قدماى اليه عبر صحار جرداء ، تحت سماء دهمتها
السحب السوداء . جحافل قطعان وجيوش ذئاب ، سفن غرقى يهرب منها
البحارة والفئران ويكي الربان ، خيل جامحة تسقط فى الميدان ، أقنعة
الأبطال المهزومين ، دروع تسقط فى الطين ، وملائكة تنفخ فى الأبواق ،
كلاب تنبح فى الآفاق ، ومواكب انس وشياطين ، ترقص تركع تسجد
للتنين . أدخل من باب القصر كائنى أدخل فى قبر ، يهتف صوت يأتى من
فوقى ، من تحتى أو ينبعث من الصدر : هذا قصر العقل المطلق . حدق
فى عين الموت وحدق . فحياتك أن تلقى الخطر المحقق ، تتحداه فتنجو من
قبضته أو تغرق . أدلف من البوابة الحديدية الصدئة ، يختلط وقع قدمى
الثقيل بأنات العظام التى أدوس عليها ، بالرطوبة وطعم الملح ورائحة العفن
وسواد الظلال المعلقة كالمعاطف السوداء ، فى الأركان - لا أكاد أدنو من
العتبة حتى تنفتح أمامى القاعة الرهيبة ، فى آخرها ، فوق الدرجات

(*) هذه رواية قصيرة كُتبت قبل ما يقرب من سبع سنوات . كنت أعيش وحيدا
فى كهف صنعاء الطيب الأمين ، وأكثر من قراءة البردوني والمقالج وعبد الصبور ، وعن
تأمل مصير وطنى ومصيرى ومراجعة النفس التى راحت تطل « على مشارف الحسين » .
وصحوت ذات ليلة من كابوس ظلت غرائبه المختلطة تلاحقنى فى اليقظة والنم . هيجل
يتربع فوق عرش الصيرورة - وكنت أيامها أقراه وأدرسه ! - وجهه فلاسفة وشعراء أخذوا
من عمرى ما أخذوا ، وجه الأم الطيبة الراقدة فى قبر ريفى بعيد ، أوراق متناثرة من
شجرة عمر وجبل مغيب الآمال . وكان أن دونت الكابوس على الورق فى تسعة أيام
لاهثة محترقة الأنفاس . (يوليو ١٩٧٩) ثم بلغت الحسين وتخطيتها فنسيته أو أنسيته ،
حتى رجعت اليه فاخترت منه هذه الصور والإيقاعات .

الحشبية الداكنة ، تتحجر عيناى على المشهد : عرش ضخمة ، يجلس عليه شيخ عجوز ، يخطف بصرى بريق يسطع فى العينين ويخترق السواد والظلال والأطراف المتراسة على جانبى القاعة كشواظ الجمر المتأجج وسط دخان وتراب . تشدنى القوة المجهولة للاقتراب منه ، يجذبني توقد العينين وبياض الوجه الذى يلمع كالعاج الناصع كلما اقتربت منه ، تصرفني العينان ويشغلني الوجه عن الالتفات ورائي أو حولي ، ويفاجئني الصوت الخارج من قلب العرش ، صوت فى لمعان العينين الواسعتين الباردتين : صل وصب اللعنة ! قدم كشف حسابك !

ربي ! أعرف هذا الوجه .. لم أراه رأى العين ، لكن أذكر أني شاعده ، أغرقت عيوني فى عينيه ، خفت بريقهما وبرودهما الثلجي ، وذهلت من الوجه الواثق من نفسه ، الرائع مثل وجوه الأرباب على قمم الأوليمب . رن الصوت الخارج منه كالقدر الساحق ، يهبط من برج شاهق ، من أدخلني هذا القصر ؟ من كان رفيقي ودليلي ، من هذا الملاك الجالس فوق العرش ؟ أهو شيطان أم القيصر ؟ والأشباح الواقفة على الصفيين . كالحلة عابسة الأوجه - تهمس ، تطرق بالرأس ، تكاد تشير الى ، أتمعن فيها عن قرب - حراس أم زوار ، أصحاب مظالم أم حجاب ؟ والشجرة . هذا الجذع الراسخ والأغصان الخضراء . أتظل هذا العرش ؟ من أين تيجي الحضرة فى هذا القفر ؟ ومشاعل فى كل مكان . توشك أن تطفئها أنفاس الليل الجاثم مثل جبال الأحزان . هل أصرخ ، أسقط فوق الأرض ، أناذى الملك الجالس فوق العرش وأسأل : ما هو دورى فى هذا الحفل أو القداس الملعون ؟ أجرى وأثور وأضرب رأسى فى الجدران وأبكي كالجنون يأتي الصوت المخنوق الشامخ كنفي القدر الصارخ . يحرف روحى كالقشة فى التيار الجارف : فتش عن جمجمتك بين الأشلاء ! فهناك مكانك بين الموتى الأحياء !

جماجم وأشلاء - حقا - حقا - أفتح عيني - أنظر كالمسوس - كومة أشلاء تحت العرش - وجماجم ثقت أعينها تتأملني بعيون الصمت - تدعوني وتعاتبني بلسان الموت - أصرخ فى غضب يشعله المقت : ما هذا ؟ عرش فوق الأشلاء ؟ مأدبة وحوش وبرابرة تلتهم لحوم الغرباء ؟

- بل رب اغريقى بلع الأبناء - غضب الرب الحى الفرد على نفسه ، فالتهم الفرد ليصبح ذاته ، وتجلى فى ثوب الروح المطلق ..

- صور سوداء مخيفة ، لاله يأكل نفسه ، كالميت نفخ الأكفان وغادر رمسه .

- كى يخرج فى ثوب أنقى ، يتألق بالنور الأعلى .

– لا أفهم يا مولاي .

– عجباً ! مع أنك عشت طويلاً مع أفكارى ، وسهرت ليال تبحت عن أسرارى – أسريعا ينسى الزائر دارى ؟ خذ يا ولدى مفتاح السر . حتم وقضاء أن تكتمل الدورة ، كى تسمو فوق الأطلال الخربة ، مملكة الله الحرة – يا ولدى تلك هى الرؤيا – رحت أسجلها فى نوبة غضب أسطورى – ليلة كنت وحيداً فى « بينا » . ثم عكفت عليها وصببت رؤاها المرة فى أطر التجربة .

أطرقت حزينا . – كشفت عن حيرة نفسى – حيرة وجهى ويدي الساهمتين – كعصفورين وحيدين أضاعا العش – قال الملك الجالس فوق العرش :

– هل تذكر يا ولدى العملاق « خرونوس » ؟ لما ابتلع بنيه فلم بفلت منه غير « زيوس » ؟

– ويعود زيوس فينأر منه ويجبره أن يتقياً أولاده ؟

– لكن الرب الذى أعنيه لا يثور على أولاده مثلما يثور على نفسه ، على خروجه الشقى عن ذاته ، على الطبيعة التى خلقها فازدهرت بالوانها وأشكالها . لقد انتشر وتبدد فى هذا « الآخر » ، ابتعد عن نقطة المركز ، أحس أنه أراق جوهره الخالص فى اللانهاية التى لا تعرف راحة ولا استقراراً . عندئذ يتولاه الغضب الجبار ويملكه السخط فيدمر ما سادته يده ، يبتلع الصور والألوان والأشكال ويمزق أعضائه بيديه . ويسحق العظم ويهرس اللحم حتى يسيل ، وفى السعير الذى يغلى ويفور تظهر نفسه ، تترك وراءها كل الشوائب ، ترتفع نقية متألثة فى النور الباهر ، فلقد عاد الرب لذاته . . عاد الرب لذاته . .

– صورة رب جبار مظلم . العدم يمزق نفسه ؟ أكون الهدم بناء ، ويصير الموت هو البعث ؟ أشار بيده أن أسكت . كف بيضاء كقطعة ثلج . تلقى طيفاً أسود . أشبه بالمروحة السوداء :

– هذا شيء لا مندوحة عنه ، نهر الجدل الجبار ، صراع الذاب مع الآخر – اغتر الشيطان الساقط بجماله ، فتحدى الله ، فثارت ثورته وابتلعه ! لكن الطبيعة المبتلعة ترتفع فى ثوب متالى ، فقد ماتت حياتها لنبت روحها ، وهى فى ثوبها النقى الجديد قد انتصرت على الشر وصمدت لوهج الألم وحريقه المشتعل فى أعماقها . أهمس فى خوف ، كلماتى تسقط فوق الأرض وترجف ، قطرات دماء تجرى من جرح ينزف . وتشير الكف البيضاء الحافقة كمروحة سوداء :

— أحسبك تقول كما قال الناس : الجورب حين يرقع خير منه حين يمزق ! أما الوعي فلبس كذلك — ما من وعى حق الا وهو ممزق ، بين الأضداد يعيش ويحترق ويومض كوميض البرق . تلك حياة المطلق . نهر صراع أبدي . جدل التاريخ المنقل بالمأساة ، معركة الظلمة والنور . الموت مع الميلاد — حياة وموت ، فعل ورد فعل ، جذب ودفع ، تحليل وتآلي . ملاك وفلاحون ، مستعمرون ومستعمرون نواة موجبة وكهارب سالبة . ركود « الين » ودفع « اليانج » تطور الروح التي تبعت الحياة في الطبيعة والانسان . تلك هي التجربة الأولى ، نبعت من نهر الجدل الجارف كالجيش الزاحف . على ضفافه نبئت كل التصورات والمفاهيم ، اتسعت صورها وامتدت غصونها في الظاهريات والتاريخ والدولة والدين والفن ...

— في المنطق أيضا .. كم عذبنى المنطق !

— ألم أقل في مقدمته : يمكن القول بأن مضمون الكتاب تصوير لله في جوهره الأبدي ، قبل خلق الطبيعة أو أى روح متناه ؟

— هذا هو ما قلت . في البدء كان الرب المطلق المباشر ، ثم غضب على ذاته التي ضاعت في الآخر ، فسحقت قوة السلب الرهيبة وجوده المباشر أو عدمه الخالص ، فعاد الى ذاته في وحدة أرقى وأغنى — وحدة تتمزق فوحدة جديدة !

— الآن فهمت . البذرة تتبعها النبتة فالثمرة . الطفل برئ وسعيد ، والشباب يتابع خطواته ، وأخيرا يأتي الشيخ على عكاز يتأوه . طاحونة هذا العالم لا تتوقف أو تنكص ، والخطوات ثلاث لا تختل ولا تنقص ، أنصت يا ولدي لرنين الخطوة فوق السطح وفي عمق القاع ، غابات العالم ترقص أو تحتضر على الايقاع ، تضربه كف الجدل فينفذ في الاسماع . هذا يا ولدي هو سر العالم ، سر حياتك ، موتك ، كل الأوجاع !

يسكت صوت العرش . يدير صاحبه رأسه الضخم ويرى على يده . تنوء العينان الزرقاوان في الفراغ ، القوة والجبروت تشع عليه وريح اليأس البارد يعصف منه . تنفذ في ثقوب الجماجم فتثن وتشكو كائنين الناي — أتلفت حولي ترتعش الشجرة ، توشك أن تدنو مني ، ترتعش النار من المتاعل وتتساقط ومضاتها كجبات الندى الملتهبة فوق الوجوه على الصنجر . هذى أقنعة أم أوجه أبطال منسيين ؟ أتقدم منهم ، تتأمل عيني قسيمات الوجه وتجديدات الجبهة وأخاديد الزمن وتقش القدر المسطور — اعرف بعض ملامحها ، أتذكر أنى عشت ليال أنأملها ، ألعتها ، أستوحجها .

أندب حظي معها ، أسترجمها أن تغفر عجزى وقصورى - أعرف وجه
أرسطو . أفلاطون وهيراقليط وجه الكندي والفارابى والحلاج ، وتفاجئنى
عينا ديكرات الواسعتان السوداوان . والوجه الضامر - رجه الفأر المذعور -
تلمع فيه العنان الزرقاوان . عينا كانط الطببتان التاقبتان . أذكر زينون
وأسأله أين سلحفاتك والسهم ، أين أخيل ليشهد بعد زوال الحلم ، أن
المجد خداع والشهرة وهم - هل يبقى غير الصمت الخالد يا أرباب الحكمة
والفهم : ها أنا أتأملكم ، أمثل بين يديكم مدحورا أبكم وأصم . هل أذنبتم
أنتم أم أذنبت وضيعنى الوهم - ولمن ندع الحكم ؟ ترتعش الشجرة ، توشك
أن تمسح رأسى بأناملها الخضراء - أتأملها ، تنحسر الحضرة . تتدلى منها
الأغصان الصفراء - أبدأ فى عد الأوراق فألج وجهها وضاء ، نتألى فيه
الطيبة أنجذب اليه ، تنفرج الشفتان وينسكب الصوت شعاع ضياء :
دع يا ولدى الأوراق - بعد قليل تنظر فيها وتقلبها بالكفين وبالأحداق ،
كم أشفقك عليك وأنت صغير عاق ، والآن تحركنى نفس اللففة والاشفاق -
تمتد بدائى إليها ، أدنو منها ، ينتفض بقبض الصدر ذبيح وجل خفاق -
أهتف : أنت ؟ أية ريح طيبة جاءت بك ؟ من أرشدنى لهذا القصر المهجور !
ينسكب الصوت بسهمى : من أرشدنى ؟ من يجعل طيف الأم يزور ، طفلا
سابت منه الرأس وما زال يدور . فى بحر الكون الواسع بشرع الحلم
المكسور . يتصارع مع موج البحر فيزيد ويغور ، ثم يثوب لحضن الشط
الدافى ، كالصفور المرقور . من أرشدنى للقصر المهجور ؟ من يجعل طيف
الأم يزورك كالمصباح المسحور ، يتبع خطوك فى جوف المد المسحور ، جوف
التنور . يرعى سهرك بين الكتب الموحشة كأفواه قبور - سر يا ولدى
وأترك هذى الأوراق الآن ، يحزننى أن تغلبك الأحزان ، بعد قليل سارك
فسر بأمان ، وستأخذ زادك منى وهو كما عودت كثير ، نور من عينى ومن
حبة قلبى نور .

نوارى الوجه كما تتوارى الموجة . لمست كتفى يد رعناء ، التفت
لأرى رجلا يقف بجانبى ، الى وراء قليلا ، يجذبني من ذراعى ويشير
بعينيه ويديه الى باب فى وسط القاعة فى الناحية اليسرى - لم يجذبني
الباب كما جذبتني رائحة زخمة تعبق من دفء اللحم . لمحت على ذراعه
الأيسر دسنيية فضية موشاة بالذهب والفضة والطيور وأوراق النبات .
عبت منها الرائحة العطرة فأفاقت كل خلاياي . انفتحت كالأفواه الجائعة
بلا استئذان . صحت بأعلى صوتي : ما أطيبك وما أذكاك ! كيف عرفت
بأنى جانع ؟ وضع السبابة فوق الشفتين وقال : حذار ! صاحب هذا
العرس وسدنته غرقى فى الأفكار - فاطرد هذا خاطر كى لا تنزعج الروح
وهيا اتبعنى للدار ، فالخطر قريب منك - صحت بغضب : ماذا تعنى ،

أى خطر أو أخطار ؟ جذب ذراعى . همس بأذنى : انظر ! قلت : لاشئ
 هنالك ، أنت تخرف . عاد الى الهمس : هناك ! هناك ! أنظر عينيه الحارقتين
 كجمر النار ؟ يزحف نحوك أنت - حذار ! صحت به : من هذا ؟ لا لاشئ
 . . لست ألاحظ غير ظلال أو أرواح ، نسمات تعبث بالأوراق ولا ترتاح ،
 ومشاعل ساكنة الضوء كأعماق جراح - ماذا تقصد ؟ - ألجمه الصمت
 أو الذعر . تراجع خطوتين للوراء ، بعد قليل رأيته يزحف نحوى فى
 ببطء . تسبقه جمرتان محمرتان . أمسكت بستره النادل السوداء ، لا بد
 أننى أفسدت أناقته التى لا تناسب رهبة المكان . تشبثت بطرفها وصحت :
 عقرب ! عقرب يتقدم نحوى . وعلى يسلط عينيه ويشرع طرف السن
 المسموم . هيا نمضى ! فالروح المطلق لن ينقذك ولن ينقذنى منه . لن
 يحمينى من لدغته كل الحكماء .

قال النادل وهو يصحبنى الى الباب : لكنك ستعود اليه - بعد
 تمام الدورة ستعود اليه - سألت : أعود اليه ؟ من أين ؟ أين أنا الآن ؟
 قال فى غموض : حتم أن تكتمل الدورة - أو لم تسمع كلمات الجالس
 فوق العرش ؟ قلت وأنا أحث خطواتى وأتلفت مذعورا نحو العقرب الذى
 تسلسل شبحه الأجرد بين الجماجم وغاب بينها : حقا هذا هو ما قال .
 حتم أن تكتمل الدورة - لكن بعد الشبع من المأدبة الكبرى - وأشرت الى
 الحمامة أو اليمامة المحمرة التى يلعب عيلها الدهن ، ابتسم النادل فى
 لطف ، لم يخرج من شفثيه حرف . .

٢ - صبي فى يده ناي :

وجدت نفسى فى ردهة كبيرة غارقة فى ضوء النجف البللورى
 - مثل الردهات الناصعة فى فنادق المدن الكبرى - على اليسار صندوق
 خشبى عال ، ومن وراء الزجاج يقف فى الاستقبال عاملات جميلات وهوظفون
 فى حلل سوداء . ينحنون ، لا أدري ان كانوا يرجون بى أم يرثون لى .
 فالبسمات أحاجى لن تفهم أبدا ، وذئاب الغابة فيما يروى تبتسم قليلا
 لضحاياها . ابتسم للنادل وأسأل عن دورة المياه . يرد هو أيضا
 بالابتسام . فأعترى بابتسامة أكبر . أقول لنفسي لعن الله الرعب . هذا
 من أثر العقرب . يأتى صوته : هل يمكن أن تنتظر قليلا - تتسع
 البسمة فى شفثيه عن المألوف : أما أنا فستجدنى عندما تحتاج الى -
 ستجدنى دون انتظار . أشم الرائحة بعرق ، تصبح بسمته ضحكة ،
 يجرى كالطائر تترنج فوق يديه حمامة جوعى . يختفى عن عيني اختفاء
 السراب عن عين الظمان . تخترق السكين مئائتى . فأزم شفثى . يشير

عامل مهذب بابتسامته أكثر من يده الى مكان الحمام . أهبط درجات ،
أصعد درجات أخرى ، تخطف بصرى الجدران الناعمة بلون الفيروز .
تستقبلني حسناء بيضاء سميكة . فى خديها غمازة . هى أيضا تبتسم
وتضحك . تعطينى القوطة والمنديل وتلمس يدها - خطأ - موضع عضو
حساس . ترمقنى لحظات تزفر فى وجهى عطر النار من الأنفاس . أبتسم
بدورى وأقول بحب : هذا من فضل العقب ! تضحك ، تخبطنى أسفل
ظهرى وتموء : ما خابت نظراتى أبدا ، والعقب فى داخله عقب ! ألس
يدها البضة : معذرة يا حسناء . أتمنى أن أشبعك وأروى ظمأك . لكن
أخشى يفلت منى النادل ويطير حمامى الزاغل . قد أبقى فى فندقكم أياما
أخرى . فانتظرى يوم لقاء عاجل . تتأوه . . . تنظر فى مرآة : فندقنا ؟
يوم لقاء ؟ ليتك تعرف نفسك ، تعرف من نحن وماذا نقصد . لكنك
تجهل كل الأشياء - تجهل من أيامك أو أعمالك حتى الأسماء - قحة وغرور
من شفتين وأسنان كالبللور . أغلق خلفى الباب . أفتحه بعد قليل .
ما زال الصوت یرن بأذنى والأصداء : ليتك تعرف نفسك ، تعرف من
نحن . . . أين الحسناء ؟ حتى أنت تمصين دماي ؟ أصعد الدرجات منتعشا ،
ما أجمل صنع الماء ! يلقانى رجل فخم ضخم كالكابوس . يغلق عينيه
وسترته ويقول بادب جم : يا سيد ، أين بطاقتك الصفراء . أتحمس
جيبى ، أعجب لعبوس الوجه ، أحاول أن أبتسم قليلا ، الملح عينا
ترمقنى ، عينا أخرى ، كل الأعين سوداء وكل الأوجه غبراء . أصرخ
كالمجنون : ضاعت منى حافظة نقودى ، سرقت ، نسلتها الحسناء !

- حسناء ! أية حسناء ؟

- أغرتنى ، سخرت منى حين رفضت الاغراء .

- أية حسناء ؟ نحن نراجع كل الاسماء . أين هويتك . . . تكلم . . .
لم أتكلم . رشقتنى الأعين كأفواه البنادق . التصقت بصدرى
كذاب الموت الأسود . تحسست جيبى ثم هتفت :

- سرقت حافظة نقودى - هى واحدة منكم . أنتم قطاع طريق . . .

أنتم . . .

- من فضلك لا ضوضاء . فندقنا لا يدخله الا السادة والأمراء . -

أين هويتك . . .

تزدحم وجوه حولى ، ضاعت منها البسمات . يلتف رجال ونساء .
يخترق الصف صبى فى يده ناى . ينفخ فيه فينبعث الصوت الساحر .
أين رأيت الوجه الضامر ؟ يتقدم نحو الرجل الضخم ، يمد اليه الحافظة

وتعرف يده الأخرى فوق الناي . أهتف : أرايتم ؟ حافظة نقودي .
 خذها ، افحصيها أنت بنفسك - يتناولها الرجل ، يتمتم معتذرا ،
 يخرج منها الأوراق . أنظر في وجه العازف ، يطفو الجزع عليها والاشفاق .
 يفتح الرجل البطاقة . ينظر فيها ثم يصيح : هل صدقتم ؟ تتزاحم حولي
 الأوجه . تمتد العين وتمتد الأنف . تهتف أصوات : أعجب موقف .
 لا اسم ولا عنوان . لا صورة . لا توقيع ولا اختام . أحتج وأبكي ،
 وأدق بقدمي الأرض : هذا سخف سخف ! اني .. يتدخل الصبى
 الساحر . يسحب البطاقة بلطف : أنا أعرفه ، قد كلفني به . ويميل
 على رأس الرجل ويمس . يتراجع للخلف وينصرف الناس . يتقدم
 مني الرجل ويحنى قامته ويهتف : لم لم تذكر هذا من قبل . هذا الفندق
 تحت الأمر : ماذا تطلب . ماذا يرضيك ؟ تفضل !

يسحبني الصبى من ذراعي بعد أن ينفخ في الناي نغمة بارعة
 ويضع يده تحت أبطي ويقول : سامحهم ، من لا يعرف يجهل . أنا منذ
 الآن رفيقك ، ودليلك ، خادملك وأكثر . ويخلص ذراعه ويمد كفيه .
 ترتعش أصابعه على الناي . أسأله ماهذا اللحى ؟ يبتسم ببراعة ويقول :
 الصعود الى الهاوية !

نتجول من رواق الى رواق ، نصعد درجات ونهبط درجات ، نترك
 ردهة لامعة لندخل ردهة ناصعة . الجدران يفيض منها الضوء كسطوح
 زجاج شفاف ، ووجوه الخدم تبتسم وتطرق الى الأرض كأنها تعتذر أو تخفي
 سرا . ندلف الى قاعة كبيرة نذكرني رائحتها الحادة بعنابر المستشفيات :
 نظيفة ، بيضاء ، ناعمة الأسرة والجدران ، ولكنها مخدرة كجسد أبيض
 ممدود على مائدة الجراح . أنظر فأرى سريرين في القاعة ، اسدلت بينهما
 ستارة سوداء - يعزف الصبى لحنا عابثا كصغير عصفور نزق ويشير الى
 السرير الأول ويقول : هذه أول سلمة ، أذهب الى هناك . انها تنتظرك .
 أهبط بعدها سلمة أخرى وستجد الأخرى تنتظرك ، أسأله : من تعني ؟
 يرمقني بطرف عينه : أنت الأدرى - راجع صفحات كتابك . يرن بأذني
 صوت نبهني في قاعة العرش : قدم كشف حسابك ! أطرق في صمت ،
 أسأله : ماذا تفعل أنت ؟ يبتسم ويعبث بالناي : ما أفعله دوما ، أسمعك
 اللحى ؟ أكرر السؤال وأنا أضع ذراعي على كتفه : أي لحن ؟ يرفع حاجبه
 ويقول : كيف نسيت ؟ لحن سقوطك في الآبار ! يشير الى فأتقدم . يرتفع
 العزف ورائي . يرتفع أمامي يشبه خطوة طفل عارى القدمين . يتحول
 أثناء النوم ويبحث عن أبويه ..

ممددة على الفراش كحورية خرجت من الماء - الشعر الكستنائي
 منسدل حول رأسها بغير نظام . والوجه الناصع البياض ، المشوب ببقع

حمراء خفيفة ، يشبه وجه ملاك . وجه صغير شاحب كاللؤلؤ النائم فوق السحاب . تشع منه براءة طفل عليل . مسحوب الى أسفل شبه مثلث حاد ، تشعر من نظرتك الاولى اليه أنك مدعو لحماية يتيم . والعينان ضيقتان . خاليتان من التعبير ، والجفنان بلا رموش . تنظران في بلاهة لا تعرف ان كانت مكررا أو سذاجة أو غباء . توشك أن تهتف حين تنظر في بحيرتهما الآسنة : هل خلق الله ملائكة عميان ؟ ما ضر لو اتسعت هاتان العينان ، لو ينعكس بمرآتهما ظل خيال أو وجدان ؟ لكنك تغفر وتسامح ، فالقم مفتوح ذابل ، والفجر يطل من الأسنان فيغسل كل سؤال .

ممددة على السرير اللامع ، تجرى يدها الباردة على أزرار الفستان . لاحظت تبدلها وبرود أناملها وشحوب الكف . قلت لنفسك ان اليد والعين مرايا النفس . والنفس المتبدلة تناسبها عين باردة أو كف متجمدة الحس (كل الأرواح تنال الأجسام التي تستحقها ، درس من علم الفراسة) . لكنك كفتت الخاطر في أكفان النسيان . فاليتم الأسر فجر فيك ينابيع حنان .

– أنت ؟ قالتها وأشاحت بوجهها الذابل المستطيل .

– أتذكرين ؟ وقفت بعيدا أنظر في استحياء ، نفس الخجل ونفس الطيبة والتسليم .

– أنا الآن أم أولاد . . لم جئت ؟

– جئت من صومعة الزاهد والمنحوس – جئت كما يأتي الطيف أو الكابوس . جئت – كما قلت – بوجه السكر وقلب الصوفي الشاعر ، ويقول العابر في عرض الشارع ضعة وخنوع . يذهب في بيت الصمت فيهتف من هب ودب : « فصام » . يكتب عن قدر العالم والانسان فيسرع أرباب الحكمة : مجنون خائب . يبني سجننا هو فيه سجين والسجان يحنو كالأم فلا يقبل منه حنان ، ذلك أليق بالزهاد أو الكهان . لا تك قديسا وسط كلاب وذئاب . من لا يأكل يؤكل ، والسماك الصالح تبليه الحيتان ؟

– أف ! عدت لنفس الموال ، أ أنت كتاب مفتوح ؟

– عفوا . . كم حدثتك عن كتبى ، عن أحلام الغد – كم قلت وكررت عليك : هي عندي لقمة عيش أو صنعة ، وهي كذلك متعة ، أما الحب . .

– الحب ؟ شبت في الجسد البارد شعلة نار . عض الشفتين مسعرا ، هب الاعصار على النهدين وثار ، أصاب العينين دوار .

— أجل .. الحب .

— لم تعرفه أبدا .. تذكّرين يوم سألتك عنه ؟

— أذكر .. ذنبي أنى أكنم سرى .. أسرف فى الكتمان .. كان الشفق الشاحب يكسو الأشجار . أدركت أنك أسدلت على المأساة ستارا بعد ستار ..

— حدثت بوجهك ، بالشعر الأبيض فى الرأس . أطرقت وخاطبت النفس . أنا بنت اليوم وأنت الذاهل وابن الأمس . يطر من عينيك الحزن ويكسو وجهك لون اليأس . أى دواء يشفى داء الميت فى الرمس ؟

— قلت الحق . لكنك ما قلت الصدق . أحبيت سوى وما كذب على القلب . حدث فى عينيك فشاهد غبرى يستخر من بلوى . مرت تلك الأيام تداعى برج الأحلام ..

— حقا أحبيت سواك .

— ولماذا منلت الدور ؟

— كان عنيدا مغرورا . فأخذت بنأرى منه .

— أغرقتك بحنان الأب . فلماذا أنكرت الحب ؟

— حقا كنت كآب .. هل تذكر ما أفضيت اليك ، عند لقائى الأول بك .

— أذكر . أذكر . لا أنسى لكن أغفر .

— كنت كآب . وبهذا حدثنى القلب . لكنى أفتقد بجانبك الحب . أفتقد شباب القلب . حزنك قد سد على الدرب .

— حزنى ، ما أنا حجر أو صخر . حزنى قدر العمر . وهو الميراث المر . فى بلدى يولد كل الأطفال شيوخا ، يقتل حتى الزهر . حزنى ؟ من مسئول عنه ؟ وطنى . أرضى ، بذرة أبوى وأجدادى ، أم هذا العصر ؟ سأم الأيام المرة والشرطى الحارس ولى الأمر ؟ الشاعر يا (.....) يحمل ميزان العالم بين يديه ، ان ثقلت كفته بالأحزان فما ذنب الشعر ؟ أسرع وأطمئنك فلست بشاعر ، لكنى أحيا الشعر .. أتجسس جرح العالم وأفتش عن وجه الفجر . وأعود كأنى الحصاد العائد بحصاد مر . ولماذا أصمت كالقبر . أكنم سرى ، يوم أموت سيدفن معى السر .

أذكر يوم ذهينا للبيستان ، نأكل ونثرثر ، نستعرض أشكال الحيوان . كنت سعيدا كالطفل الأرعن . كالفنان . مشينا على الممشى ، تفرح عيني بالخضرة وتمرح في عرس الورد وأفراح الطير . أكلمك عن أمانا الأرض . عن ثوب الطبيعة الحى ، عن الأبدى الفعال الذى ينسج النول الأزلى ، نحن أيضا طبيعة ، نولد ونأكل ونتناسل ونشيخ ونموت كما تموت الأفراد ، لكن يبدو أن الفرد يموت ليحيا النوع . ماذا يمنعنا أن نصبح طبيعة خالصة ؟ هل فكرت فى هذه المسألة ؟ انه العقل ، الفكر . نحن حيوانات . ولكننا حيوانات بائسة مفكرة . نصفنا طين ونصفنا سماء ، نصنع أنفسنا بارادتنا ، بارادتنا نبني التاريخ ، كل الموجودات بلا تاريخ ، الا الانسان . لا يذكر أحد أن النملة والقرد أو الخنزير يسجل تاريخ النملة والقرد أو الخنزير . نعبر بالعقل حدود الكون ، نحاول أن ننفذ خلف السطح ونكتشف لب الأشياء . بل تقفز خلف مجرتنا ، نكتشف عوالم أخرى . لا تنس اللغة كذلك . عند الحيوانات اشارات وعلامات . والبعض تطور باشارات ، لكن الرمز الحافل بالمعنى لم يعرفه سوى الانسان . واللغة أيضا . لكن لماذا لا تتكلمين ؟ هل أكلم نفسى . أمد يدي لأمسك يدك . يرقص فى قلبى حلم العمر ورحلة درب مجهول . تسحبين يدك ، هل خطر ببالك معنى أن تنزع كف من كف ؟ أكنم ، أعذر . وأغفر . وأبرر . وأنبهك لألوان الورد وأشكال الشجر وصور العرس الربانى - أ تكون الجنة أجمل من هذا ؟ لم لا ندخلها ، نسبح فى النهر ونغرق فيه القلب ؟ يمكننا أن نفعل هذا . أقسم لك . فالخلد قريب منا ، والأبدية تدعونا بلسان جميع الأشياء : ذوقوا طعم الجنة قبل الموت ! كذب القائل أن العالم حلم زائل ، أو أن الدنيا جسر عبور . خالدة كل الأشياء تشع خلودا . حتى النبتة فى الحقل ، حتى الشوكة فى الصحراء ، حتى النظرة فى العين . لكننا ضيعنا الدهشة . وغرقنا فى العادات الهشة ، تجرفنا فوق بحار العالم كالقشة - وتقاتلنا وتخاصمنا وخلقنا فى الأرض جحيما - أ تكون جهنم أسوأ من هذا العالم ؟ أتكلم وأثرثر وجمال الصمت عليك ترين . ماذا فى صدرك تخفين ؟ ندخل مطعم الجزيرة . نأكل ونتطلع للبطن الوديع ، أعود أحدثك عن سلام الروح ، ترمقنا الأعين وتباركنا عين عجوز طيب ، جرب ما جربه حتى تعب القلب . ويشير إلينا طفل يتأملنا عن بعد . هل يرقب منذ اللحظة سر تفتح قلب الورد ؟ تسأليننى هل أنت متصوف ؟ **أضحك وأقول** : لم أبلغ هذا الشرف العالى بعد . تنقصنى الخبرة والفن .

— لكن لا ينقصك الحزن ؟

— وجد الصوفية جهد ، رؤيا يكسبها الله لقلب العبد ، فتطيب

النفس وتسكّر من خبر الوعد ، ويفيض عليها النور وتترك سجن الجسد الصلد - هذا شيء لم أعرفه بعد .

- ماذا يمنع من بذل الجهد ؟

- يمنعني حبي لك ..

أضحك وأحاول أن ألمس يدك وخديك فتبتعدين ، وتعودين الى الصمت . أشعر لحظتها أن كيائك يتلفث ناحية أخرى .

- تسألين لمجرد السؤال : ومن هو المتصوف ؟

أربت ظهرك بيدى وأهتف : أنسييت دروس الأمس ؟ وتجيئين بسخط : هل أذكر شيئاً دخل الأذن وما دخل القلب ولا الرأس ؟

- معك الحق . من علمك الفلسفة بعيد عنها بعد الأرض عن الشمس . لن يدخل من باب الحكمة من لا يحمل معه الدهشة والشوق .

تفرقين في سكوتك من جديد . أتذكر أنني لم أجب على سؤالك . أغالط احساسى . أضحك وأقول : المتصوف من لا يملك شيئاً أو بالأحرى من لا يملكه شيء . تهللين كطفل نزق مكار . وتصيحين بملء الصوت : هذا أنت ! يفرقنى الصمت ، يدثر رأسى ليل الحزن . ما أغرب هذا ؟ هل يمكن أن ينسدل الليل نهاراً في عز الشمس ؟ أدرك أنك أبعد مما فكرت . يقطع صمتى رجل عال كالنخلة . فوق الرأس عمامة كبيرة . تعلوها ريشة طاووس أو ديك . أضحك في نفسى : ديك الجن ؟ ما أغرب حال العشاق . يكتب بالابر على الآفاق . أرد عليه سلامه ، يجلس دون استئذان .

- هل أنت هندى ؟

- أكل عيش يا بيه .

- أنا لست بيه من فضلك . أنا مثلك أكل عيش .

- تحت الأمر . أكشف طالعك وطالع هذا القمر ..

- أسأل : كم من فضلك ؟

- العين بصيرة ، واليد قصيرة . ما تدفعه يا بيه .

- أصيح بغضب : قلت لك لست بيه ولا باشا . أنا مثلك انسان وفقر مثلك - والشرط على رأيك نور .

- نور والله ونور .

ويمد يديه فيأخذ كفك • يبتسم ويشرق وجهه • ينظر نحوى •
يصطنع الخبت • يهتف باستغراب مغشوش :

— بنتان وولد • أيام هناء والاسم سيبدأ بالهاء • أموال ، سفريات ،
أعمال تسند لك • فحياتك عمل لا يهدأ • والغد طالعه سعد •

تطرق رأسى تبتل العين • يبتسم الشك على شفتى : والغد رائع •
أبحث عن عينيك الخاويتين لأقرأ وجه الأمل الضائع • يمضى الرجل يقول
• • أسمع عجلات قطار • • صوت شهيق وزفير يمتد • • يطول • • أنظر
فى عينيك وفى عينيك ذبول • • غيم وسحاب وأفول • • ينصرف الرجل
ونمضى بعد قليل • وأحاول أن ألمس يدك فتفلت منى كالعصفور • قطع
الشك يقين • أتساءل : أنا سجان أم مسجون ؟ وأحاول أن أضحك • •
أسكب شلال الكلمات • نعبر بالحيوانات • أضحك وأشير لقرد : لست
بخير منك • فأنا أحياء فى قفص مثلك • وأشير اليك • أقرأ آيات الكره
على خدك وجبينك ويديك • أتكلم عن نظرية داروين • هذا القرد الأعلى
— أترين ؟ انظرى لوجهه وعينه وتشرىح جسده • هو أيضا يلعب ويضحك
ويبدو أحيانا بذكاء الطفل • انظرى اليه والى • ثم انظرى فى مرآتك •
الفرق بسيط • بضع ملايين سنين • والمخ صغير الحجم • لكن من يدري ؟
قد يرقى هذا القرد ويصبح انسانا أعلى • • أسمعت عن الانسان الأعلى ؟

— نصل الى محطة السيارات • جسدك بجواري ، ويدى يمكن أن
تصل يديك • لكن البحور تفصلنى عنك • أتأمل وجهك ، خدك ، عينيك •
ما يتمنى الانسان محال • والقبلة حلم أو قمة جبل عال • يأتى الرقم
المطلوب • نتفق على وعد لقاء •

يوم وقفت لأنتظرك فى « التحرير » • يمضى الناس حوالى وتفحص
وجهى عين غنى وفقير ، وتمر اللحظات مرور الخيل فتسهل وتثور ، لم
خنت الوعد وكذبت ؟ الحب غريب فى بلد يخنقه حراس الموت ، سقطت
كل الأقنعة ولم يبق سوى الصمت — الباقى صمت — الباقى صمت •

— الباقى صمت — هذا أصدق ما قلت •

— يفاجئنى الصوت • حلوا رقيقا كالحم • أهتف كلقيط وجد
أباه : هذا أنت ؟

يبتسم الصبى ويرفع نايه السحري الى فمه • ينبغ صغارة عصفور
عاشق • وجد العش الدافئ والماء الرائق • تلمع أزهار السترة كالذهب
النادر • يبتسم الوجه الفتان الضامر • ويشير بيده ، فى كل بنان ناي
ساحر :

- هل تدري من تنتظر هناك ؟

- من ؟

- انظر خلفك من غير غضب !

٣ - الطرق على باب جهنم :

يا لك حقا من ساحر . تسحر تذكاراتي كالبودى الناسك يسحر حياته . ألمح شبحا يتقدم نحونا . قصيرة ، رقيقة الوجه ، على عينيها نظارة سمكية ، تسبقها ابتسامة تبرز أسنان الفك الأعلى النابتة الى الامام ، جسمها الضئيل كجسم صبي لم ينم ، لا يتميز فيه صدر ولا خصر ولا ردف . والقدمان قصيرتان ، أقصر مما يسمح به جسم قصير . فى قدميها جورب أبيض كجورب التلاميذ ، ويدها الدقيقتان المتدليتان من ذراعين نحيلتين كأيدى عرائس الأطفال ، لا تتحركان الا عندما يصدر لهما الأمر من الدماغ ، الدماغ الضخم الذى يكسوه شعر أشقر قصير هو كل شيء فى هذا الشبح الأشقر . فيمن تراه مقبلا تحس أنه السيد الوحيد ، الفارس الذى يركب مهرا ضئيلا لم يجد سواه . يأمر السيد بحكمه فى كل شيء . ما من عضو الا رهن مشيئته : يتحرك بحساب ، يضحك بحساب ، يبكي يصرخ بحساب . سأل بكل الأعضاء ، تسلل لخلايا الدم أحال الجسم المحسوس الى فكر . والطهر يشع عليها ، منها ، حول الوجه ، كالهالة حول وجوه الشهداء أو القديسين . والطيبة تتجسد فيها ، وحنان الأم . لكن هل يسمو الطين العاجز لمقام القديسين ؟

أهمس للصبي الساحر : المومياء . أنظر وراءك فى غضب !

- يزيح الناي عن فمه . يتشبث بذراعى كى يخفى دمعة . يفتح فمه فيغلبه الدمع : يوشك أن يهتف : ما أبأس حظ القديسين ، أنتم يا أبناء الفنانين ! تربت كفى خده . أطبع فوق الجبهة قبلة . أهمس : هى أمى الصغرى . يستنكر هذا بتعجب ، كأمير هبط من الكوكب :

- عجباً ! هل لك أمان ؟

- كم ترعائى وتعوضنى عن فقد الأم .

يتوارى الصبي وهو يصفر لحنا لا أعرف معناه . هل يمكن أن يعزف لحن الفرح المحزن أو لحن الحزن المفرح ؟

تتقدم يدها خطوتها المسرعة وتطفر كالصفور . تنطق اسمى محذوفا منه حرف العين .

– لم تكن تنتظرني • اعترف !

– أعتذر ، أتمتم لا أدري كيف أجيب • لو قلت الصدق أجبت بأنى
لا أنتظر • وأنا لا أكذب •

– تميل على بعطف لم أعهد ولا أستحقه • تطبع قبلة على خدى :
تعلم أنى معك وان غبت • أبدا لا أنساك •

أضحك وأقول : طبعاً • أنت الأم الصغرى •

فتجلجل ضحكتها الصافية كما لو كانت تنشج باكية ، لكنى لم
أجبل بك • هذا شيء كنت سأندم طول العمر عليه !

أطرق ، أغمض عيني : ذنب لا حيلة لى فيه • لكن ما العمل الآن ؟
تمد ذراعيها وتكاد تحضننى • أتخفظ كالعادة • يغمرنى احساس الذنب
مع العرفان • تهتف وهى تشد ذراعى : يسأل مثلك من لا عمل لديه •
نعمل ما كنا نعمل • حتى تترك حزنك هل يتركك ، أليس هناك دواء ؟

أسأل نفس سؤالك : لكن ماذا نفعل ؟!

– نذهب للغابة • للجبل الأخضر • للزحقة على الشلج الأبيض •
نجلس فى الكوخ قليلا نحسو القهوة والشاي • تغسل ثوب همومك
بالأمطار • تفتح للنور ذراعيك وصدرك على اله النور يضمد جرحك • تقرأ
فاوست ، أو تسمعن شعرك أو قصصك • لن أفهم شيئا ، لكنى أتذوق
لفتك • تعطينى درسا فيها ؟

فى ليلة سفرى جاءت تزورنى • يدها كالعادة محملة بالهدايا •
شيء ضخم ، بل أشياء ، ملفوفة بالورق الملون البهيج والشريط الذهبى •
ما أبدع ما تختار • حتى أهي لا تصنع هذا : مختارات من شاعرها الأكبر •
موسيقى للمتمرد الأصم الذى تعلم ضعفى نحوه – أغاني الحب الفرنسية
التي تؤكد رومانسية لا شفاء منها • مجموعات الحكمة الشرقية والصينية :
من طائفة الزن وتشوانج تسو • شطائر محشوة بالجبن الذى أحبه •
وفطائر تفاح تعرف حبي له • ربطة عنق وقميص ، أزرار للأكام ، دهان
للحذاء المهمل ، صور محفورة على الخشب للمدن التي زرتها معا والمدينة
التي عشنا فيها : للسوق وبوابة مارتن ، للنافورة فى الميدان ، للجامعة
وتمثال هوميروس وأرسطو فوق السلم ، للكاتدرائية والبرج العالى والديك
الذهبي عليه ••

– كل ما يبتدىء ينتهى •

– أنشغل بحزم الحقائق وترتيب الكتب • الحجره مهملة على غير

العادة . كم رتبته بنفسها ونظفت الدولاب والمرآة ووضعت الفوطة في مكانها .

– لكن لكل نهاية بداية جديدة .

– تغضب وتشيح بيدها : بالله سألتك لا تتفلسف .

– أصبح خطئي – : ولكني لا اتفلسف . على الأقل الآن . أرجو أن نتلاقى .

– تضع يدها على خدها . تنفحص عيناها عيني . هل يصدق مرة ؟
أؤكد أمل في المستقبل : ستزوريني حتما .

– يتهلل وجهها وجبينها الذي بدأت تغزوه التجاعيد : حقا ! وأرى الأهرام وأبا الهول ؟ .

أغتنب الضحكة : وأبا الهول الحى !

– تعيد يدها الى خدها . أتحاشى نظرة عينيها .

– ليتك تعرف معنى ما قلته .

تسكت . تنفج سفتها ثم تنغلقان . أقرأ اليأس على وجهها .
أحاول أن أفلت من الدائرة . أقدم لها صندوق السجائر فترفض .
وصندوق الحلوى فترده شاكرا . ترى ارتباكى فتنهض وتقلب الكتب .
تخرج يدها الصغيرة كتابا صغيرا تبحث فى صفحاته ثم تقرأ :

(ساكن لا عمق له ، واحد لا يتغير ، نافذ فى كل شيء ، وهو لا يتعب أبدا ، ربما يوصف « أم الكون » أو جذر الوجود . بيد أنى صرت لا أعرف اسمه . خفى ، لكن فى كل مكان ، فعال ، لكن لا يعمل شيئا . طيب القلب أنا مع كل طيب ، وأنا أيضا مع الأشرار طيب . موجود ، لكن لا يعرف فى أى مكان ، يفعل ، لكن لا يعلن عن فعله ، ينتصر ولكن لا يحتفل بنصره . ، لين ، لكنه قوى ، ووديع ومسالم . هو كالماء بسيط ونقى – قديس من غير قداسة ، وقوى من غير سلاح ، يملك لكن لا يملك ، يتمنى ألا يتمنى – ليتنى أعرف اسمه) .

طوت الكتاب ووضعه على حجرها . راحت تنفوس فى وجهي .

قلت : انه « الطاو » .

قالت ضاحكة : ما أغباك ! بل هو أنت !

حاولت أن أعتذر : شرف لا أصل اليه • أتمنى لو أعرف نفسي •
قالت مؤكدة : حقا • ليتك تعرف نفسك ••

تشاغلنت مرة أخرى بترتيب أشياءي وكتبى واسطواناتى - رحلت
أردد كلاما لا معنى له وأتممت بأغنية لا داع لها : هل تسنى لأحد أن يعرف
نفسه ؟ حتى سقراط يشككنا فى هذا - ما أكثر هداياك - اننى لا أجد
لها مكانا - لو لم تهدنى هذه الكتب والاسطوانات و •• و ••• و •••
لما وجدت مشكلة فى حزم الحقائق • كانت تكفينى حقبة واحدة • أثرثر
وأحاول أن أضحك وأتغابى وأتخبط كطاحونة • كنت قد سرقت نظرة الى
عينها • غارقة فى الدموع • أرجع للثرثرة التى تبحث كل لحظة عن وقود
جديد • لكنى أثبتت عجزى • أكتشف براعتى المفضوحة فى الهروب منه •
المحبا تجفف عينها وتنهض على قدميها وتقول بعدم اكتراث أحمى من
السكين : يا •• يا ••• هل نتمشى قليلا ؟

أجيب كمن خرج من ورطة : نعم • فى الحال •

نغادر الحجرة الى فناء البيت - تتوقف عيناى على كل شىء : المدخل
الداكن النظيف ، الدرجات اللامعة باستمرار ، صندوق البريد الذى جرب
لهفة الانتظار لخطاب لا يأتى أبدا أنظر فى الفناء الصغير ، شجرة لا أعرف
فصيلتها تظل مرتفعين صغيرين عليها نقش أسود جميل الكتابة المطرزة
على نسيج ، تحته يرقد « تاسو » كلب العجوز التى أسكن عندها • لم
سمته باسم الشاعر الايطالى البائس ؟ أنظر لواجهة البيت ، نعب الممشى
الظليل الى باب السور المنخفض الذى يؤدى للشارع • أتوقف أمام نافذة
حجرتى • هل يمكن أن أرجع مرة أخرى ؟ الأيام التى عشتها والليالى التى
سهرتها والكلمات والضحكات والأحلام والهموم والحظات اللقاء المختلسة
واللذات البائسة والقراءات والأفكار •• لماذا يموت شىء فىنا كل لحظة ؟
لم يفتح الماضى فمه العجوز ويبتلع كل شىء ؟ كيف نوقف نهر الموت البطيء
لحظة واحدة ؟ النهر يجرفنا ، قاربنا ينحرف معه ، والهاوية مستعدة على
الدوام • كم مرة عبرت هذا الشارع الصغير كم مرة فوجئت بالقمر يطالعنى
خلف الأشجار والبيوت المنحدرة السقوف وأبراج الكنائس كأنه وجه طفل
كبير يغرق فى بحيرة ذهبية ؟ كم أيقظنى من أحلامى وأنا متأبط حقبة كتبى
مهموم بالأفكار التى أصارعها وتصارعنى ، ذاهل عن نفسى والأرض التى
أسير عليها • كان الطفل السماوى يتربص فى كل مرة ، وعينه الواسعة
المتلهبة ، تنسل الى قلبى فجأة لتسألنى : من أنت ؟ - وكم هربت من
السؤال ، كومت الكتب والأفكار على رأسى ، استندت لعكازة أمل واه ،
خلقت المبررات والمبررات ••

يَقْظَنِي صَوْتُهَا : لحظات الوداع كالثمار الناضجة المتساقطة من الشجر . من يدري متى ترجع لهذه المدينة ، لهذا الشارع ، للقنوت الرقيقة الجارية عبي جانبته ، لأشجار السيدر والزيزفون التي عبرت بها كثيرا . .

– عبرت بها وبكل شيء . أليس الإنسان عابرا على الدوام ؟
 وضعت يدها في يدي وقالت : هذا ما تقوله . ولكنني أشك فيه .
 سألت : كيف ؟ ألا ترين كل شيء يصبح ماضيا ؟

ضحكت وصنعت بيدها قوسا دار حول الأفق والبيوت والأشجار :
 المهم أن يحيى الإنسان كل ما حوله . عندئذ يحضر في كل خلاياه ويملكه للأبد .

– الأبد ؟ أليست كلمة طويلة جدا ؟!
 – رجعت لاكتئابك . لأمل فيك . أنا مثلا . . .
 – أنت ؟ ماذا تقصدين ؟
 – هل أصبح تاريخا عندك ؟
 – تاريخ لا ينسى أبدا . .
 – أبدا ؟ رأييت ؟ كلام في كلام في كلام .

– انني أعني ما أقوله . لا يمكن أن أنسى وجودك بجانبى ، هداياك ،
 قراءاتي معك ، عذابك في اصلاح كتاباتي ، رحلاتنا مع الأصدقاء في الجبل
 والغابة . دعوات الشاي مع الأغراب في حجرتك ، ألم أقل لك ؟
 – ماذا ؟

– انك أمي الصغرى .

سكنت . قلبت طرفها في السماء المكفهرة بالسحب الثقيلة . مدت
 يدها الى شعرها وشدته . تحسست صدرها الضيق ورقبتها النحيلة :
 ألا تكف عن كلماتك الغبية ؟

ربت على ظهرها . أحسست بعظامه الصلبة الناتئة .
 – معذرة . كنت أعني ما أقول . لم يحبنى أحد منكم . .
 – وتقولها الآن ، في ليلة سفرك ؟ – يا صاحبي – نحن نأتي دائما
 متأخرين . هل تذكر قائل هذا ؟

ولكننى أحبيبتك حقاً - كنت الأم والأخت والمرضة والقديسة .

قالت فى سخرية أهون منها اليأس : قديسة ؟

قلت بحماس : هذا ما أؤمن به . لست من هذا العالم . أنعرفين ماذا يخطر لى كلما رأيتك ؟ ماذا أتمناه !

قالت : ماذا ؟

قلت : أقبل طرف ردائك كالمؤمن يلثم طرف رداء ولى أو قديس .

صاحت فى غضب : قديس - قديسة - متى تفتح عينيك ؟ ليس بأوروبا قديسات - الا فى الصوامع أو الأديرة . العذرية التى تهتجون بها نلاشت من الوجود . أنا أيضاً لى أخطائى وخطاياى . .

قلت فى هدوء كأننى أعتقد : لا أصدق . ولو رأيتك مع عشرين رجلاً .

ردت فى تسامح : الخطأ بشرى . أليس كذلك ؟ كل هذا من فكرتك عن المرأة - ألم تقل لى هذا من قبل ؟

- معك الحق . فكرتنا الموروثة من روح البدو تحلم دائماً بالمرأة . لا بانسانة واحدة محددة ، شخصية لا تتكرر فى عمر البشرية .

ضحكت وقالت : ويستحسن أن ينقلها البدوى المثلث الراقد فيها ويضعها فى الحريم . . خصلات شعرها الأسود منسدلة على كتفها . لحمها أبيض كالعاج . أردافها ضخمة كالناقة . ضعيفة وشاحبة ومسئلمة . وحين ينام معها يحقق نصره المفقود مع العدو . فالعدو يرقد أمامه فى خضوع وذل ، مهزوما حتى كل خلية فيه التفتت بحب استطلاع -اولت أن تخفيه : ولهذا تركتها ؟

- تقصدين (.) ؟

قالت بأسى : عندما عرفتك بها تمنيت أن تجد فيها ما تبحث عنه . مسرعا الطويل ، عيناها الخضراوان ، حيويتها ونضارتها ويتمها أيضاً ، ألم تكن مجنوناً بها ؟

قلت وأنا أشيح بيدي : وإهانتها لى ؟!

استنكرت : لا يمكن أن تفعل هذا . (.) طيبة وتحبك . .

أردت أن أغلق باباً تاتى منه الريح : لا داعى . انتهى كل شئ أتد أمأنت بلدى . .

حاولت أن تعتذر عنها : ربما كانت فلتة لسان • لا يمكن أن تقصد هذا • أنت دائما حساس أكثر مما يجب • تخلق أوهاما وتصدقها •

أشرت بيدي لأسفل مستار الختام : لم تكن تكف عن الاتهام : أنتم • • أنتم • • كأننا من طينة الأقزام وهي من طينة العمالقة • انى أشكو بلدى حقا • أحزن لتخلفه البشع ، أحاول أن أقرع أجراس الخطر ليصحو ، أجلده بسباط النقد ، لكنى أعبد ، أدفع عنه الحقد • • • انها لم تحبني أبدا •

– كنت أشعر أنها سعيدة بجوارك •

– سعادة السيد الذى يسحب كلبا من نوع نادر • •

– أف من لسانك القاسى – أظن مازوخيا للأبد ؟ طالما أكدت لى أنها تحبك •

– لنترك هذا • قلت لك « ابروس » يكرهنى • استخسر سهامه فى • هل نجلس فى مكان قريب ؟

– أتحب أن نتعشى ؟ مطعمك المفضل قريب •

– لا • لا • لقد تأخرنا • لا نفس لى • •

هتفت كأنها رأت معجزة : أتعرف الى أين ؟ الى حبيبتك القديمة •

صحت ضاحكا : لا مخلص الا الموت ! فلنذهب اليها • • ! • •

٤ – عروس ماتت فى حضن كتاب :

لم تكن أول مرة نزورها • انها ترقد هناك ، آمنة وادعة فى سلام المقبرة القديمة • أعرف الطريق اليها • أوشك أن أعرف عدد الخطوات الى قبرها ، على اليمين بعد البوابة العتيقة المجللة بالورود والتيجان ، فى الممشى الضيق المفضل بالعشب ، خامس شاهد على اليمين • كم صعبونى اليها • كم حدثونى عنها • أستاذ اللغات السامية الطيب ، ذى الحاجبين المرتفعين كمنقار النسر ، صاحبتى الأولى التى جرتنى اليها وصممت أن تكون أول قبلة تسمح بها الى جوارها وبالقرب منها ، الدليل السياحى الذى أرشدنا لآثار المدينة وانهال من فمه شلال الذكريات والمعلومات الموثقة عنها • وهى دائما هناك • ممددة على القبر بردائها الشفاف الذى لبسه لآخر مرة • وثنيات الرداء منسكية فى منحنيات رقيقة مع جسدها النحيل كجسد ملاك • ذراعاها متدليان على صدرها فى استسلام القديسات • وبداهها تمسكان بكتاب مفتوح سألت عنه فقالوا: هو الكتاب

المقدس . تشع من وجهها وعينيها الطيبتين الحالمتين هالة الورع والجمال والرضا ، كأنها « أوفيليا » الطافية على صفحة غدير صاف . يخيل للعين في كل لحظة أنها تخلص نفسها من الرخام الرمادى الداكن وتطير فوقه . كيف استطاع الفنان الذى نحت تماثيلها أن يقهر الحجر ، أن يحوله الى نهر حزين شفاف . أن يثبت الحلم فى طينته ويطلقها فى نفس الوقت من قبضته ؟

كنت أستعيد الذكريات ونحن فى الطريق اليها . ظلت عيني ترصد كل ما تراه ، الشجرة التى رأيت السنجاب يتسلقها فى خفة وجنون ويتلفت نحوى مندعورا ، البيت الملون الواجهة بالأخضر والأبيض الذى دخلته مرة بدعوة من فلكى ومنجم أراد أن أترجم له لوحة كبيرة بأبراج السعد التى تنتظر الملك السنوسى وينوى اهداءها اليه فى عيد ميلاده ، مكتب الصحة الذى طعمتني فيه ممرضة حنون ضد شلل الأطفال . الطريق الضيق الصاعد نحو الغابة الذى سرت فيه لأول مرة مع زميلة ذاهلة العينين طيبة الوجه ظلت طول الوقت تبدى اعجابها بلوكريثيوس وطبيعة الأشياء .

يقطع ذكرياتى صوت ينبهنى الى بداية المقبرة : هاه ! هل امتلأت الكاس ؟

قول ضاحكا وأنا أنفض رأسى : ودائما تفرغ !

تسبقنى للدخول وتقول وهى تضحك : غدا تمتلئ بخمر جديدة . من يدرى ماذا ينتظرك هناك ؟

نمشى على الدرب المؤدى الى الكنيسة الاثرية الصغيرة . تبين لى أسماء الأشجار التى نمر عليها كأنها زرعها بنفسها . باقات الورد على القبور ندية لا تزال . تحس دهشتى وتقول : كان أمس هو الأحد .

أسألها : هل هناك من لا يزال يذكرهم ؟ ألهم أبناء هنا فى المدينة ؟ تقول : انها مغلقة منذ ثمانين سنة . ولكنها أصبحت متحفا . هذا هو طبع الناس هنا . شئ مهين ومزعج كما ترى . معظم الأسر انقرضت ، بعضها ما يزال له أحفاد . ولكن أهل المدينة يعتبرونهم كأهلهم ، يزورونهم كل أحد ويضعون هذه الزهور ...

... والعشاق أيضا ..

ضحكت فى خجل : ولا يطيب لهم العناق الا هنا . خصوصا قرب حبيبتك !

اضحك أنا أيضا : اذا تعالى نجرب حظنا !

نحن يا صاحبي أتينا متأخرين • دائما متأخرين •

نزور الكنيسة التي زرتها أكثر من مرة • نقف عند رسوم الحائط ونشرح ماسبق أن شرحت بالتفصيل • تحيط عينها بالنقوش وشموع المذبح والجدران النشعة بالرطوبة والسقف المزين بصور الملائكة والقديسين كأنها تعانق أشياء في عسكتها الخاص • تتمم شفتها بالأدعية وتصنع علامة الصليب ونخرج • نمضي الى العذراء صاحبة الكتاب • نقف أمامها خاشعة كأنها نراها لأول مرة • أتلمس معها الشاهد والنقش وأمر باصابعي على حنيات الرداء والوجه المستطيل الحزين والعينين المغمضتين في الحلم الطويل • تتراجع للوراء وتجلس على مقعد نمسح التراب بمنديلها عنه • تتأمل وجهي وأنا أتجه نحوها وأجلس بجانبها • تعرف أنني سأغرق في السؤال عن حقائق التاريخ أو سأتمادى في التفلسف عن الحياة والموت والاستشهاد بالعبارة المحفوظة • تتأمل النائمة قليلا ثم تقول : ما رأيك أن تتزوجها ؟

اضحك وأقول : هو الحل الوحيد !

تستطرد : لا تسخر • انى جادة •

أهتف : والقرن الذى بينى وبينها ؟

— لا يهم • مثلك لا تصلح له غيرها ، ألا تبحث دائما عن المحال ؟

— وأعيش فيه أيضا • ولكن ماذا يقول أهلها ؟

— طمئن • كلهم ماتوا • نعقد الزواج الآن ؟

— والشهود ؟ ملائكة وشهداء وقديسون ويسوع نفسه ؟

— لا تكن سخيفا يكفيك شاهد واحد •

— تقصدين شاهدة ؟

— نعم نعم • وسأتكفل بمصاريف العرس •

— المهم أن ترضى الجميلة • ألا ترفضنى هي أيضا ؟

— لا تهرب • دائما تنهزم قبل بداية المعركة • سترضى حتما •

— ثقتك في محلها ، ما دامت لا تسمع ولا تنطق ! هيا نسأله •

— لن نسأله • سنعقد فوراً •

أقف وأشدها من يدها • نلقى النظرات الأخيرة على العروس الصامتة • تتطفل يدى على وجهها الحالم الحزين وذقنها المدببة الحادة وكتابها

المفتوح على صدرها وقاعدة الشاهد الجرانيتي . تأتي وتمسك يدي .
تمد أحداها الى اليد التي تلمس الكتاب . تتمم شفتها وتخرج منها
مقاطع لاتينية أحاول أن أتابع معناها . وتغمض عينيها وتستغرف في
الصلاة . أتعجلها بعد أن لاحظت الشمس قد غربت منذ وقت طويل .

— أخشى أن يفلوا البوابة !

— في ليلة عرسك وتخاف ؟ يا للغباء الأذلى !

أضحك . يمنعها الحشوع من الضحك . بعد قليل تسير بجانبني
صامتة . نخرج من البوابة ونسير في الطريق الى مسكني . القمر هلال
متعب نحيل يطلع على استحياء . السكون يغمر المدينة ، وأوراق الشجر
الصفراء تخشخش تحت أقدامنا . نفترش الظلال الشاحبة . جدران
البيوت وأعمدة المصابيح وقوائم الاعلانات . أفكر في بلدي . في مدينة
الضوضاء التي سأعيش فيها . في القرية البائسة التي تنتظرنني . في
الهاوية التي تفتح فيها وتهدد بابتلاعي ، في دوامة التخلف التي ستجرفني
كحبة الرمل الى هاوية الانقراض المحتوم . وتفرق في الصمت . فيم تفكر
هي أيضا ؟ أسترجع الذكريات ، كلها أصبحت ذكريات ، تتداخل الأماكن
والأزمنة والأحداث والأشخاص وتتصادم كقطع هارب أمام العاصفة .
نصل الى مدخل البيت الذي أسكنه . تقف وتمسك بيدي : تأخرت .
لابد أن أعود .

— لا أدري كيف أشكرك . السكون يغطي كل ما حولنا . عيون
المصابيح تسدل علينا رموشها الفضية . لا نأمة ولا حركة في الشارع
الهادي . أفاجأ بصدرها على صدرى . تضم ذراعيها حولي وتشدني الى
وجهها . فمها على فمي . لأول مرة يتدفق الدفء وحرارة اللحم في دمي .
نرتجف شفتها المبللتان بالدموع . يرتجف الصدر والظهر . أتحصن
في قوقعتي الحجرية .

— آه يا (.....) لو تدري كم أحببك ...

في المدينة الكبيرة كنت أمر عليهن كل يوم . أخرج من محطة
القطار الأرضي . (المترو) وأطلق عليهن من برج عيني حمامات التعجب
والرغبة والشهوة . كن يقفن دائما هناك ، يسندن ظهورهن الى بيت عادي
لا يلفت النظر ، على الرصيف المواجه لبستان عادي أيضا . في النائية
الأخرى من الميدان مقهى صغير يجلس الناس على طواره في الصيف .
حسبتهن في البداية لا عبات سيرك ، فسراويلهن قصيرة تكشف عن معظم
الساق ، في أقدامهن أحذية عالية الكعب ، على وجوههن أحدث ما انتدع

صناع أقنعة الاغراء . لكننى لم أكن أرى خيمة ولا أسمع طيلا ولا بوقا ،
لا صيحة قرد ولا زئير أسد ولا صراخ سباع البحر . وأعبر الميدان الى
اليمين لأمشى على الطوار (المؤدى الى مكتبة كنت أتزود منها بزاد العين
والقلب . بالكتب الجديدة والوجه الحى الباسم أبدا فيها) وكنت أخطف
البصر اليهن لأسرع بالوقوف فى شبكة خجلى وارتيابكى ودقات صدرى
المتلاحقة . ذات مساء أمر بالميدان فى طريقى الى مسكنى البعيد ، ويفاجئنى
الصنرت الناعم كسطح الورد والوجه الأبيض كوجه طفلة صبغوا شفيتها
وخديها بالأحمر : ألا تحب أن نبقى معا بعض الوقت ؟ (أتطلع فى وجهها ،
أتخيل وجهى يصفر ويعكس ألوان الطيف) لنضع أجسادنا تتحدث
لبعضها . هذه هى اللغة الوحيدة الصادقة .

– نعم . ولكننى . والوقت متأخر .
– يبدو أنك مثقف ، عيبكم أنكم تقرأون كثيرا . تعال لنقرأ أسرار
الجلسد . أنا لا أحسن الكلام . أنت غريب فيما يظهر .
– نعم – .. أخشى ..
– الى متى تمشى ؟ شعرك أبيض . الحب دواء الخوف – هيا – بضع
سلالم ..
– لكن . . . – لكن – لكن ! أعنى الشرطة ، والجيران ، و ..
كم ..
– لا تحمل هما . شرقي أنت ؟ لن نمكث طول الليل . لن نخطفك
لدينا . الشرطة تحرسنا وتؤمننا .

مشيت بجانبها صامتا . عند المدخل رمقتنى حبشية فارعة القامة
منفوشة الشعر كالمروحة المجدولة من حبات سوداء ، ضحكت أخرى بيضاء
سمينة ، فخذاهما المتورمتان يثوران على السروال الضيق المخطط . تفتح
لنا امرأة لطيفة الوجه مدورة العينين السوداوين ، قصيرة الشعر ، فى
أدب سرف تدعونا للدخول . أنظر فى الردهة اللامعة والأبواب المغلقة .
وأشم روح السكون والترف والكتمان . أقف وأتردد – يارب الشهوة
والحب ورب الملك ، لم توقعنى فى هذا الشرك المهلك ؟ ! تمد الفتاة يدها
فتمسك يدى . هيا ! هل تستكثرون لحظة حب ؟ تبسم السيدة التى فتحت
لنا الباب وتودعنا فى صمت – أحس يدها الناعمة ، أخجل من نفسى .
جف عصير الشجرة ، لم تبق سوى الأوراق الصفراء ، يا زهر ربيع العمر
ألا يصدملك شتائى ؟ ندخل حجرة ساطعة الضوء ، جدرانها الخضراء تورق
فى النفس الراحة والأمن . الفراش مرتب ، والسرير عريض ، والى اليسار
دولاب بمرآة . تسبقنى الى الفراش وتسحب على نفسها الغطاء – لحيترى

وخوفى من النظر فى المرأة لم ألاحظ أنها كانت قد تعرت تماما . تخجل
منى ؟ الحمام أمام الباب . هيا فاتت خمس دقائق . والباقي عشرون .
أذهب للحمام وأخلع ملابسى . هناك أيضا مرآة . لو تكسر كل مرآة
العالم ! أرجع فى « روب » فضفاض . أغلق خلفى الباب . منظر ك
بديع - أأثير الضحك الى هذا الحد ؟ معذرة - هذا البطن ، آثار السن
- بل أنت عجوز طفل - أول مرة ؟ أدخل تحت الغطاء . أضع الرأس
على الكف - مالك ؟ تتفكر فى مشكلة الكون ؟ - أتأمل وجهك . أقرأ
قصتك وطبعك - ليس لدينا وقت . ليس لدينا وقت . ادفع مايرضيك ،
عندى وقت - فلنتكلم . تغضب وتضرب الفراش . عندى عمل آخر -
أى زبون أنت ؟ انهض ، أخرج من محفظتى أوراقا أعطيها إياها - أهمس :
فليعرف كل منا الآخر - لكن عندى موعد . تنظر فى ساعتها . فاتت
عشر دقائق . عندى موعد . أنسل الى جانبها ، أتحنس كفيها . وأميل
على الصدر . أمسح خديها . تهتف : هيا . هيا - تفتح كالوردة
للشمس - أتلمى فى عينيها وأمد الشفتين . تضحك ساخرة : يالك من
رومانسى . أعرف هذا النوع . لكن ليس لدى الوقت - عندى موعد -
تنظر فى ساعتها . أغبى أنت ؟! احترق الوعد - أتحنس يدها ، خديها ،
الثم جبهتها والشعر - هيا هيا - لا أبدأ حتى تعطينى قبلة - تدير خدها
ناحيتى - خذ ! لا لا . وأمد الفم . يتأهب صدرى للقاء الصدر . ويدى
لتطويق الجبهة والشعر . تقترب الشفتان من الشفتين - تصرخ كالمجنونة :
لا لا لا . ما هذا ؟! هل أخطأت ؟ حتى لو تدفع لى مليون . هل يصلح
هذا من غير القبلة ؟ تنمر تنفرسنى عين التاجر يطرد شحاذا من بابه :
القبلة لحبيبي وحده . لا يأخذها مخلوق غيره . حتى لو كنت أمير الهند
وملك الصين ! - افترضى أنى محبوبك ؟ يكفى ثرثرة . ضيعت الوقت .
تنظر فى ساعتها - تنفخ تتأفف تلوى شفتيها بأشمئزاز . انطقاً الجمر ،
العطر تبخر . . . سكن القارب والمجداف انكسر على الصخر . معذرة ،
لكننى لأستغنى عن قبلة ، فى بلدى . . . فى بلدك - قامت غاضبة ،
بدأت تلبس سترتها والسروال . وأنا أرمقها بعيون الطفل المذنب - عد
ليلاذك ان شئت - ألقى فى وجهى الأوراق - هذا عمل لا عش للعشاق -
أرجوك احتفظى ببدونك ، وكذلك بالماركات ، يمكننى أن أعطيك سواها

— تطوى ذراعيها على صدرها • تطيل النظر الى — هذا كرم منك • لم تيق •
 سوى خمس دقائق — ذنبك أنت — أدخل في سروالي وقميصي • • أعرف
 ياسيدة البيت طريقى • عندك موعد • تفضل أنت • • يارب السهم الناقذ
 والقوس ، هبنى أن أجد القبلة : كأسا تفرغ في كأس • عين تفرق في
 عين ، قلب يدق في قلب • نهر يجري مع نهر ليصبا في البحر • ابن تاب
 عن الذنب وعاد الى الأب ، وشعاع بعد الثربة يرجع للشمس • •



٥ - البحر البحر البحر :

— من ؟ أنت ؟
 — أنسيت ؟
 — حسبتك خنت • • وطننت بأنك مثل الناس تخليت • •
 — أنا مسئول عنك ؟ تركتك للأحلام ولد • • • •
 — أسكت • أسمعني عزفك فوق الناي • فلعل اللحن يريج
 البال • هذا أفضل • ليست كل الأشياء تباع وتشترى بالمال • أو ان
 شئت فلذ بالصمت •
 — معك الحق • لكن ليس لدينا وقت • • حتى للصمت • •
 — وقت للغد والأمس ولا وقت لدينا لليوم • • هيا • هيا •
 — أهروني أن أصبحبك • •
 — ولماذا الأمر ؟ تسعدني الصحة • •
 — هيا • • هيا • • أزف الوقت • •
 — الوقت • • الوقت • • والأبدية ضيعناها خوف ضياع الوقت • •
 والى أين ؟

— البحر ! البحر ! البحر !
 هتفت كما هتف جنود الاغريق القدماء • البحر ! البحر ! • بعد
 الظمأ القاتل في الصحراء ، يتعري الظامى ، ويذوق الماء • •
 — ليس الأمر كما تتصور • أخشى الندم عليك وخيبة أملك • •
 — تخيب أملى — تخرجنى من هذا الكهف المظلم ، من ليل أنخبط
 فيه الى ليل معتم ، وتقول بأنك ستخيب أملى ؟ هيا للبحر • •

يطرق رأسه ، يغمض عينيه ، يتدلى الناي على صدره . كيتيم
 حاروا في أهـه . نترك ممشى ، ندخل ردهة ، وتمر علينا الحدم ، الزوار ،
 العمال ، وكهان المطبخ لاتأبه . أحس الجوع ، بدأت أحشائي تتأوه .
 يا صاحب هذا الفندق ، أين النادل وحمايته الموعودة ؟ أيجوع الضيف
 ليديكم ومآدبكم ممدودة ؟ تلفح وجهي الريح وملح البحر يرطب جلدي .
 بعد قليل يبدو الشاطئ تسطح حبات الزبد على البعد ، والموج الهادر
 يصخب في أذني ويحتد ، لاتبخل ياموج البحر ولاتنس الوعد ، أحرقني
 نلظماً الكافر في صحراء المجد ، فاغسل بالدمع الصافي من عينيك ذنوب
 الأوس وهم الغد . وأعد اللحد أو المهد . تلمس قدمي رمل الشاطئ ،
 أنظر فوقى : قمر هادى ، بدر كالزورق تلمع فيه لآلى .

- لم لاتتكلم ؟ نايك – لايترنم !
- انى مرغم . أمروا بالصمت وكتمان السر المبهـم .
- البحر أمامك والجنة بين يديك . ماذا تكتم ؟
- أنظر حولك . . لن أتكلم .

أتلقت حولى . انشقى أنفاس البحر كسمكة يعيدها الصيادون للماء
 بعد أن جفت على اليابسة . الى اليمين صخرة سوداء ، داكنة الحجر نائنة
 اقتجاعيد . أمن النظر فأرى نسرا يعلوها : كتلة عابسة لاتتميز عنها .
 بين الحين والحين يرف جناحيه ويهبطان . عيناه جمرتان ، أيسلظهما على ؟
 الى اليسار ، بعيدا عنا بقليل ، أراها ترقد ساكنة ، آمنة فى ضوء
 القمر . تحرك شديقها وتمضغ بسلام . أشد رفيقى من كمه . أهـس
 له : بقره ؟ ماذا جاء بها ؟ لا عشب على الشط ولا مرعى . ماذا تجتر ؟
 يغرق الصبى فى صمته . تخرج الضحكة كالفضة : تجتر الذكرى !

- هيا نتجه اليها . هذا ما قالوه . أعطونى أيضا مرآة .
- مرآة ؟ لاتنس الباروكة أيضا .
- لاتنهـل . لسنا فى عرس . .
- هل نحن بمآتم ؟

يعود لصمته . يتقدم نحو البقرة بهـوء – مازالت تحرك فكـيها
 وتجتر فى سلام . لا يبدو عليها أنها تنتبـه لوجودنا أو للبحر الممتد وراء
 غـيـرها . لن يخطر ببالها أن ترفع رأسها لترى القمر الحالم فوقها . غارقة
 نى نفسها ، غائبة عن العالم كله . عن الأرض التى ترقد عليها ، عن
 اللواقفين أمامها ، ربما كانت غائبة حتى عن لذة العشب الذى تجتره . فى
 عينيها السوداوين الواسعتين بحيرة رضا واستسلام . أهـتف فى غضب :

– هل جئنا البحر لنشهد بقرة ! البحر يحب العرى ألا نتعري ٠٠؟

– أسكت . حذرتك ألا تهزل . هاهم يأتون ٠٠

– لا أدري أين أطلوا . كيف تلاقوا ، هل ينشق البحر أم الأرض .
ويخرج منها المردة . عملاق أسود ، عملاقان ، ثلاثة ، خمسة – غريبان
سود في هيئة بشر . يتقدمون نحونا . كلما ظهرت ملامح وجوههم ذعر
القلب كفار يرتجف أمام القط . نسخ واحدة من صنم واحد : يتحرك في.
بطء ، شعر أسود . جلد أسود ، سترة صدر سوداء وسروال أسود ،
ربطة عنق سوداء ثبت فيها فص أسود ، في أيديهم شيء يبدو كحقائب
سوداء . يقتربون ، تسبقهم تكشيرة وجه قاس أسود . ارتعد وأبحث
فيهم عن أجنحة سوداء ، ذيول سود ، قرون أو منقار أسود – يتحرك
جبل الليل الأسود . يفتح فمه ، يخرج منه الرعد الأسود .

– المرأة ٠٠

ترتعش يد الصبي وهو يمدحها اليهم بالمرأة ٠٠ امرأة صغيرة ، منقوشة
الأطراف بزخارف خشبية عليها ورد وأوراق شجرة مذهبة – تنطلق
الغضبة منهم كزئير الأسد الجائع .

–أحمق ٠٠ وحرام فيك الماكل والمشر ٠٠

يتأوه الصبي ويحنى رأسه : مولاي . سادة قدرى . أخطأت فماذا
أفعل ٠٠

يتلفتون لبعضهم ويضحكون . رعد وصواعق ومنون : ماذا يفعل ؟
ماذا يفعل ؟

ويصرخون بغم واحدة :

– يا حشرة ٠٠ اسحب من أذنيه وقرب وجهه ، من وجه البقرة ٠٠

يتقدم منى . ينظر في عيني ٠٠ لم يجبره شيء أن يسحبني من
أذني ٠٠ فأنا أخطو نحو البقرة . وأقرب منها عيني ووجهي . يضع
المرأة أمام البقرة – لا يطرف في عينيها رمش . تمضغ بسلام .
– أنظر وجهك !

لا أتكلم . أردت أن أقول : الأمر مطاع يا سادة . ارتجف ولا أعرف
ذنبي .

– منذ سنين ولم تر وجهك . تنظر في المرأة وتحلق ذقنك وتسوى
شعرك ، لكن لا تبصر وجهك . حان الوقت فيها ٠٠ نبت قلبك .

أغمض عيني وأفتحتهما • الصبي بجانبى يسלט المرأة على وجه البقرة
ثم يسלטها على وجهى • أتطلع فيها • كيف أصدق ؟ هل هذا وجهى ؟
أتلقت نحو البقرة - نفس السحنة • نفس الجبهة والشفتين ، نفس العينين
الصفائيتين • أتجسس فكى • يتحرك • يعض يرفع ويهبط ، تتأملنى
عينا البقرة • تأمل عيني فى المرأة • نفس النظرة • نفس الحسرة ، نفس
الحيرة فى قاع بحيرة • أفيق على صوت الرعد : أعرفت الآن ؟

يشيرون للصبي فيميل جانبا • يمدون اليه يدا واحدة فيستجيب
بحركة سريعة • يخرج من صدره سكيناً لامعة • يحس وحشتى والكلمات
التي لم أقلها : الناي مع السكين ؟ يأخذونها منه ويختلس نظرة الى
ويهمس : انى معك فلا تحزن • هى للبقرة ..

تميل أجسامهم الضخمة كجذوع الأشجار العتيقة وينحنون سدا
واحدا أمام البقرة • بضربة واحدة تفتح البطن • عجباً لم لم تنزل قطرة
دم • والبقرة تجتر وتحلم • وكان السود صغار منها ترضع ، أو راعية
تحلب لبن الضرع • يرفعون رؤوسهم وكأنهم رأس واحدة مخيفة تنفرس
فى • ماذا أبصر ؟ أوراق تخرج من بطن البقرة - أقلام أقلام أقلام ..
كتب كتب كتب لا يظهر فيها رسم غلاف أو عنوان ..

- أرايت ؟

- أنحنى وأفحص بعضها • انها كتبت • هى نفسها التى فرحت بها
ذات يوم • ألح فيها أوجه ثوار ، زهاد ، حكماء ومجانين ، شاعرة تبكى
ابنتها ، أبطال مأس مهزومين وشهداء مكسورين • والبقرة تجتر وتجتري
من عينيها يسقط دمع مر • ينهضون على أقدامهم • يردون السكين للصبي •
يزأر صوت واحد :

- بطن الشاعر أو بطن البقرة ؟

أرفع وجهى للقمر الساكن فى وهج بحيرة - أنظر للموج الهادر
يبدأ ويعيد الكرة • تلمس كف كتفى بحنان • تسحبني فى رفق • يبرز
منديل أبيض • آخذة وأجفف دمعى • أسمع صوتاً يأمر :

- هيا للصخرة والنسر ..

جرونى الى الصخرة • النسر هناك ، يشتعل الجمر بعينه يرفرف
بجناحيه • أتردد ، تدفعنى الأيدي • هيا .. لا تتلأ • أنظر للعازف
فوق الناي ، يشد القدمين حزينا مثلى ، أبدا لا يرفع عينا عن ظلى :
انقذنى • انشد لحنك غنى ، كن فى المحنة عونى - يضحك العمالقة
الخمسة ، ينشدون فى صوت واحد : لن ينقذك اليوم سواك • والمنقذ

«ن يتقد نفسه • أهتف : كيف وأنتم تجتمعون على ؟ كيف سأفلت من قبضتكم ؟ ويفنون غنة الجوقة : نحن نعرفك بنفسك • نحن نعرفك بنفسك !

نقترب من الصخرة ، يتهلل وجه النسر • تسرى الرعدة في أعضائي وأنادي به : يا سيد هذا الصخر ، ان كنت ملاكا أو شيطانا خلص روحى من هذا القهر • يتبادلون النظرات ، يرفعون رؤوسهم للنسر ثم يحنونها خشوعا • يزداد خفق الجناحين وتوقد العينين • أوشك أن أهتف به : جوعان فى مادبة النسر الجائع ، ظمآن يقيد بالحجر الظامى • • أين الخير وأين الشر ؟ ينادى أحدهم : الصبر ! الصبر ! وسيأتى دورك قبل الفجر • فى لحظة يلتفون حولى • يصرخ أحدهم فى الصبى فيفبق ويمد اليهم يده بالجبال • ينهمكون فى ربط يدى وساقى على الصخرة • أنظر وجه القمر وأضرع للبحر •

ها أنا مربوط للصخرة • أنتظر عذابى من أيدي السحرة • أتوقع أن أجلد أو تبقر بطنى كالبقرة - الشر الكامن فى أعينهم يطلق شرره ، بعد قليل سيفادر وكره • •

لكنهم لا يتحركون • جلسوا أمامى فى صف واحد ، كأنهم يتفرجون على قرد مغلول • يتغامزون أحيانا ، يخرج أحدهم من جيبه جريدة مصورة ويتسلى بقرائها ، يستغرق الثانى فى تأمل القمر والبحر والشاطئ ، يخرج ورقة من جيبه يسندها على حقيبته كأنه يتأهب لكتابة قصيدة ، يدفن الثالث رأسه بين يديه ويستسلم للنوم وأسمع شخيره ، يتطلع الرابع الى ساعته وينظر للنسر ، أما الخامس فيراقبني ويرصد حركاتى وكأنه سيقدم تقريرا علميا عنى • بعد قليل ينهشنى النسر • أعرف ألا أهل ولا فائدة من الصبر • أصرخ فيهم : سفاحون وجلادون ، أسنان جراد ملعون ، هل غفلت عنكم عين القانون ؟ أظننتم أن الأرض خراب والناس نيام لا يصحون ؟ من أين خرجتم ! من علمكم حمل السوط مع السكين ؟ مرغتم وطنى فى الطين ، يا أكلة لحم البشر النهمين ، صرتم أمراء وسلطين ، وبنيتم عرشا فوق قبور المهزومين ، هل يلعب تاج الملك على جثث المقهورين ؟ هل تدرون ؟ أم أنتم لا تدرون • أنكم الجلادون المجلودون • أن الواحد منكم سجان وسجين ، جزار مطعون من نفس السكين ؟ قارئ الجريدة تائه فى صفحاتها • والمتلمل لا يكف عن النظر لساعته • والنائم لا يصحو بل يرتفع شخيره • أما الجالس فيلكز جاره ويقول بصوت عال : النعمة القديمة ، مسكين لا يعرف شيئا - يزداد يأسى فأعاود صراخى :

- أنا من جيل مهزوم • حاولنا نصلح وضع الكون المشنوم • خرج

العالم من محوره . زاد الظلم على المظلوم . يا كم قلنا وكتبنا والجرح
قديم ، حتى صرنا كالهوم . الحرية تذبح والعدل يتيم . . .

ضحك كائن ألقيت دعابة . أغرق في الضحك وقال : قلنا وكتبنا !
جبل الأقوال وثرثرة الكاذب والدجال . أين الأفعال ؟ أين الأفعال ؟

ينتبه النائم . يلقي القسارى جريدته من يده ، ينظر بقلق الى
ساعته ويعتدل . يشير المترقب للنسر فيتحفز ويرتفع جناحاه ويندفع
كالسهم نحوى . فى لحظة يصل الى هدفه . تؤلمنى الطعنة ، ينفث
الجرح . يرجع الى الصخرة . يتحفز ، ويرفرف بجناحيه . ينطلق الظل
الأسود ، تزداد الطعنة ألماً . يندفق دم . تسقط قطرات من منقاره .
تنفذ عيناه بلحمى كوميض البرق . أصرخ من ألمى :

– النسر يفتت كبدى . ينهش لحمى ويمزق جلدى .

يردون بصوت واحد : ذنبك أنت .

– لا المعجزة صنعت ولا الكون المقلوب عدلت .

– لكنك قد فكرت . والنار سرقت .

– والسارق أصبح مسروقا . والفكر تدلى مشنوقا . ما عدت جديرا
باللعنة . .

– فلماذا تخنق مخنوقا . . ؟

– اسأل نفسك . اسأل هذا النسر !

لم يحتج الى سؤال . فسرعان ما انقض كالصاعقة الكاسرة على
كبدى . لم أستطع أن أحسس الجرح ، اذ كانت يداى مربوطتين الى
ظهري . لكننى بصعوبة نظرت اليه . هالنى انه لم يعد يؤلمنى ، اذ بلغ
الحد الذى يتخطى الايلام ويصل الى الغيبوبة . أردت أن أفصح فهي وأصيح:
أين رسول الآلهة من الأوليمب ؟ أين عطارده أو « مركور » ؟ لكننى يئست
من العثور عايه . فربما كان الخمسة الموكلون بعقابى هم عطارده – مركور –
وربما يكون هو نفسه قد نسي دوره واختفى أثره . وعم أترجع أو أتنازل ؟
جسدى عروه وفتحوا بطنى . لم يبق هناك سر . حتى حافظتى يمكنهم أن
يفتحوها ، ولابد أنهم سألوا مدير الفندق عنى ، أو سألوا العازف الصغير ،
من يدرى ان كان مدير الفندق نفسه هو الذى أرسلهم الى ؟ أخذت أنفاسى
تتلاحق ، غام الأفق بعينى ، غطتنى سحب الغيبوبة ، وأفقت على عزف الناي
وريش يتناثر فى الجو . هل تذررو الريح جناح النسر ؟ ونظرت اليه .
كان كجناح الليل ، تكوم كالحجر الصلد ، وانطقاً بريق المجد ، والريش

يخلق فى الجو . ويتسبح أجنحة . تنبت فيه القدم ، الرأس ، المنقار ، العين . وينادى أحد الجلادين على : أنظر ما أخفيت ، العش امتلأ وفر الطير .

لم أعرف ماذا يقصد . كان الريش لا يزال يتطاير ، وأنا أتابعه شغوفا به ، وأراه يتخلق أمامى طيوراً مختلفة الأشكال والألوان . رفع جلاد آخر صوته وأخذ يقول : لأنك أخفيت النار ، كتمت السر ، لا استدفأت ولا أدفات الغبر ، ولهذا ضاق القفص وفر الطير .

أخلوا يرددون وراءه : فر الطير . فر الطير .

عينائى مشغولتان بمتابعة الريش والطيور . والحياة التى تتخلق كالسحر تمنعنى أن أكثر بصياحيم . وهم كذلك لا يكثر ثوبى ويواصلون غناءهم الرتيب :

– كتبت وقلت . لكن لم تك أنت . لم تك أنت .

أغاظنى كلامهم فصحت بهم : لم أكتف بالقول . فعلت . ما كان بوسعى قدمت . ضحكوا واستمروا فى الغناء : لكنك خلف قناع عشت .

قلت وأنا أشيح بوجهى : يكفى أنى ما قصرت . لم أقس على أحد وقسا الزمن على .

ضحكوا وأخذوا يصفقون : وعلى نفسك أنت قسوت . أنظر هذا الطير الغاضب يخرج من كبدي ، يخرج فى صمت . نحن فتحنا القفص فرفر فى الجو وراح يغنى عذب الصوت . أما أنت فقد أهملت ، وترددت .

– يخرج من كبدي ؟

تولنى رقبتي وأنا ألويها لأنظر فى كبدي . حقا كان الريش يخرج منها . ينتشر فى الفضاء كقطع متناثرة من قوس قزح . أسمعهم يضحكون ويقولون : تأمل هذا الطير . وانظر للوجه . وستنكره أو ستعرفه على الفور . تدوى الطيور حول رأسى . تتمهل قليلاً أمامى لأتفحصها . أحقا أعرفها ؟ أنكر بعض الأوجه ، لا أذكرها ، أعرف بعض ملامحها : سلطان يعشق جاريتة ، والجارية تحب العبد ، وهذا الطير : ايزيس الملكة تهوى الفلاح المنحوس ، وتعلمه ، تبعث فيه الروح كما فعلت أوزيريس . ما هذا أيضاً ؟ قارون تتبعه سبع طيور . يا للذاكرة المثقوبة كالغربال ! والحكماء السبعة ، ومن هذا ؟ هو أوديب – أوديب يدافع عن نفسه ، ان أكرم فى حق الشعب فان الشعب كذلك شارك فى جرمه ، وأب يحتضر ويلقى الأبناء عليه التهمة ، تنتظر الزوج وتغزل ثوبه ، حين يعود ويفرق فى الدم كفه تصده ، تنكر وجه القاتل ، ترجع للمغزل تنسج ثوب الزوج الحق

وتنتظره ، أطفال تبحث عن آباء . آباء تبحث عن أبناء ، ووجوه أناس أعرفهم ، فلاحون وخدم وقضاة ، رسامون وشعراء ولصوص مهرة ، دجالون وجلادون ونهازو فرص فجرة ، أبطال أساطير ومساكين وثوار وضحايا الثورة . . . الخ . كانت الطيور تحلق في الجو وتقترب منى وتدوى في أذنى ثم تبتعد وتختفى . لم يمض وقت طويل حتى كانت كلها قد ذابت كقطع السحاب التي تسوقها الرياح أمامها وتحرقها أشعة الشمس فتشف قليلا قليلا حتى تتلاشى . صفت السماء وهدأ الدوى والطين . وانكفأ النسر على نفسه وأخفى رأسه بين جناحيه واستسلم للنوم . وسكن الألم فلم أعد أشعر بوخزه واحتراقه . وتطلعت أمامى فإذا الجلادون الستة واجبون كتمائيل قروود متراصة في مدخل معبد . وانطلق صوت الناي ، حنونا ، منسابا في شفافية شعاع القمر الذي ازداد توهجا في السماء كتفاحة ذهبية . كانت هي الساعة التي تسبق طلوع الفجر . . غلالة تغطي وجه الأرض ، رمادية داكنة ، تشبه سحابة غبار فوق أرض معركة لم تتضح . كنت قد تعبت وثقلت جفوني فتراخي جسدى وتمدد وسرى في كل شيء كما سرى فيه كل شيء . وإذا بالناى يفتح عيني ، والصبي الساحر يبتسم عن قم عذب نضيد الأسنان . لولا القيد في ذراعى وساقى ، لولا الخدر الباهت الذى يلغنى كالضباب ، ولولا ان النسر ما يزال فى مكانه ، والتمائيل الستة صامته كالأصنام أمامى ، لولاها لقلت لنفسى : كابوس زال . ولكن ها هو الصبي يعزف كأن لم يكن شيء . واللحن يشبه أن يكون تحية ترحيب واستقبال لموكب قادم . ويبعد الصبي الناي عن فمه ويناديني باطمئنان : ها هو قادم ! أهمس من مكانى : من ؟ يدبر الصبي ظهره الى . يفتح ذراعيه كمن يستقبل ضوء الفجر الطالع بعد هزيم الرعد وقصف الرياح بليل عاصف : بشر لا كالبشر ! اله أو شمس !



٦ - البطل الشمس :

كان يتمشى على الشاطئ في جلال أبولو وجماله . كيان أسطوري على الجبهة ، شامخ الأنف كبطل روماني ، منسدل الشعر على الكتفين ، لا هو بالطويل النحيل الذى يشرئب عبثا للسماء ، ولا بالقصير السمين الذى تجذبه العناصر للأرض . يقترب قليلا فى مشيته الرائعة كجيش زاحف ، تبدو عيناه الواسعتان السوداوان كعيني نسر هبط من الأوليمب لتوه ، حلق فوق البشر وعبر حدود الحياة والموت . وقف الصبي مفتوح الفم يتأمل عينيه ، وفمه الدقيق ، وذقنه الحاد المدبب ، ولا بد أن العينين

الوائقتين اللامعتين استغرقتاه فظل يحدق فيهما ونسى الناي على فمه .
كان ينحنى على الرمال أحيانا ليلتقط قوقعة أو يفحص حيوانا بحريا أو
ينأمل قطعة حجر . ثم يفتح ذراعيه وصدره القوى العريض للشمس
ويبتف :

لو لم تكن العين سماعا من نور الشمس . ما أمكنها أن تبصر ضوء
الشمس . أيها الصبي الوديع الجميل ، أنت محظوظ اذ تعيش فى بلاد
الشمس . كانت روحى تتضور جوعا للدفء . فذهبت لروما وصقلية
وأليت العباء . عبء ضباب بلاد تخنق أنفاس المرء . أنت محظوظ
يا ولدى . لم لا تتكلم ؟ ألا تحسن غير الغناء ؟ وهذا الناي الذى أراه ..
أتكون صبيا لساحر ؟ أغرانى هذا الولد الماكر واشتهرت أغنيتى عنه .
جرب مثل معلمه أن يقرأ بضع تعاويذ تسخر روح الأشياء . نسي حروف
السر ففاض الماء وأغرق جدران المنزل والأبهاء . يا ولدى لا تتعجل سير
الزمن ونضح الأشياء . كسلحفاة « زينون » أرادت تسبق خطو أخيل
العداء - خذ نايك واعزف أغنيتك للبحر وللأفق الوضاء : هل تذكرها ؟

رد الصبي بصوت واهن ران عليه الخجل : لست صبي الساحر
يا مولاي - أنا الصبي الآخر . ذلك الذى روض الأسد الشرس بغنااته وعزفه
على الناي .

يتعجب السيد ويرفع حاجبيه الثقيلين : حقا ؟ انه كذلك صبي
ساحر . استطاع بقوة اللحن والايمان أن يسيطر على فوضى العناصر
والغرائز . ويخلص العجوز والام وطفليها من خطر الوحش ويؤمنهم من
أخطار الطبيعة عندما تنور البراكين وتغضب الزلازل والأعاصير . ذلك
هو سر الفن يا ولدى ، لغز المبدع الذى ينتصر على طبيعته الحية بالفن
والدين والأخلاق - كانت أقصوصة صغيرة ، لكنها من النوع الذى يحار
الانسان كيف وفق لكتابتها هل تذكر أغنيتك فيها :

الخالد يحكم فى الأرض
نظرتة سادت فى الأفق
الأسد انقلبت حملانا
والموج تراجع للخلف
والسيف اللامع قد أمسى
يتجمد كمدا فى الغمد
الأمل تحقق والفن
وتجلت معجزة الحب

ليس عجيباً أن أجد صبياً مثلك يسحره نور الشمس الطالع ويواجه
قوة هذا العنصر السيل بالعزف والغناء . شيقة وممتعة هذه الأرض ،
يبدو أن عقلي الباحث عن كل جديد لن يشبع من أرضنا وسماينا ونباتنا
وأحجارها . الأبدى فعال في كل مكان ، خصوصاً في هذا الجزء من العالم .
لكن بالله عليك : أين أنا الآن ؟

هتف الصبى فرحاً : في الشرق .. الشرق الطهور ..

وضع السيد يده على ذقنه وقال : نعم . نعم . لابد أن تكون هذه
قطعة من الشرق . ثم مضى يردد بصوت هادئ يخرج من صدره ليعود
اليه وينفذ فيه : لله المشرق ، لله المغرب ، الأرض شمالاً ، والأرض جنوباً ،
نرقد آمنة . ما بين يديه – أهى بلاد شقيقى ، توأم روحي في المشرق ؟

صاح الصبى : حافظ ؟ لا – بل أرض المتنبى ، وجميل بنينة .
وكثير عزة ..

تعجب السيد وأخذ يتلفت حوله ويتطلع الى الشمس البازغة في
الأفق كأنه يريد أن يشدها الى صدره : حقاً – ليتنى عرفت عنهم أكثر
مما عرفت – لكننى هاجرت بروحي الشرق ، جددت شيخوختى وشعرى
بالحب والغناء ، وتطهرت من نبع الخضر ، وحومت قصائدى حول أبواب
الفردوس – هذا الدفء ، هذه الشمس ، لنبتهج يا ولدى بومنا العابر
الجميل ..

كان الحديث ودفء الشمس قد ساقهما الى التجول على الشاطئ .
وكانا قد وقفا تحت الصخرة يتطلعان للأفق ويجوسان على الرمل والحصى .
ويمالآن صدرهما بنسيم الفجر النقي . لم يرفع السيد رأسه الى الصخرة
الا عندما غلبنى الألم على بهجة الاستماع اليه فخرجت منه آله . حانت
منه التفاتة الى الصبى ونظر الى أعلى وصاح : ويلك ! من هذا المسكين على
الصخرة ؟ هل نتكرر في هذا الجزء من العالم مأساة اللص الأعظم ؟ شاركه
الصبى فى التطلع نحوى . غام الأسى فى عينيه وعلى خديه وأطرق برأسه .
صاح السيد غاضباً : هل يصنعون هذا بكل الثائرين ؟ أيعيثون المأساة
القديمة فى كل مكان ؟ هذه الصورة القديمة من أيام شبابى . لقد سيتها
وانتصرت عليها . ألا أستريح حياً ولا ميتاً ؟

رفع ذراعه وأشار الى : أنت ! من قيدك الى الصخرة ؟ أنت "

صاحت من الألم : مشنوق تتدلى رأسى فى بستان المشنوقين . ربطوا
ساقى فى الصخرة ..

– من ؟

- ستة جلادين ، والنسر الاسود فتت كبدي ، مزق لحمي كالمجنون .
- ومكرر ؟ هل بعثوه اليك لتخضع للطين ؟ وترد النار الى الآلهة الموتورين . لا تفعل أبدا . . .
- ماذا تقصد يا مولاي ؟

– ان البشر ضعاف يحتاجون لمن يخلقهم ويسويهم ، ينفخ فيهم سر الكلمة . سر النار ويهتف فيهم : كن فيكون . من يفعل هذا غير الشاعر ، من يبعثهم ، يهدي الخلد الى الفاني ؟ لست وحيدا فوق الصخرة ، فعلوا هذا بألوف قبلي وألوف بعدي ، أنا من نسل بروميثيوس المسكين . لما كنت شابا مثلك . . .

– قد جاوزت الخمسين . .

– لا تيأس ، فالأيأس مهين . والروح المبدع يهزم سيف الزمن المسنون . في ريعان شبابي كنت رسول النار الى الطين ، عشيت وغنيت وصفت بمطرقتي : ثوارا ، أبطالاً ، فنانين ، ورجالا لا يهزمون ولا يقعون على أقدام الجلادين ، يثقفون بأنفسهم ، يتحدثون ، يحبون . فالقلم الخالق يكتب ويعبر عن خلاق في الصدر دفين ، فاخلق يا ولدي . .

– جف معين الخلق ويثست نفسى . .

– غامر واستغن بيومك عن أمس .

– تعبت . . تعبت . . وعشيت وحيدا أحمل يؤسى .

– أنا أيضا جربت الوحدة والصمت . لكنني عشيت وأحببت وأبدعت ، فقهرت الموت .

– كيف ؟ أجبني .

– مت لتكون ! . . بذلك تقهر موتك . ضج بنفسك كي ينشأ كل أرقى منك . فالقطرة تجد نفسها عندما تنعدم وتصبح لؤلؤة ، والفراشة تجد نفسها عندما تحترق في لهب الشمعة . غن معي يا ولدي :

• واذا لم تصنع للصوت القديم

• داعيا اياك مت كيما تكون

• فستبقى دائما ضيفا يهيم

• في ظلام الأرض كالطيف الحزين

- أ أموت لأحيا ؟ أو لم يشبعنى زمنى موتا ؟
- كل ما يهوى الوجود ، سوف يهوى فى العدم • عش يا ولدى ••
- كيف أعيش ؟
- فى اللحظة • فى أيام شبابى جربت اليأس • أوشك أن يوردنى
حتف النفس • لم أتردد • أمسكت القلم لأخلص من قبضته •••
- ما أكثر ما سود قلمى ، بحر مدادى لم يغسل ألى ، ما قربنى
شبرا من نفسى ••
- أكتب ما يمليه عليه الحس •• وكن نفسك يا ولدى ••
- أفعل هذا جهدى ••
- الفعل • الفعل • ها أنت نطقت بنفسك • فى البدء الأول كان
الفعل • هذا ما كنت أقول وأعمل • والخالد يعمل فى كل مكان ، ينشط
فى كل زمان ، لا يتخلى عن مقرله أبدا • فلماذا لا تفعل مثله ؟ الخالق
فعال - كن مثله - والخالق يبدع ، فلماذا لا تبدع مثله ؟ خلق الانسان
ليخلق ، ولهذا استخلفه الله على الأرض لينطق ببدع يخلق ••
- سأحاول •• لكن ••
- لا تترك لحظة ! عش فى اللحظة فالانسان فقير لا يملك
الا اللحظة ، فليحرق هذا الحقل بنفسه ، وليزرعه ويجرب حظه ، هذا
ما يفرضه الوعى وتفرضه اليقظة ••
- لكن اللحظة نعب • تفنى كالقطرة فى بحر الزمن وتهدر •
- املأها بالعمل المتمر نغدو القطرة لؤلؤة •• والحببة جوهرة ،
والأبد سيطيح خاتمه فوق الزمن المدبر • أتقول بأن اللحظة تهرب منك ،
سوف نعود شقيقتها تتوسل لك : املأ كأسى ، لا تتردد ، جدد خمري
تتجدد ، فالنشوة منك اليك ••
- النشوة • والخمرة والكأس •••
- بهذا تعرف سر النفس !
- ما أطيبك وأحكمك •• فهات الكأس !
- أقبل السيد الكبير على وأخذ يفك الحبال المربوطة حول القدمين
والساقين • أحسست أنفاسه الدافئة نرف على وجهى كأجنحة النسيم •

ثبت بصرى فى عينيه السوداوين ، شمسان هما أم أفق يسع الكون ؟
وأنا أشعر بين يديه شعور الابن حيال الأب ، يختلج الإعجاب بصدري
والرهبة والحب ..

تحمس الصبى فأخذ يساعده فى فك قيودى . ولمست يده جرحى
فنادى : أنظر يا سيد .. جرح وبقايا دم . مال السيد على ومد يده
القصيرة المكتنزة فلمس الجرح . ابتسم وقال : لا بأس عليك ولا ضرر ،
أنا أيضا عشت وفى جنبى جرح مر ، جرح الشعراء قديم لا يندمل مع
العمر ، يفتح اذا كتب القلم ويبتسم كثر نضر ، فغمس قلمك فى هذا
الجبر ، كى يحيا الشعر ، كى يحيا الشعر ..

هل تحتمل النملة أن يمدحها الأسد أو النمر ؟ قلت وفى عيني
الحسرة وخدودى تحمر : يا مولاي لقد هرب الشعر . وانحسر الموج عن
الصخر ، صار عجوزا أعمى فى زمن الغدر ، يجلد بسياط الذل وأكل
العيش وطلب الستر ، داس على جثته أقزام العصر – أنظر يا مولاي
لهذا النسر ..

أدار وجهه ناحية الصخرة المقابلة . كان النسر لا يزال منكفئا على
نفسه ورأسه مدفونة بين جناحيه – أحس بعيني النسر البشرى فارتجفت
عيناه قليلا واضطرب جسمه الجائم كالليل أو الهم . ابتسم السيد وقال :
أعرف هذا النسر . يعرفه المبدع أنى كان على اليابسة أو البحر ، فتت
كبى بروميثيوس ولن ينجو منه انسان حر ، ينتشل اليأس من هاوية
اليأس فيصبح كالرياح العاصف كالوج الهادر فى البحر ، من صدرك
يخرج هذا النسر ، القلق الجامع والألم الجارح ، والفرح الطافح والبشر .
لا تخش النسر ، لا تخش النسر ...

قلت : وهؤلاء ..

سأل فى وفق : من ؟

أشرت اليهم . كانوا ما يزالون فى مكانهم ، قابعين أمام الصخرة
كأطلال جدار عتيق ينظرون إلينا صامتين .

قال السيد : أشباح هؤلاء أم آدميون ؟

– بل جلادون ..

صاح السيد : من أنتم ؟ من أرسلكم . من كلفكم بالامر الملعون ..
أفضاة أنتم أم متهمون ؟

وقف أحدهم وهو يتلفت الى رفاقه . مد ذراعيه للأمام ثم رمعما
لوجهه وتنحنج قليلا ثم قال : معذرة يا سيد - نحن .

صاح بغضب لا يصدر عن كان رزينا متثندا مثله : أعرفكم . أتذكر
سحتكم . هل أنتم في كل زمان ومكان ؟ باسم الفن وباسم الشعب لسعتم
جسدى كالحشرات ، سمتم بثر حياتى كالحيات . لا تتوهج نار تطفوها ،
لا يزهر شجر حتى تجتثوه ، لا يرتفع بناء حتى تلقوه بالأحجار ؟ بشر أنتم
أم دود . ووجوها أنظر أم أفتنة كلاب وقرود ؟ ..

قلت : حلا دون ودجالون . غرزوا الناب بلحمى طول العمر . حتى
ضاق الصدر ، اختنق الصدر ..

زعى الواقف وردوا عليه فى صوت واحد . بل نحن خرجنا من هذا
الصدر كما خرج النسر ، نحن رؤاه . هواجسه . أحلام صباه ظنون الفكر ،
يأمرنا تصدع للأمر . عشنا معه فى السراء وفى الضراء وفى الخمر وفى
الشم . جعنا وظمئنا معه ، ذقنا الحلو وذقنا المر . ليلا ونهارا نادينا ودعواته
فى الجهر وفى السر : انهض وتجد القهر . وافتح عينيك وقلبك للشمس
والق بجسدك فى البحر ، حى غضب علينا . نسي ملامحنا . ألقانا فى
قاع البئر . ضيقنا يا مولاي بصمت القبر ، حملناه اليوم - كما تشيد -
فى الفجر ، كى يتطهر بالنور ويخرج من منجمه الدر . لم بأسره ،
حاشا لله ، ولكن أنقذناه من الأسر ، كى يبصر ، يعرف ، يعمل ..

قاطعه السيد : يعمل ؟ ماذا يعمل ؟ لا ينقذك الا العمل الحر .
يا أولادى تلك وصية عمى ...

قلت ساخطا : أولادك .. كشفوا عريى ، نهشوا لحمى ..

احتج الأسود الذى يتحدث بلسانهم وقال : من يأكل من لحم مر ؟
نحن تركناه لهذا النسر . ينهش كبدة النائم فى كهف الغيب أو السر ...
ضحك السيد فجأة . لم تأت الضحكة من فمه ، بل راح تنتشر
فى كل أعضائه فتتهتز وتتمايل وتعلو وتبهط كالقارب الذى تجرجه موجة
هادرة .. نزل الى وفى عينيه وميض الشفقة والحب ، والتفت إليهم كأنه
يستأنف كلامه :

- لا تنسوا .. وهو رسول العمل الحر ..

وففوا خاشعين ، خفضوا رؤوسهم وأخذوا يهزونى فى خضوع
كالرهبان الصغار أمام الكاهن الأكبر . قال كبيرهم : نصدع للأمر ..
نصدع للأمر ...

وقف السيد على الصخرة كالقائد الذى يصدر أوامره بالزحف .
سطعت جبهته الشامخة فى ضوء الشمس واحمر وجهه كالشارب النشوان
وأخذ يشير بذراعه الممدودة الى الأمام والخلف : هيا للعمل الحر . وأقيموا
الأرض الحرة كى يحيا فيها شعب حر . هيا الآن وقبل فوات العمر ،
فالحرية يغزوها انسان حر ، يعمل ويعنى . فى كل مكان يزرع شجر
الخير . شقوا الأرض هناك ، اسقوها حتى تنضج ، والأكوخ البائسة
أمام البحر ، يسكنها نمل أغبر وجراد مصفر ، ابنوا فى موضعها المعمل
والساحة والقصر . . .

قال كبيرهم مستفسرا : هل تبنى الكلمة وتعمر . . ماذا تقصد ؟

قال فى حماس : لتكن الكلمة عوناً للعمل الحر . هيا انتزعوا من
قبضة هذا البحر . أرضاً ينمو فيها الزرع ويعبق فيها الزهر – شق قناة
يجرى فيها ماء النهر ، كى يسقى الأرض الظامئة فتلهج بالشكر ، أو يطعم
شعباً محروماً عذبه الفقر . شق قناة فى هذا القفر ، ليس كثيراً من
رجل الفكر . . . هيا هيا . . . شقوا الأرض ، أزيحوا الصخر . . . حان الوقت
لأمضى .

قلت : ألا تبقى معنا . . .

التفت الى فى حنان ووضع يده على كتفى : أما أنت فغير نفسك ،
واحمل قلمك فى الحال كما تحمل فأسك . بدأ طريقك فأتم الرحلة .
وتحدد قدرك فاسلك سبيله . .

٧ – أمسك بالقلم وامسك بالكأس :

ذهب السيد كما جاء ، لم نعرف الى أين كما لم نعرف من أين .
أخذنا نتطلع اليه وهو يخطو فوق الصخور كفارس غريب امتطى صهوة
الريح والجبال والسحاب . أخذ السود الستة يتابعونه بأبصارهم ، كرجال
الفلك الذين يرصدون كوكبا سطع فى السماء ثم اختفى . رحت أنظر
إليه كأنى أنظر فى نفسى ، لابد أن أجيال البشر قد عاشت وتناسلت وبنت
وخربت وبحملت كى تغذى جنيينا فى أحشائها وتنميه وتربيته وتصبر على
المخاض . مئات السنين لكى يهبط أرضنا الكثيبة ، ويسطع فى سماءنا
مثل كوكب رحيم يعرف كل شئ ويغفر كل شئ ويعطى المتل الأصغر
للأبدى الحى الفعال على نول الزمن الأزل . ظهرت كواكب عديدة مثله
فى سمائى وسماء الناس ، أحببت كثيراً منهم ، وتعلمت على أيديهم ،

منهم أعمى مجذور الوجه . شعت منه السنة اللهب الحارق بالثورة والصدق ،
منهم من يسبح في الآخرة ومنهم من غاص بأعماق الطين ، من ثار وفار
وحطم عصره ، من عكف على هندسة الكون وترتيبه ، من غنى وحده ، أو
عزف على قينار الحلم ومدن القد ، من أضحكتني في ليل الصمت ، من
أبكاني ، زرع بنفسى شجر الموت ، من أحياني في صحبته فسئمت صحابي ،
أهلى . جيراني – لكن هذا النور المنسجم الهادي ، ...

انتبهت لصوت الناي في يترقرق حنان لم أعهده ، لابد اننى جبت
متاهتى على رنينه الشجي . كان الصبي يعزف تلك الأغنية التي أنشدها
للسيد ، وصاحبيت وقع حركاته وسكناته حتى خلت انه يتبع الشبح
المتلاشى بروحه أو يحاول أن يسترجعه بحنين شكواه . ولابد انه لم ينس
وجود الستة بعيونهم السود وستراتهم السوداء وحقائبهم السود ، يقفون
هناك يشيرون صورته الغائبة كما يشيع اللحدون جثة كبير سمعوا عنه
وأدوا نحوه مراسيم الواجب واستراحوا منه ..

– هيا للعمل ...

دوى صوت كبير الجوقة الكالحة كصوت بوق أو نذير . كان معنى
الاشارة الآمرة أن يكف الصبي عن عزفه ، أن أهبط من مكاني على الصخرة ،
أن أقبل على فصل العذاب الجديد . وقبل أن أستجمع بقية قوتي لأنحدر
على الطريق الوعر المليء بالحصى والحجارة المدببة كالسكاكين التفت لأنظر
للنسر . كان قد غادر موضعه ، هل طار ليلحق بالسيد ؟ ..

سبقتنى الجوقة الى مكان العمل . وسبقنى الصبي الى المتول بين
أيديهم . فى لحظات فسخوا حقائبهم ، أخرجوا منها ملابس العمل الزرقاء ،
وسرعان ما ارتدوها ، أخرجوا منها – لشدة عجبى – فنوسا وجرافات
صغيرة بأيد طويلة ، وأكياسا وجرادل وعصيا كالملاعق الكبيرة تنتهى
بعضها بأطراف مسنونة كالأشواك .

– هيا للعمل ..

هتف كبيرهم فانطلقوا بأدواتهم أسرع من خفقة جفن . هم أنفسهم
الذين بدوا منذ قليل كأفراد الجوقة فى قداس أو مأساة ، أصبحوا الآن
يجرون ويذهبون ويجيئون بفنوسهم ، وحفاراتهم الصغيرة وعصيمهم
وأكياسهم . راحوا يشقون الأرض ويخرجون التراب فى أكوام لا تلبث
أن تتراكم كالكبان الصغيرة ..

– هيا ..

كنت قد وقفت أراقبهم لا أدري ماذا أفعل .. سرحت بى الأفكار
على الرغم منى كأننى أشاهد شريطا يدور فى الخيال حتى نبهنى الصوت
من جديد : للعمل .. أتظل حياتك تحلم وتفكر ..

تحركت ولكن فى غير اتجاه .

خذ فأسا واحفر ، أو لم تسمع ما قال السيد ؟ ..

قلت معتبرا : نتعلم مسك الفأس كما نتعلم مسك القلم ..

– ماذا تنتظر اذا .. أتكون يداك أحن على الأرض البائسة من
العامل والفلاح – هل تخشى أن تجرحها ؟ ان الأرض ترحب بجراح فوق
جراح .

– لا أخاف يا سيدى . ولكن لا أدري ..

– هيا .. هيا .. يكفيننا ثروة وهراء . تعالى وجرب أن تفتح
صفحة هذا العالم ، أن تقرأ فيه بالآلة والعتلة والفأس ..

– الفأس ؟ ..

– نعم .. ألم يسبق لك أن لمست فأسا ؟ تنوحون على الفلاحين دون
أن تجربوا الفأس .. تمجدون الأرض وتنزهون أيديكم وسترانكم اللامعة
من الطين .. هيا .. هيا ..

تذكرت المرة الوحيدة التى لمست فيها فأسا .. كنت فى الثالثة
عشرة أو الرابعة عشرة من عمري عندما زرت الحقل ، فى يدى كالعادة
كتاب . وفى قلبى عرائس الأحلام وآمال المستقبل وحشرات الحاضر
ورياح السخط وأشواق البعد تصطخب فى الضباب . كان الكتاب قد
استهوانى على الرغم من صعوبته ، فقد كان بالفرنسية التى لم أحسنها ،
ورحت بعنادى أستشير القاموس الصغير بحجم الكف الذى لم يكن يترك
« سيالة جلبابى » الأبيض . قصة حب كانت ، والبطل اليائس – كانت
محبوبته تخلص للزوج المنتظر المخلص ، زوج يعرف واجبه ويؤدى عمل
الدولة كالساعة أو دورات الأفلاك – البطل اليائس عقد العزم على الانتحار،
يجلس الى مكتبه ليكتب رسالة يطلب فيها خدمة من صديق ، والخدمة
أن يرسل اليه غدارة .. وعبان النيل الصغير ينمدد ويسحب جسمه المتلوى
اللامع ويقرب منى . التفاتة سريعة الى شاطئ، الترفة ، سرحة فصيرة
مع دموع البطل المنتحر ، وانتفاضة مدعورة يغيب فيها العقل ويتحول
الجسد الى عصفور مخبول أو حجر مندفع بقوة لا يعلمها .. جريت من
الجرن المكوم بالقش الى حظيرة البهائم . أخذت ألتقط أنفاسى المبهورة أمام

الأبقار والحمير التي رفعت رؤوسها عن العلف وراحت تنظر الى متعجبة
 - لم يكن الفلاح العجوز الضئيل الوجه هناك - جريت الى حجرته وأنا
 أهتف : ثعبان ! ثعبان ! خرج الرجل من الحجرة في هدوء كعادته ، بين
 يديه ابرتان كبيرتان وخيوط من الصوف الاحمر - قال في هدوء : هل
 أمسكته ؟

- أمسكته ؟ .. لقد جريت منه ..

___ شاطر ، أين رأيته ؟

قلت وأنا ألتخفي في ظله : عند الجرن - لابد انه تسلل في القش .

- في هذا الحر .. كان يزحف (نعم يزحف ، في حياتي ما كرهت
 مثل الزواحف ، الدودة ترعبنى ، البورص يشيب شعري ، يكتم نفسي
 أكثر من تمساح ، عين الثعبان تلسعني في النوم وفي اليقظة ، ترهبني
 أكثر مما ترهب حمامة مسكينة يهم بإبتلاعها - لن أنسى المنظر في حوض
 الزجاج !) قال العجوز : سنجد ان شاء الله - اتجه ناحية التربة . مشيت
 وراءه ، قال لي : استرح أنت وذاكر دروسك في الحجرة - هل يملك أن
 ترى ثعبانا مقتولا ؟ استرح أنت وسأحضر وأعمل الشاي ، مرت لحظات
 قصيرة ، عاد بعدها رافعا الفأس في يده ، يتدلى من حله ثعبان صغير
 ينزف دما - ها هو يا عم - لعنها الله - ننفضها عن رؤوسنا وأرجلنا
 كالبراغيث - صحت به : ارمه في التربة - ادفنه في التراب ! ادفنه ؟
 أنت طيب القلب . ها هو راح ! وذهب الى الباب وطوحه بذراعه السمراء
 البارزة العروق - اقتربت منه وأنا أنتفض . أمسكت الفأس لأول
 وآخر مرة !)

كانت عينا الكبير تحدجني بنظرات كلدغة الثعبان . تقدمت أتناول
 فأسا مدها الى أحد الرجال الباقيين في صبر يحسد عليه . همس الصبي :
 تقدم ، تقدم ، افع ما يقولون . طمأنته : لا تخش علي . وأخذت أرفعها
 وأنزلها في الحفرة التي بدأت تتسع . أخرجني الصوت الغاضب من
 صمتي : احفر جيدا ، ما هكذا الحفر .. أنظر لرفاك .. علموه كيف
 يمسك الفأس ويصوبها .. أقبل أحدهم علي . أمسك ذراعي وشد قبضة
 يدي على طرف الفأس ، رفعها بقوة وهوى بها الى القاع . أنت الأرض
 بحسرة المحترق . ظهر التراب نحتنا بنيا غامق اللون كجلد حيوان
 مسلوخ . تناثرت حبات التراب في عيني فاحمرت وسحت منها دمعتان
 تقطرا على خدي . قهقهه الكبير وأخذ يلكر رفاقه في جنوبهم فيجاوبونه
 بالضحك .. مال أحدهم علي جنبه في عمق الحفرة ومسح العرق عن
 جبهته وأخذ يضرب كفيه : مثقفون .. مثقفون ..

زعى الكبير عندما رآنى جامدا كتمثال بلله المطر ، أتلفت يمينا ويسارا ، أعترى عن الذنب ، أعجب من ضحكاتهم وأمد بصرى للبحر أسترحمه . وللبقرة التى كانت لا تزال ممددة على الشط تملض وتجتى فى سلام وكأنى أدعوها أن تقف فى صفى . صرخ الكبير : لا تتلفت للبقرة - تمتعت معتذرا : أنا أفعل ما تأمر به - صرخ من جديد : هل عدنا للأيام العكرة ؟ ثبت عيني رغما عني على البقرة - وسط الصخب والضجيج ، بل وسط اهتزاز الزلزال نفسه يمكن أن يفزع الانسان لحظة الى واحة أمن خاطفة كسراب - قلت : أنا لا أهمل عملى ، أفعل ما فى وسعى . علت صرخته حتى صمت أذنى : أتسمى هذا عملا ؟ علينا أن نكمل شق القناة . هل نسيت الجنة التى سنزرعها هنا ؟

قلت : لا لم أنس . فأنا أعيش لها .

صاح : اذا فاعمل . اعمل . . تردد صوت الناي ، متأرجحا يهتز على ايقاع الأذرع الصاعدة الهابطة ، وضربات الفئوس فى بطن الأرض ، وسقوط التراب على حافة الحفرة كسقوط الحجارة فى ماء آسن ، كنت اعمل جهدى لكى أستحق صفة العامل . أحاول أن أبعد عني الأفكار المتزاحمة على كلسمع البعوض أو همس السحرة . وتجنبى النظر الى الكبير الذى كان لا يزال يحرق فى وجهى . أيقظنى صوته : مجتهد . . لكنه لا يستطيع . . لا يستطيع . . ألقى الفأس لحظة لاستريح وشددت قامتى قليلا . . استمر يقول : خطر الذاتية ! ميثوس منه . . لم أدر كيف أدفع التهمة عني ، لم أدر كذلك كيف أدفع الوجوه التى بدأت تتزاحم حولى . والطيور التى ترفرف على وجهى . سحقا لى لو عرفوا هذا ! هى نفس الطيور التى خرجت من كبدي ، نفس الأوجه : ايزيس وأوديب وأوفيليا ، سرب الحكماء السبعة والمملك سليمان وعيسى بن هشام ، أطفال وعجائز ، فلاحون وشحاذون وأبطال مآسى ، حمقى ومجانين ، خدم وأرامل وبغايا وملوك ، فنانون وصحفيون وثرثارون ودجالون ومنسيون ومحتضرون . . . صرخ الكبير صرخة خفت معها أن يرجع النسر على دويها ، وقف الصبى مذعورا لا يدري ماذا يفعل بيديه وذراعيه ولا بالناى المتدلى من رقبته تصفر فيه الريح ، دوت كصاعقة اخترقت السماء فى طريقها الى قلبى . يبدو أن الجرح انفتح فقد سقطت قطرات منه على جانب الحفر : ميثوس . منه . . ميثوس منه . . ألقى الرجال فتوسهم على الحافة ، نفضوا التراب عن جنوبهم ورؤوسهم وتناءبوا . بدأوا يخرجون من الحفرة واحدا بعد الآخر ، وعندما تلمس أقدامهم الكثبان الصغيرة المكومة على طول الحافة يلوون رؤوسهم نحوى ويهزونها . . هممت أن ألحق بهم وأغادر الحفرة . صاح الكبير : ميثوس منك . . ميثوس منك . . حاولت أن أتكلم ، تحركت

شفتاي ولم يخرج صوت ، نفضت التراب عن جسدى العارى المحترق بنار الشمس ووضعت يدي على الحافة كي أقفز . انهالت ضربة فأس طاحنة فوق يدي – سحبتها والألم الخانق يلطمني ويطلق من صدرى حشرة كلب مطعون أو مدهوس . شل السمع وغام البصر وجثم الجبل على . نفذت صيحته بعد قليل فى أذنى : الحفرة لك ! ردد الخمسة وراءه : الحفرة لك . الحفرة لك . وعاد يطلق زئيره المسعور :

- يشقى ليشق قناة
- يجتهد ليحفر حفرة
- والحفرة تصبح قبره

ويهلل الرجال الخمسة ويتميلون طربا ويرددون على وقع التصفيق:

- يشقى ليشق قناة
- يجتهد ليحفر حفرة
- والحفرة تصبح قبره

٨ - رأس هش . رأس هش :

يشير أحدهم الى الصبى الواقف تجاههم على الجانب الآخر من الحفرة كشجرة صفصاف صغيرة تتدلى خصلات شعرها المنفوش فى الماء . يحول بصره عنه ويغيب فى صمته . يهتف به الكبير أن يعزف شيئا على نايه . يجمد ويلتم على نفسه كالحجر . يصرخ فيه : يا أحمق . الحفلة تحتاج الناي ! يجلس على الأرض ويدفن رأسه بين كفيه . تقذفه يد بحصاة . ينتبه قليلا ثم يغرق فى غيبوبته . أتابع كل شيء كالمترج ، أهم لأقفز من الحفرة فتهدى القبضات كالمطارق على يدي . يعلو صوت الجوقة :

- تتمنى الموت ولكن لا ترضاه
- تشكو عبء وجودك لكن تحياه
- خفاش الحزن يعشعش بين ضلوعك
- لا الشعر يعزى القلب ولا العلم يجفف نهر دموعك
- العالم يرقص حولك والدنيا تضحك لك
- فلماذا تقبع فى الظلمة يضيئيك الضنك

تأكل خبز الأوهام ويأكلك الشك ؟

- نحن ضحاياك وجلادوك ونحن الآسر والمأسور .
- عشنا فى كهفك مغلوبين وخاصم أعيننا النور .
- ماذا يضنيك ؟ تكلم ! أفض بما يشقيك .
- الحب ؟ تسرب منك . الأمل ؟ تعثر فيك .
- لماذا ضيعت الحب أضعت الأب والأم وضاع بنوك .
- ميثوس منك .
- ميثوس منك .
- داؤك ميثوس منه ، جرحك لا حيلة فيه .

نجمك - لو تعلم - نحس ، دربك - لو تدري - تيه .

أخذوا يرفعون أصواتهم ويصفقون ، يتمايلون ويهللون . بدوا كالجياح على مائدة القيصر اللثيم ، يمدون أيديهم ويملاؤن أفواههم ويتلمظون ويتجشأون ويمصون الأصابع والأظافر المسنونة كالأنياب . بعد الضجة والضحك الصاخب تعبوا . كاد أحدهم أن يغرق فى النوم ، ثنأب ، أعدتهم الثؤباء ، فركوا الأعين ، مسحوا دمع الفرح من الجفنين . هب الكبير واقفا ، أدار ظهره الى وصاح : ماذا نفعل به ؟ ردوا فى صوت واحد : نهيل التراب عليه . أعجبهم القول فأخذوا يرددون كأنهم يشتركون فى مظهرة : نهيل التراب عليه . نهيل التراب عليه .

استدار الكبير نحوى . مد يده فقبض على رأسى . كانت دافئة من وهج الشمس ، نقشت فيها الريح جحورا وأخاديد . شدد قبضته الحديدية عليها حتى تأوهت : هذا الرأس ؟ قالوا فى صوت واحد : رأس هش ، رأس هش ! جذب الشعر الهائش نحوه وتخلله بأصابعه وعاد يصيح : هذا الرأس ! ردوا فى نفس واحد :

رأس هش . رأس هش .

عش لغراب البين ومخزن قش .

قلب عينيه فيهم باعجاب . عاد يسأل : حيرنا ، ماذا نفعل فيه ؟ صاحوا بحناجرهم كالنيران تردد كلمات نشيد محفوظ : لن يبرأ صاحبه أو يهنأ بالعيش ، حتى يقطع هذا الرأس ويدبح كالكبش - تهلل وجهه كمن جاءه الجواب المنتظر بعد صبر طويل : ماذا أيضا ؟ شق حناجرهم سيف صياح المسغيثين لاطفاء حريق : القوه لكلاّب الحى ارموه لسباع الوحش .

أسكتهم بإشارة من يده • التفت الى الصبي كما لو كان يعاتبه لانه
لم يرافق المنشدين باللحن المناسب • لزم الصبي صمته ومد يده محاولا
أن يلمس رأسى ثم سحبها كمن لسعته الجمر • وقف الكبير ومد ذراعيه
نحو السماء والأرض ، ثم خفضهما ووضع يده اليمنى على رأسى بينما كانت
يده اليسرى تتحرك كالعصا التى تقود فريق العازفين فى وقار وتشنى
كظل راقصة فى معبد :

صدمت عنه بلقيس وطردته من بهو العرش •

لو يلقى فى ظهر طريق ما اكترت بجثته نعش !

كانه نثر أمامهم كنزا • مدوا أفواههم المكتنزة باللحم الأحمر ،
فتحوها ، برزت منها الأسنان ، اهتزت أيديهم مع أرجلهم طربا ، صاحوا :
جزوه ليخرج منه الطيش ،

يذبح كالكبش ،

يذبح كالكبش !

مد الكبير ذراعه دون أن يلتفت نحوى • قبض على شعري فصرخت •
ضحك ورنث ضحكته عالية الصوت ، صاح كذئب يصرع شاة يغرز فيها
النباب ويلقمها حجر الموت :

رأس هش ! رأس هش !

٩ - الموت على باب اليمن وكسر المرأة :

أبدا لن أنظر ليلا فى مرآة ••

فقد وجدتنى واقفا على باب اليمن • شغلتنى طلعتة المجيدة الراسخة
عما حولى • رحت أتأمل الأثر البديع الذى أطفأ الزمن أنواره : عمودان
ضخمان يقفان على الجانبين كشجرتين عظيمتين غرستهما يد الماضى •
ضيقتن فى أعلاهما ، منحدرتين بميل لطيف الى أسفل ، كتمثال ملكة
بضمة بلا رأس ولا أذرع • تفتح ساقيهما الممتلئتين بذكريات التاريخ فتمر
منها مواكب غزاة ، وطغاة ، وأمواج حفاة وعراة • تبهنى صوت يهتف :
سيمر الموكب بعد قليل • ولكزنى صاحب الصوت فى صدرى ومد لى
حزمة ورق أخضر يقطف منه ويمضغ • التفت اليه ، هل هذا وجه بشرى
أم وجه جرادة ملتحية ؟ وعبرته العين الى وجوه أخرى متحلقة فى دائرة

متسعة ، نفس الوجوه الذابلة الصفراء ، نفس العيون الجاحظة المتعبة ، والأرجل الناحلة الحافية السمراء . وازدادت الحركة فى الميدان الصغير ، بشر وحمير وجمال ترتع حرة كأنها فى مهرجان يمتطى صهواتها شيوخ وقضاة وحراس . وطبول تدوى من بعيد وأصداء أبواق . **قلت لجارى :** اليوم يتم الاعدام ؟ انفتح فمه الساخر عن أسنان صفراء : وهل اليوم هو الجمعة ؟ **أسرعت أقول :** غدا الجمعة . فلماذا هذا الجمع الحاشد ؟ **افتقر فمه ووجهه الضاهر عن بسمة ماكرة :** غريب أنت ؟ قلت : انسان مثلك . وأوحى بالله . قال : لكنك من بلد آخر ؟ قلت : من دار الاسلام . المصحف واحد ، والهم كذلك واحد . بالله عليك . ماذا يجرى اليوم ؟ قال بعد أن اطمأن قليلا : غدا بعد صلاة الجمعة يقطع سيف الجبار رقاب الكفرة . أما اليوم فيلقى الجبار رعاياه . **سألت :** مجلس القضاء الأسبوعى ؟ تدخل جار : بل يعرض معجزة وكرامة . لم يترك لى وقتا للتعبير عن الدهشة . فقد لسعته ولسعتنى فى وقت واحد لطمة سوط مفاجئة من « عكفة » الامام . لقد أخذوا يقطعون الساحة الصغيرة وأيديهم تلوح بالسياط ، وتضرب بها الوجوه فتستقيم الصفوف وتشهق الصدور وتعلق العيون بالموكب المنتظر .

أخيرا ظهرت طلائعه وأخذت تقترب ، يتقدمها فرسان الامام وحراسه ، جراد آخر بلهى سوداء ، يزحف على أقدام حافية ، تبرق فى وجه الظهيرة عيونهم المحمرة وحناجرهم الحادة وسيوفهم الطويلة المدلاة من صدورهم ، وبنادقهم العتيقة المصوبة الى الصدور . كانوا يسرون على أقدامهم أو من فوق بغالهم وجمالهم فيهبون الحشود ويصيحون : الامام ! الامام ! ثم يتراجعون ويتحلقون حول محفة كبيرة محمولة فوق أعناق عبيد سود تتدلى ضفائير شعرهم الأجدع من جانبي رؤوسهم الصغيرة . وأخذت المحفة تتمايل حتى توسطت الدائرة المرصوفة كالسور الطيني . أرسلت عيني الى وجه الامام . مستدير أبيض ، تحوطه لحية اختلط فيها الشعر الأسود بالأبيض . والعينان متسعتان ينفذ منهما بريق كحد السيف . أزرار بيض بأزرار سوداء ، حوله حزام عريض أخضر يلعب فيه الزمرد والياقوت ويرقد فى جرابه خنجر ظهر مقبضه الفضى الموشى بالذهب .

تفرست العينان السوداوان الواسعتان فى الجموع . دوت الطبول والأبواق وصرخ العكفة : مولانا آمين . مولانا آمين : وطلع خلفه شيخ قصير فى ثياب فقيه أو قاضى الشرع : اليوم ترون كرامة الامام . هل توضأتُم أيها الناس ؟ تردد صوت واحد : نعم آمين ! رن صوت الفقيه : ستصلون وراء الامام . وتصلى معكم القطط والكلاب . خيم الصمت على الجموع . نظروا الى الفقيه وهو ينحن أمام الامام كأنه عابد يقدم البخور

للصنم المعبود • مد ذراعيه الى أحد الحراس الذى ناوله كلبا كبيرا كان يحمله على كتفيه • وضع الكلب خلف الامام الذى وقف وقفة الصلاة ورفع ذراعيه بالشهادة • صاح الفقيه : انظروا ! حتى الكلاب تأتم بسيدنا الامام • حتى الحيوان الأعجم يركع ويسجد وراءه • فحذار حذار !

سرت همهمة بين الناس • لكنهم كتموها وهم يبصرون الكلب يرفع ساقيه الأماميتين ويحاكى فعل الامام • رفع الجميع أذرعهم • دوت الشهادة كموج البحر • وانحنى الامام راکعا فرقع الكلب وراءه • وخفضت العيون المتعجبة أبصارها ومالت جذوعها راکعة • وسجد الامام فسجد الكلب • وخرت الجباه على الأرض كما خرت رأس الامام وكلبه الضخم • ونفدت صيحة الفقيه : كرامة الامام ! معجزة الامام !

اندفعت أشق الزحام حتى توسطت الساحة ، وقفت تحت المحفة العالية التى تتم عليها الميزلة • ارتعشت عيون العبيد واهتزت ضفائر شعرهم وأنا أتمنى : دجال ! دجال ! دجال • دجال !

ذعر الحرس ودبت فيهم الحركة • صلصلت السيوف ودوت السياط • لكن الدهول سمر أقدامهم فى الأرض • راح الصراخ يشق صدرى وحنجرتى : هذا صنم كافر • طاغوت شيطان فاجر • هل نعبد صنما أو نعبد رب الأكوان ؟ أو لم نتحرر بالاسلام ؟

قال الامام فى ههـ : وأنا سيف الاسلام ••

التف الحراس حولى • رفعوا البنادق العتيقة والسيوف الطويلة اللازمة وصوبوها الى صدرى ووجهى • أشار لهم الامام فتحولوا الى أصنام • ثم أشار الى لأقرب منه : شيطان كافر ؟ خرج الصوت اللاهت : بل متاك انس • لكننى أحيا فى ضوء الشمس • نفذ صوته الحاد فى أذنى • ونحن ؟ أموات نحن ؟ انطلق الصوت الهادر المشروح : أنت وهم ؟ تحيون ولكن فى الأكفان • فى كهف الماضى العفن المظلم كالديدان • بل أنتم لا شيء لا فى الحاضر أو فى الماضى • بل خارج كل زمان •

قال الامام وهو يمد نحوى فى أقصى سام : وأنا ؟ أين أكون ؟ صمت : أنت الصنم الطاغوت • أدخلت اليمن بكهف الصمت الملعون • وأقمت السور الطين • وغدا ينهدم السور ويندفع النور وتنهار سجون وسجون •

ضحك الامام وقال فى ثقة العارف : غريب أنت ؟ من أتباع الكافر ماركس والفاسق لينين ؟ أنا أعرفك وأعرفهم • طاشت ثورتكم يا مسكين • قلت فى هدوء : الثورة آتية والفجر قريب •

ضحك وقال : من أين ستأتى يا مجنون ؟ نحن هنا فى ظل المصحف
يحكمنا الشرع .

صحت فى الجموع : بل تحكم بالسيف وتقتل بالسيف .

قائل وهو يشير الى حراسه : أنت حكمت على نفسك . هيا يا حراس .
لا لا ! انتظروا . وسيحكم فيه هذا الكلب !

بإشارة من يده قفز الكلب من فوق المحفة على صدرى . جثمت على
ولفحتنى أنفاسه الحارة . انغرزت أسنانه فى لحمى وسال الدم من وجهى
وذراعى وساقى . صارعته وصارعنى . لو كان كلبا واحدا لقاومته وطرحته
أرضا وجثمت عليه وغرزت فيه أسناني . لكن كلابا أخرى هجمت على
وأخذت تنهش لحمى وتلعق دهمى . كلاب مسعورة من كل لون وجنس
وشكل . من أين جاءت ؟ هل أطلقها « العكفة » بعد أن دربها ؟ هل كانت
هى الأخرى تصلى وراء الامام ؟ وانهاالت على اللكمات والصفعات من كل
جانب . وانضمت الكلاب البشرية والجراد الملتحي الى المعركة . والجديع
يهتفون ويزغردون ويرقصون على جثمانى : غريب كافر . . كلب نائر . .
نحن ننفذ حكم الشرع . . نحن ننفذ حكم الشرع . .

لا أدري كيف خرج الصوت من جثتى الغارقة فى الدم والطين
والعذاب : حكم الشرع هو العدل . عودوا للرب الحق . . للرب الحاكم
بالمصحف لا بالسيف . نحوا الطاغوت الحاكم بالسيف . يقطر منه الدم
أنهارا منذ معاوية ويزيد والحجاج على الأعناق يرف ، نحوا السياف ونحوا
السيف

وأشار الامام فتنحت البنادق والسيوف والسياط . والثام البنيان
المرصوص من الجراد الملتحي فى دائرة كثيفة التفت حولى كأنها سور
صنعاء الطينى . ووجدتني وسط الدائرة لا بشر حولى ولا كلاب . جثة
وحيدة ما زالت تتردد فيها الأنفاس . وعندما فتحت عيني لم أجد أحدا
حولى . أين ذهب الجميع ؟ بماذا حكم الجبار ؟ من سينفذ حكمه ؟ ومتى
يعمل فى السيف ؟ تحسست رقبتى وقلت لنفسي : انتظرني الجبار الى
الغد . بعد صلاة الجمعة يقطعك السيف . وأفقت على دقائق رهيبة على
الباب . قمت متثاقلا وفتحت الباب . جراداة ملتحية تقف أمامى ، بين
يديها سلاسل وأغلال تصلصل بالموت القادم فى الليل . نحن الحراس !
أرسلنا الجبار اليك . أمر وأمر الجبار مطاع . أن نضع الأغلال بساقيك
وكفيك . . هيا هيا . . كف غريب كافر . . هيا هيا . . ساق الكلب
النائر . . وغدا نقطع رقبة زنديق فاجر . . .

قبضت يد على يدى • حاولت يد أخرى أن تضع الغل فى ساقى •
انتفضت صارخا : انتظروا أن أصلح شأنى • وأردت أن أتجه نحو المرأة
المثبتة أمام فراشى المضطرب الدافئ • أمسكنى الحارسان ولقا ذراعيهما
حولى كأنهما شبكة حديدية تلتف حول سمكة هاربة • صاح أحدهما :
ويلك ! لا تنظر ليلا فى المرأة ! ورفع الآخر الأغلال الثقيلة وأطلقتها على
المرأة فتحطمت وتناثرت شظايا ••

ثم صاح وهو يقبض على يدى ويحكم السلاسل حولهما : أو لم نتمك
عن هذا ؟ لا تنظر أبدا فى مرآة ! لا تنظر أبدا فى مرآة •••



١٠ - وجه المحبوبة والسياف وتنفيذ الاعدام :

فى ساحة الاعدام - الشمس فى الأفق قرص ذابل الاحمرار ، تنور
تخبو فيه النار ، أوراق الشجرة تكاد تلامس رأسى ، جذعها الخشن الناتئ
يحك ظهرى ، يوجهه ، يوشك أن يدميه - أفتح عيني المحترقة بلهب السهد ،
أنظر حولى وأمامى ، ألتفت للخلف - وجوه •• وجوه •• أقنعة سوداء
وشيلان بيضاء ، وعباءات وعمامات ، أصوات تختلط على سمعى ، همس
وصياح ، دمدمة وأنين • تفتح عيناى ، تفتح أذناى كأبواق تنفض عنها
الكف تراب سنين ، من يتزاحم حولى ، لم يتجمع هذا الحشد وينظر فى ،
الشمس تميل الى الغرب ، عربتها المحمرة تتوارى خلف الجدران - مكتب
البريد أمامى ، أمامه السور الحديدى المنخفض وبابه الصغير الذى طالما
دفعته بىدى ، خلفى ثلاث قباب بيضاء مدورة كبطون الحمام - وعلى خطوات
منى حجر صلد ، يرتفع على كتف منصة ، كالمذبح فى قلب المعبد ، الحجر
نظيف لامع ، والمنصة تنحدر بانفراج نحو الأرض • والعشب الطرى يبرز
من الأرض وتلون أطرافه أشعة صفراء ذابلة ، تتناثر فيه نقر الماء وآثار
الأقدام على الطين ، تلسعنى ذبابة ، أريد أن أرفع يدى فأكتشف القيد
فيهما ، سلسلة حديد صدئ تربطها باليد الأخرى ، تؤلمنى قدمى ،
تحز الجلد والعظم سلسلة أخرى أكبر منها : لو حاولت القفز سأبدو
كغراب يحجل ، لن أجنئ الا سخرية الطير المتربص بى ••

لكزتنى فى جنبى أصابع خشنة كالخوافز : تبسم وتضحك وتكلم
نفسك ؟ أو لا تشعر بالهيبة ؟!

أرفع وجهى كى أعرف مصدر هذا الصوت • يختلط على الأهر •
ست وجوه تحديق بى ، ستة أجسام كجذوع النخل • أتفرس فيها ،
أنكرها ، أتعرف فيها الأعين والجبهة والحاجب والأنف : نسخ واحدة من

صنم واحد • رأيته من قبل - لكن الملبس يتغير ، سترات بيضاء ، حزام
بنى حول الخصر ، يبرز منه مقبض خنجر • المقبض من عاج ، يتوسطه
فص أحمر ذهبي - السروال ملون ، تجرى فيه خطوط حمراء وبيضاء
وزرقاء ، في القدمين صنادل من جلد أو مطاط ، تبدو منها الأصابع
والأظافر المغبرة • ستة وجوه ، ست لحى سوداء ، ست عيون غائرة
تذكرني بعيون الأسرى من بابل نقشت فوق جدار الكرنك • تلمس كف
شعري وتشده • يتردد صوت واحد : رأس هش ! رأس هش !

الآن تذكرت ••

- هل أنت على استعداد ؟

يجيب صوت من خلفي : طبعاً يا سادة • ألفت اليه • يجلس متربعا
على العشب ، يمضغ ورقاً أخضر • وجنته اليسرى منتفخة •

- فات أوان التنفيذ ••

- ننتظر القاضي ورسولا من عند الجبار ••

تلمع عيناه بذلكاء فطري • فك مفتر عن بسمة طفل أو عذراء • شعر
اللحية يبرز في غير نظام • الأنف قوى حاد • والوجه كججر أثرى ناتئ •
ينظر في خجل للأرض - كل عيون الناس تحديق فيه وتنتظره - يتدلى
من الحزام الملتف حول وسطه سيف طويل في جراب ، أراحه على الأرض
وراح يمضغ بغير اكتراث •

طيون هؤلاء الناس • طيبون وأصلاء • صامتون أيضاً ، يتركون
لك حرية البكاء • أيديهم الخشنة السمراء تشغلهم عن سقطات اللسان •
الأنامل النجيلية كآسراب النمل ، تتحرك ، تمتد وتقبض ، تخزن وتفكر ،
تتكلم من غير كلام • طيبة هذى البلدة ، والرب غفور - يتجول فيها شبح
الزمن الميت ، يتشأب يتنفس يزفر أبخرة من مسك وعطور ، في كل مساء
يلمع فوق مآذنها سيف يحمله سيف ، يهتف يتأوه ويرف • ويهب حريق
فوق مآذنها في منتصف الليل وعند الفجر ، تعلق السنة اللهب تسبح ،
تدعو بالخير وتذمر بالويل ، تطوقها جبال سوداء كظهور مرده شاذخين ،
أخذوا يهددهونها على بحور الذاكرة والليل والشعر • مجهولاً سرت اليهم ،
أسعى في الطرقات غريباً ، أقف بقلب الساحة مجهولاً ينظر فيه مجهولون
(آه يا مدن الضجة والأحزان ، حاصرني قيظ جحيمك ، زحف على الطوفان ،
تخнал القردة فيك وتزهو بفحولتها الخصيان ، أهرب منك اليك وعن ظلي
التائه أبحث بين النيران ••)

أسمع هرجاً وسط الجمهور • يبكي طفل حط على عينيه جيش

ذباب • وتنوح عجوز طيبة الوجه انكسرت في جبهتها سفن الأيام ووقف الموت على الباب • يهتف شاب : عاش العدل ! نصر الله الاسلام ! تضطرب الأيدي الخشنة والأذرع والأجسام ، تقترب من السور الشائك ، تسرى الهمهمة كشبح يجرى في الليل الحالك • يقف حمار كان يتجول وحيدا ، يمد الرأس والأنف ، يحك رأسه بالسور وينهق ، تتسلل عنزة خلال الصفوف ويتفرس في وجهها السامى المستطيل باستغراب • وصل القاضي ورسول الجبار - ترك السياف القات ووقف على قدميه • ابتسم وخبط على صدره العارى وتحسس مقبض سيفه • انحنت جذوع الشجر السوداء وقدموا أنفسهم : نحن تتبعنا أثره ، مجهول حاول أن يزرع في الأرض الطيبة بذور الفتنة ، راقبناه وعرفنا سره ، وذهبنا للجبار وأبلغناه أمره - ها هو مربوط في جذع الشجرة •

اقترب القاضي منى • ووقف رسول الجبار بجانبه يحمل أوراكا ملفوفة • نظر القاضي في وجهي ، لمست كفاه كفتي ، تمتم وتنحج ، حمد الله وسبح باسمه • كانت شفاته تتحركان ولا يخرج منها غير حروف مقطوعة الرؤوس • لم أفهم شيئا مما قال • سقطت في أذني بعض الكلمات : تلك حدود الله ، فاحكم بالعدل ، تقطع أيديهم • أرجلهم • • كان وجهه كوجه فار ، على عينيه نظارة بنية سميقة تستند على أرنبة أنفه ، فوق رأسه عمامة بيضاء ملفوفة بعناية ، على كتفه شال حريري مذهب الأطراف ، حول وسطه حزام عريض من الصوف تتدلى منه مسبحة سوداء طويلة • في عينيه اصرار تكسر حدته الرحمة والعطف • أما الرسول فكان يقف وراءه ويده على خنجره اللامع ، بينما تدير اليد الأخرى اللقافة الصفراء المربوطة بشريط حريري أحمر • وجهه عريض بارز الوجنتان ، مكنتز من أثر النعمة ، وعيناه واسعتان تلمع فيهما حدقتان شديدتا السواد يحيط بهذا البياض • ما أشبههما بعيني الجبار ! لم أرهما الا في الصور والكتب القديمة ، لكنهما أرقا ليالي ونفذا كالبحر بلججى : عينا كعيني ثور هائج ، واسعتان مخيفتان كبئر مسموم ، معلقتان كدوائر النار في السحب ، في الهواء ، في أوراق الأشجار ، شرهما المتقد يضئ فوق قمم الجبال • يلتصق بأحجار الشوارع ، يتوهج في البيوت وعلى الجدران ، تتسلط على القرية في كل وقت وكل مكان ، عينا نسر شرس منهوم ، رفر فوق سطوح المدن ، تدلى منه سيف يقطر بالدم ، يرعب حتى النمل الراقد في الشقوق والجحور • كم تلمع هاتان العينان فيسيل منهما طوفان الليل والخوف الأصم • ارتعدت ، جرفتني قشعريرة الحمى ، وبنت كفتي كف القاضي الثانية : هدى ، روعك يا ولدى • فالعدل سيأخذ مجراه •

التفت الى الحراس الستة - اهتز الصنم الأكبر وتكلم :

- مجهول دلف الى الفندق في وقت مجهول .
- سأل القاضي ، لمعت عينا السيف : ماذا يفعل ؟
- لا نعلم . يهذى ، يهمس ، يحلم .
- صحت غاضبا : هل حرمت الأحلام ؟!
- هز الصنم رأسه وانفرجت شفتاه : بالطبع . الأحلام الفاسدة بذور الفتنة .
- استعاذ القاضي بالله : المؤمن لا يحلم . والعقل لا يفشى أبدا سر الحلم .
- تقدم رسول الجبار وقال : عين الجبار على الكفرة - لا تخطيء منهم شعرة .
- بدأ كبير الأصنام يشرح القضية ويلقي التهمة : راقبناه مع الأيام . وصبرنا حتى جاوز سن الخمسين . وفحصنا الأحلام ودققنا في الأوهام . ليتكم كنتم معنا حين دخلنا في رأس القاتل ورأينا الخنجر . ورأينا بركان الثورة يتفجر ، طوفان الغضب يدمر - ورأينا مدن الأحلام . يمشى فيها ناس من نوع آخر ، قيم وشرائع أخرى ، أفكار وعلوم تشعل نارا كبرى .
- استعاذت الأصنام الخمسة من النار . تتمم القاضي وهو يقترب مني : ماذا تفعل يا ولدي ؟ أتعلم ؟
- بل أتعلم . لا أزعج أنى أعلم . حظى من زاد العلم قليل وحصاد العمر ضئيل .
- حياك الله . تكلم . ماذا كنت تعلم ؟
- أن الانسان كريم حر . الله استخلفه فوق الأرض ، لينظر . يسأل . يعمل يحتج ويرفض ويفكر .
- نعم بالله . وتفكروا ، وانظروا ، وفي أنفسكم .
- اعترض أحد الأصنام قائلا : يا مولانا لا تغتر بقوله .
- أسكنه القاضي بإشارة من يده : هذا ما حث عليه الشرع .
- تدخل صنم آخر : اسألنا نحن به أدري - طفنا معه في أبهاء الحلم ، وسمعنا همس الشفتين خلال النوم ، ورأينا أسراب الطير الغاضب تخرج من كبده .

صحت : من كبدى ٠٠٠ هل أنتم ؟
قالوا بصوت البجوة : نحن ٠٠ تذكرت ؟ أو لم تسبح يا زولنا
ما قال الآن ؟

سأل القاضي : ماذا قال ؟

قال أحدهم : يرفض ٠٠

قال الآخر : يندهش ويحتج ويرفض ٠٠
قلت : شئ لا أخجل منه . ليس بإنسان من لا يحتج ويصرخ لا .
قال الصنم مؤكدا : هذا ثابت فى الأحلام ٠٠
صحت بصوت مخنوق : أحلام لا تؤذى نملة ٠٠

هتف الصنم الأكبر الذى لم يستطع أن يخفى فرحه : والأحلام تفجر
ثورة ٠٠ وتحرك سيف الكفر بأيدي الكفرة ٠٠٠

استعاذ القاضي من الفتنة والكفر ٠٠ تحسس السياف جراب سيفه
وعبثت يد الرسول بمقبض خنجره اللامع . تحفزت العيون وساد
السكون .

قال القاضي : أين هويتك يا ولدى ؟

تقدم منه الرسول وأحنى رأسه . مد يده فى صدره وأخرج حافظة
بنية داكنة . أخرج منها بعض الأوراق وقدمها له . تفحصها القاضي ثم
هرز رأسه وقال :

— بيضاء ٠٠

— لا اسم ولا عنوان ٠٠ لا أتبين الا كلمات : كن اياك ٠٠

أكد الصنم الأكبر وهو يهز ذراعه فى الهواء : ألم تقل لكم ؟ مجهول
يحمل رأسا مجهولا — يمتنع خبز الأحلام المجهولة ، تخرج منه طيور
الأحلام المجهولة . هذا خطر الأخطار ، حمدا لله فلم تغمض عين الجبار ،
عن هذا الرأس الهش الثرثار ٠٠

وضع يده على رأسى وشد الشعر حتى صرخت . لمعت عين السياف
وطافت بالرأس والرقبة . ضغطت وجوه الحشد على السلك الشائك وعلت
الهمهمة . خفض القاضي رأسه وارتعشت جفونه وجرت أصابعه قليلا على
المسبحة قبل أن يقول : مجهول لا تعرف عنه هوية . اقرأ يا ولدى نص
التهمة . تلك حدود الله وهذا أمر الجبار ٠٠

انطلقت صيحة من صفوف الحشد الواقف عند السور . تماوج الزحام وانشق عن امرأة تصرخ وتشير : انتظروا .. انتظروا . لوح القاضي بذراعه ففتح الحراس سياج السور الصغير . اندفعت في ثيابها السوداء ، وموجة شعر أسود ترف حول وجهها . تسلفت درجات المنصة الحجرية ، تقدمت من الشجرة التي ربطوني بها . وتبينت الوجه . نفس بريق العينين ، والوجه الشاحب كالقرص مدور ، آه يا قمرى الأوحى فى ليل العمر ..

سأل القاضي : هل تعرف صاحبة الوجه ؟

قلت وأنا أثبت عيني عليه : حلمى الأكبر - يسعى الانسان وينسى ، وينام ويحلم ، لكن لا ينسى الحلم الأول ..

غضب القاضي ، دمدت الجذوع الستة ، اهتزت أغصان الأذرع واضطربت أوراق الأيدي . هتفت صائحة : يا قاضى العدل . أنا أعرفه . أستحلفكم بالله دعوه .

ندت عن الجذوع السوداء ضحكة خشنة . ابتسم القاضي : ندعه ؟ قد صدر الحكم . أمر الجبار وان الأمر أهم . اقرأ يا ولدى التهمة ..

بدأ الصوت يرتل البنود المدونة على اللقافة الصفراء . ثبت كياني عليها فلم أصغ لما يقول . صدمت أذنى كلمات المجهول ، الأحلام ، الثورة ، أشواك الفتنة . نادتها روى : أنت ؟ تأتين الى ؟ وأرى وجهك وأكلمك وأسمع منك؟ الآن أموت قرير العين . حلمى الأوحى يتحقق فتلذهب كل الأحلام ، انى الآن أكفر عنه أمامك ، هل تكفيك الآلام ؟ ما زلت بآخر أنفاسى أذكر تلك الأيام ..

- وأنا أذكرها . كنا جيران ..

- كنت أعيش ، أفكر ، أتنفس لك . كالصوفى الزاهد لا أقصد الا وجهك . اقرأ ما أقرأ ، أكتب كتباً عنك ولك .. حين تمرين وألمح وجهك بالصدفة ، ينفذ كالقمر الناصع من نافذة الشرفة ، وتهلل سفنى الغارقة على صخر الوحشة ، أفرح كالطير المقرور وتعرفونى الرعشة ، وجد الطائر عشه . أبدا لم تكثرنى بى ، ما صعدت النظر الى ، ما أحسست بيتى القلب ، حين أتيت وزرت الأهل ، سلمت عليهم ما سلمت ، قالوا ، قلت ، وأنت لزممت الصمت . كنت أحبك أنت وغيرك ما أحببت ، غيرك ما أحببت ، غابت عيني وتحيرت ، مر جواد اللحظة وترددت ، لم يرجع

أبدا ، فات الوقت ، فات الوقت • ركضت سنوات العمر وشرقت وغربت ،
طوفت بمدن البشر ، عرفت ، جهلت ، نسيت ، وغرقت ببحر الائم طفوت ،
وتطهرت وعشت وامت • غيرك ما أحببت • تعبر أيامي المقتولة ، أصحو ،
أعمل ، أضحك ، أحزن ، وأنام ، لا أبصر الا وجهك ، الا عينيك ، ويقتل
يوم يتبعه يوم ، تقتل أعوام • وجواد اللحظة مر ولن ترجعه الأحلام •
لكن أحيانا أحلم أنك جنبي ، فأكلمك وأضحك معك ، وأضحك من أوهامي ،
وأمد يدي باللقمة نحوك ، أغلق شباكى حتى لا تؤذيك الريح ، أشكو
الأيام اليك ، وسخرة أكل العيش ، وأشد غطاء الفرش عليك ، أقبل وجهك
قبل النوم ، أمر بيدك على أوجاع القلب وأسحبها فوق الصدر ، وأقبلها ،
وأوسدها رأسى لتنام • أنتبه لنفسى ، أعرف انى كجنين فى بطن الأم ،
يسألنى عقلى : لم تتناول هذا السم ، لم تستسلم للأفكار الثابتة وعقدة
أوديب وسائر أمراض الوهم ؟ ما أغبى العقل المغرور وما أغبى الطب ،
يتوقف عند الظاهر لا يسبر غور القلب • أحيأ كالناس وتحين ككل
الناس ، وندور ونأكل نسخط نرضى نلقى الأولاد الى العالم نشكو ظلم
الزوج • جحود الأبناء • الأهل • الأصحاب • ونسعى فى أسواق
الرزق ، ولكن هل ينطقى اللحم ؟ اللحم الأول محفور فى الجلد اللحم
العظم •

— هل تحلم أبدا ؟ السيف أمامك والسيف يهدد بالقتل ••

— هل ينجو الانسان من الظل ؟

— قراوا التهمة •• والتفوا حولك ليفكوا القيد ••

— يكفينى أنظر فى عينيك ••

— لم جئت ومن جعلك تدخل من هذا الباب ؟

— لما أغلقت بوجهى الباب ، سدت فى وجهى الأبواب ، ووقفت على
باب العالم ، أطرق ، لايفتح لى ، تنكرنى السدة والاعتاب ، ويطردنى
الحجاب ••

— العين بعين ، والأذن بأذن ، هذا هو نص الحد ••

— لا •• لا داع للأعين والآذان ••

دوى الصوت فى أذنى • استطرد بعد قليل : نحن ننفذ نص الحكم
•• هيا يا سيف • وضع ذراعيه حولى ، لفحتنى أنفاسه الثقيلة • فك
القيد عن اليدين ، وانحنى ليفك الأغلال عن القدمين • هتفت حبيبتى :
افتح عينيك ! ••

قلت : القصر ؟ هل هذا ..

ضحك وضرب الكتف وقال : سرت بنومك حتى جئت اليه ، سافرت
وعدت من الأسفار ، لتبكي جنب جدار ..

جففت دمة جرت على خدى ونفدت فى شفتى : كلب مكتئب يحتضر
وحيدا بجوار جدار .. مد يديه فأخذنى من يدى : تحلم أبدا ، لا تعرف
حق الجار على الجار .. ينتظرونك ..

سألت وأنا أنفض على ساقى وأنفض الغبار عن رأسى وصدرى
وسترتى المبللة بجبات الندى : ينتظرون ؟ من ؟

ضحك وقال : جيرانك ، فى بهو العرش هناك ..

ـ جيرانى .. بهو العرش ؟

ضحك ومد ذراعه فتأبطنى من ذراعى : هل ينسى الجار الجار ؟
وأنا أيضا ..

قلت وأنا أضغط على يده : لا لا .. لكنى اشتقت لنايك ، رحت
أفتش عن ظلك فى الساحة ، قرب الشجرة ..

سأل : ما هذا ؟ عدت لأحلاك ؟ انى أنتظرك منذ الفجر .. زعموا
انك أفسدت حياتى .. قلت غريب مجبول ـ غضب مدير الفندق ، هدد
وتوعد : كيف تسرب ؟ ليس لديه هوية .. أين ذهب ؟

ـ طفت بمدن الناس وجبت متاهات القلب ، وأشار العقل فسرت
على الدرب .. ها أنت ترانى ألفظ أنفاسى بجوار جدار وكأنى ..

غضب وصاح : لا تلفظها .. يكفى تعذيبه لنفسه !

ضئلت على يده : معك الحق .. أقسى من عذب نفسى هو نفسى ..
أقبل على البوابة يفتحها .. صرت ضلوعها الحديدية الصلدة وتساقط
عنها التراب .. فنظر إلى بئس : مفتاح السحر معى ، أنظر ! وضع الناي
فى تقب القفل الضخم .. قفل صلب مشرب .. أهمله الزمن الأعمى فتراكم
عليه نسيج العناكب .. هذفت : تفتحه بالناى ؟

ابتسمت عيناها وقال وهو يمالج القفل العجوز : سحر .. سحر ..
أنسيت كلام السيد ؟

قلت : الناي يروض حتى الوحش ..

ضحك وقال وهو يخرج القفل من المزلج ويدفع الباب : والظابة
فى الدار ، يسلم فى ظلمتها العرش ـ أدخل .. فوحش أخرى تنتظر
منالك ..

خطوت الى الداخل ووضعت قدمي على العتبة • قلت قبل أن أنزل
من على الدرج : كما تنتظر النار القش ! ٠٠

نفس القاعة والبهو • العرش يشع في آخرها كهودج ذهبي وسط
السحاب الأسود • أشباح تتجول وظلال تتحرك في صمت - أتقدم في
اتجاه العرش كأنني أتزاحم في موكب أرواح معتمة تنتظر القارب والملاح
الشيخ • الجماجم كما هي تحت قدمي الكرسي كبقايا حيوانات راکعة في
ذل ، والجالس فوق العرش استسلم للنوم • افتقد بريق عينيه الواسعتين
الباردتين ، أنظر في شعره الأشقر الجميل المنسدل على أذنيه ، أطلع
للجبهة العريضة كلوح مصقول من الرخام وهي مائلة على مسند الكرسي •
تعب الرأس وغربت فيه الشمس ! جاءت أجيال أخرى ورؤوس أخرى ،
وانحدر القرص المتوهج في أحضان الظل ، لا يبقى ملك فوق العرش
ولا يسلم نجم من زحف الليل ٠٠٠ أتلفت حولي ، أين الكهنة والسدنة
في هذا المعبد ؟ كانوا يقفون حواليه ، ينتظرون الأمر من الرب الذي ابتلع
نفسه وابتلعهم ٠٠ ها هم يجلسون في صمت ، لولا بصيص شعاع ينفذ
من السقف والنوافذ التي أسدلت عليها ستائر القطيفة الداكنة لتعثرت
فيهم • أغمضوا عيونهم وناموا مفتوحى الفم ٠٠ هل ينتظرون من ينفخ
نسمة ريح أو يركن ، أو عاصفة تحييمهم ، تنفض عنهم كفن النسيان ؟
وما زالت الشجرة كما هي ، ممتدة الفصون ، جذعها المليء بالأورام والنتوء
كجسد مجذور تمه جذعها في الأرض وتتشبث بالطين على الرغم من كل
شيء ٠٠ تملكني الخوف - أخشى أن أرى العقرب يظهر فجأة وينبش أصابع
قدمي - كان قد تسلل أمام عيني الى أقدام العرش وغاب بين الجماجم ،
من يدري ان كانت هناك عقارب أخرى في انتظاري ؟ أصبح من الذعر :
أنت ! لم لا أسمع صوتك ؟ ينساب الصوت بلطف : أنا لا أتخلى عنك ٠٠
أسأل في ذعر : اني أتعثر في هذا الليل • لم لا تشعل شمعة لحنك ؟
يتسلل صوت ينفذ في الجدران : لا يظهر نجمي الآن ، دورى لم يقبل بعد •

أصرخ في أحجار الحكماء على الصفيين : يا حكماء ! ٠٠

لا يتحرك حجر ، لا يخفق صوت • أعود فأصرخ على أشرخ جدران
الصمت ! يا حكماء الزمن الغابر ، عذرا ، يا أنجم هذا الزمن الحاضر ،
يا حكاما في مملكة الأوهام ، اصغوا لنداء رعييتكم ٠٠

يتنأب أحد الأحجار • يفرك عينيه وينفخ في وجهي كالاعصار :
من ؟؟

أصيح : شبح يستنجد بالأشباح !

يلدم غاضبا : هل تجلد حتى الأرواح ؟

هتفت محاولا أن أهده : انى منكم ، أهرب منكم واليكم ..

سأل فى ضيق : ماذا تطلب ؟ لم تنشلنا من بحر النوم ؟ تصرخ
وتثرثر وتهيل علينا اللوم ؟ لا تزعجنا ، أرجوك ولا تتبخر بين عمالقة
العالم كالقزم !

قلت أكثر عن ذنوبى : لفظتنى الأبواب فجئت اليكم أتمسح بالأعتاب،
نبذتنى المدن الحجرية لا جيران ولا أحباب . قالوا ليس لديه هوية .
لا اسم ولا عنوان ولا ألقاب ..

قال : ومتى تعلم أن الفكر غريب يخطو بين الأغراب ؟ يحيا فى زمن
لا يتقيد بزمان ، يسكن بين الناس ولكن لا يتقيد بمكان . يرسم وجه
زمان لم يولد بعد ، يهدى ويحرر من أسر المهمل وسجن اللحد . يتلمس
خلف رداء الحاضر نبض الأبد الممتد ..

قلت فرحا : رأيت ؟ أنا أيضا أسمع هذا النبض وأنظر فى هذا
البعد . ونهاية كل الأشياء أراها خلف بدايتها ، فأرى العظم وراء اللحم ،
والكفن الأبيض فى ثوب العرس . أنا أيضا رحلت أحلق فى عين الموت
وأتحداه ، يأتى أو لا يأتى لن أخشاه .. حاولت ..

قال متدمرا وهو يتثأب : ماذا حاولت ؟

قلت منهفقا لأسرق انتباهه : حاولت على قدر الجهد ، أن أبعثكم
أحياء ، وأذوب نفسى فيكم أعجنكم بدماء القلب .

تحرك حجر آخر . مد ذراعيه الى الأمام والوراء ووضع يده على فمه
ليمنع تشاؤبه أو ضحكته العالية . قال بسخرية مرة : حاولت .. وحارلت ..
لم تحيا أبدا فى الوهم ؟ لم تقفز من قمة حلم لتغوص بهوة حلم ؟
عش يومك يا ولدى ..

قلت محتدا : من قال بأنى لا أحياء ؟ انى أنظر ..

قال بصوت مملود يتحشج من أثر النوم : خلف رداء الظاهر
والحاضر !؟ وهم .. وهم .. من بؤرة هذا الحاضر تبصر ماضى الأزمان ،
وبعين الظاهر تجد اللب الكامن فى الأشياء وفى الأبدان ، وعلى مصباح
الحاضر تهدى للدرب الصاعد فى أحشاء الأيام .. أوام .. أوام ..
عض بأسنانك فاكهة الحاضر ! ..

قلت كائنى أعاتبه : من لا يحمل تجربة الزمن الغابر ، لن يدرك معنى الحاضر – هاأنا أحمل فوق الكتفين جبال الأجيال ، وأوجه وجهى للخلف وأستقبل غرر الآمال . من لا يشرب خمر الآباء فلن تسكره كأس الأبناء ، من لا يأكل زاد الآلاف من الأعوام ، لن يتذوق خبز اليوم الراهن أو ما يأتى من أيام ..

تلوى صوته وتمطى كسلحفاة هرمة : حفنة كلمات من مقبرة الأهوات . أد الواجب نحو اللحظة ، وتعلم مما فات . لم تجزع من شبح الآتى ؟ ما هو آت آت ..

قلت متعصرا : هأنت تردد كلمائى !! فى القطرة سر البحر ، فى اللحظة سر الأبد الهادر كالنهر .. فيها الجنة ان شئت وفيها النار ..

تثاءب بصوت مرتفع . انبعث منه أنين كمواء قط عجوز يبعد اليد التى تبث بشاربه ولحيته وتطرد عنه النوم : اذهب يا ولدى ، عد من حيث أتيت ، وترفق بظلال عبرت وعظام .. اذهب . اذهب . أكمل سمرك فى مادبة الأبد ونادم كأس الأحلام ..

قلت أنشدته كلمة ، كاشتتاذ يريق الدمع وماء الوجه ليأخذ من كف بخيل لقوة : يا أرباب الحكمة قولوا كلمة ، مصباح الحكمة صار يشع الظلمة ، حاولت أن أكلدكم ، أنتشل قواربكم ، أنشر اشعة خواطركم فى وجه الريح العاصف بالنقمة ، أخلع عنكم كفن النسيان وأستحلفكم بالانسان ، أجعل منكم شاهد صدق فوق الزمن الطافع بالبهتان . معذرة ، فاض القلب بما يحمل فانطلق لسائى ..

جاءنى صوته المتثائب الذى يقول آخر ما عنده ليمنح كل كلام : نحن جسور يا ولدى ..

أسرعت بالرد قبل أن يسقط فى حفرة نومه : أنا أيضا جسر تعبوه الأقدام ، بعد قليل ينسى أو تطويه الاحزان .

قال فى حميم كبريق السيف : فابن الجسر بنفسك .. ولكل زمان جسر نان .. وانس المطلق لا تبيت منه وسلك زحام الفسادين .. القانى ..

سألت فى حماسة : أولا يبقى شيء ؟ هل الانسان منجرد انسان ؟

قال فى حماسة : بل يبقى آخر فصل فى القصة : لن يبقى الا من حول

نهر حياة الانسان ووقف بوجه الظلم الزاحف كالطوفان . أما التجريد ..

سألت : التجريد ؟

قال : حاذر سم العقرب ..

سألت بلهفة وأنا أحرك قدمي في كل انجاء خشية أن يكون العقرب قريباً مني . لم يتركني في ارتباكى فقال : يلدغ صاحبه فيعيش ويمشي بين الناس كميت في الأكفان – لدغ العقرب لايشفى منه الا سم العقرب ..

أبتلهت اليه أن يفسر كلامه : ماذا تعني يامولاي ؟

قال وهو يسدل الستار ويسحب الغطاء : أعني ماقلت . عانق جسد الواقع ، عض الحاضر بالاسنان ! ..

سكت الصوت . على الشعاع الذابل في المساء ، المتسلل في حياة من السقف والنوافذ مع آخر أنفاس الشفق الوردية رأيتهم هناك ، متراصين كالتماثيل التي تحركت ثم سكنت ، ملتحمين كأنهم جدار قلعة عتيقة في وجه الحصار . حياة متعبة حفر عليها الزمن أخاديه ، شعور مسدلة ، ووجوه كالأقنعة الراقدة في انتظار المهرجان ، يشع الجمال الحزين من بعضها كأنوار فنار وسط أمواج الليل والبحر ، وتطل القنطرة من بعضها الآخر كلغات الشيوخوخة ، بعضها مستسلم راض ، وبعضها ساخط مزوم الشفتين ، حرص قبيل الموت على أن ينقش آخر حرف في لغة السخط على هذا العالم . رحت أملاً عيني منهم . سنين أضعتها مع هذا ، وشهوراً في صجبة ذاك . أما الجالس غير بعيد منه فما زلت أمني النفس لعل أعرفه وأحاوره وأزور الدار ، والآخر في الصنف الثاني ، والثالث والرابع والخامس .. لكن هل يتسع الصدر ؟ لا تمد عذاري القدر الساخر في خيط العمر !

١٣ – صوت الأم ووجه الأم :

هبت عاصفة لا أدرى من أين . ارتجت النوافذ والستائر وخشخشست الجماجم تحت العرش . سقطت أوراق فوق الأرض . وارتجف القلب . كانت الشجرة العجوز قد اهتزت وترنحت ، واستسلمت الأغصان المتدلية كأذرع الحاشعين في الصلاة لهبات الريح ، ترنحت رؤوسها بعنف ،

بكائيات – ١١٣

أخذت تقاوم في اصرار المهزوم ، وتناثرت الأوراق على جانبي العرش .
 فوق رؤوس الحكماء . أوراق خريف صفراء . تقدمت وخطوت بضغ
 خطوات نحوها . انحنيت وأخذت أجمعها في بقعة واحدة . ربى ! لم
 ترتجف يداى كائى ألمس أشلاء متمزقة من جثمان ؟ لم تسر الرعدة من
 كفى لذراعى المصدر وتنفذ فى القلب فيخفق كالمجنون ؟ تذكرت الحشرات
 التى تبتر أعضاء من جسمها فتتركها وتمضى . . هل تلتفت وراءها
 لتتحسسها وتدقق فيها ، هل تحاول أن تعيدها لمكانها أم تشمها وتلعب
 بها ؟ وبماذا تشعر أم تنظر فى وجوه أولادها الذين يموتون أمام عينيها ؟
 هل خلقت لغة تستوعب هذا الموقف وتعبر عن هذا الاحساس ؟ أخذ
 المصدر يرتج كباب يطرقه الزوار المثلثون فى الليل ، مرت أصابعى على
 الأوراق تتحسس ملمسها ، تتذوقها وتشمها وتضعها على الأذن ، كأنها
 قواقع تفشى سر البحر وتهمس بنجوى الأمواج . وصل الشلال الى
 حنجرتى ، تسلق أحبال الرقبة ، ثم تفجر وتناثر من عيني . بللت
 الدمعات خدود الأوراق ، انسأب بكاء النأى من الجدران . هذا تعب
 العمر . ورق مصفر . . ورق مصفر . ثمر مر . ثمر مر . كنت كائى
 المحكوم عليه بأن ينضج ماء من بئر ليصب ببئر . لا البئر امتلاً ولا انطقاً
 الظماً الحارق كالجر . تعب العمر . تعب العمر . تبدو الأوراق - الكلمات
 كأسراب النمل الخارج من جحر . تشعر بالزلزلة القادمة على نور الفجر .
 فتعاف جحور الكلمة وكهوف الشعر . وتزور كهوف الفقراء وتلسعهم
 بالسر . وتفتش عن مأواها فى بيت العمل الحر ! تعب العمر . .

– تتعب وحدك . تبكى وحدك . وتنام كما ودعتك وحدك . كجنين
 فى جوف الرحم فلا تتحرك . .

رسول الصوت يبارك سمعى كحنان النأى . أتوقف . أنشغل
 بتقليب الأوراق ، أتذكر وأفكر .

– يا ولدى تعب العمر حصاد .

– أرفع وجهى نحو الوجه الناصع عند الباب . يتألق خلف الشجرة
 كالبدر وراء سحب .

– أمى . ها أنت ترين حصاد العمر . . كم هو مر . .

– فى عينيك فحسب . ارفع وجهك . . كلمنى . .

جمعت الأوراق . أخذت أحصياها . أردت أن أرفعها اليها . . هتفت
 بها :

— هل ألقى الذنب عليك ؟ أم ألقيه على نفسي ، بلدى ، زمنى ؟
 — ومتى تتحرر من أسر الذنب ؟
 — لن أنس يوم وداعك آخر مرة • ياللعصفور الطائش فى قفص
 القلب !

أجرى كى ألقى بالعربة ، أجمع كنى ، مسوداتى ، كومة أحذية
 وجوارب وملابس رتقت ثقبوا فيها بيديك ، ولقيمات من بعض الزاد
 وبعض الرزق من الرب • أسرع ملهوفاً كى أنضم الى الركب ، ركب
 الكلمات المنثورة والمنظومة فى مسبحة الرغبة والفكرة ، أو فى عقد
 الثرثرة عن المستقبل والثورة ، أزمت الفن وأوجاع الشعب ، فى منتديات
 السمر الموصول مع الصحب ، أهرب من ناموس القرية ، من سأم الزمن
 الميت ، من رعب الأب ، تضعين القبلة فوق جبينى ، فوق الحدين ، أسرع
 لا ألتفت لقلق العينين ولا أشعر بالمرض الزاحف نحو القلب ، تقفين على
 الباب وداعاً للطير النازح للغرب ، سافر فى طلب الحكمة ، ها هو يرجع
 بحصاد الرحلة ، أوراق لا تشبع نملة • •

— أذكر — لم نتلاق وأودت بى العلة • سافرت وجئت ، زرت القبر ،
 قرأت القرآن ، ذهبت بعين مبتلة ، أقسمت تصون العهد
 وترعى — يوم وداعك — حق القبلة • • ظلت روحى معك تراقب نومك ،
 سهرك ، خيبة أملك فى نفسك • بلدك ، فيمن حولك ، تكتب تكتب
 ما يمليه عليك القلب • •

— أكتب أقرأ يشقيني صمت الشعب ، وضياح الكلمة
 فى قاع الحب • •

— ما ضاعت كلمة حق أو كلمة صدق • لم لا تخرج من هذا القبو ؟
 — فشلى • • خيبة أمل فى الخلق •

— لم تظلم نفسك ؟ انى أشعر نحوك بالزهو • •
 — فشلى كالجبل على صدرى ووجودى هم ، أبكى ضيعة عمرى ، ضيعة
 جيلى فى سوق الوهم ، بين الحاكم والحارس والشرطى العابس ضاع
 الحلم ضيعة • •

— قم وارو الأرض بعرقك واروبذورك بالدم • • اطرح أشواك
 العقم • ماذا تنتظر ؟ • •

— لقد شاب الشعر • جفت أغصان العمر وشاخ الورق الذابل
 واصفر • • فالى أين أفر ؟ • •

— يا ولدى الصبر • ستدور الدورة يا ولدى ويطل ربيع مقتر
 الثغر ، وتمر يدها على شجرتك فتخضر • •

– تخضر ٠٠ ؟

– ويجيء الفجر ٠٠ ربي ٠٠

– أمي ٠٠ ما زال الوقت ٠٠

– قد قضى الأمر ٠٠ أوشك ديك الفجر يؤذن فتفيق الطير ٠٠

– انتظري ٠٠ مدى يدك ٠٠٠

– سيجيء الفجر ٠٠ الفجر ٠٠

يتوارى الوجه وينسحب النور، ووراء الشجرة يبقى صمت الجدران .
تختلج ستار، ينقر عصفور لوح زجاج النافذة ، يطل قليلا ثم يطير . تتكاثر
الظلال وترقص في غيبة الشعاع . يفتح باب خلفي يرعد صوت غاضب :
ليمض المجهول الى المجهول . ليس لديه هوية ، لا اسم ولا عنوان ، أفسد
عقل صبي ساذج ، أغوى المشرفة على الحمام ، وأساء لسمعتها ولسمعة
هذا الفندق . فليطرد من حرم المطلق . فليطرد من حرم المطلق . لن
نقبله حتى يصبح نفسه ٠٠ حتى يتحقق بالسر الأكبر : كن اياك وامت
لتكون ٠٠

لمست يد كتفي . هتفت : أنت ؟ همس : أنا أعرفك ٠٠ تعال ٠٠

أخذني من يدي . دل خطاي في الظلام نحو الباب . سرنا نتعثر
بين ظلال ورسوم ، وتخرفش تحت أقدامنا الأوراق الصفراء . صرخ فجأة :
حاذر ! العقرب خلفك ! ألمع عينيه تلمع كالجمر وتربص بك . اجر ٠٠
اجر ٠٠ فتح الباب بسرعة – خرجت الى الشارع . الليل بدأ يزحف ،
ونسيم رطب يستقبل وجهي ويبلل شعري . يقف على الباب . لا ينسى
عزف اللحن الساحر ٠٠ يسألني في لطف : الى أين ؟ أضع يده بين يدي
وأضغط عليها : هل أعرف من أين أتيت لأخبرك الى أين ؟ يربت كتفي
وينظر في عيني : سأكون في انتظارك وأعزف لك عندما تولد مرة أخرى ؟
أغتصب ضحكة : تكفيني مرة ! أرى النادل مقبلا يلوح بصينية . تقفز
منها يمامة تقف على كتفي . يشتد الجوع ببطني والظما في فمي . وفجأة
تلدغني العقرب ٠٠ تلدغني العقرب ٠٠٠

(صنعاء – يوليو ١٩٧٩)

اللمعة الرابعة

نم بسلام
بكائية الى صلاح عبد الصبور

الدمعة الرابعة :

نم بسلام ...

..

نم بسلام . يا شاهد عمري وضحيته ، يا جرح العمر وأمل العمر ،
نم بسلام حتى نلتقائك ، نم بسلام .

الانسان الانسان عبر . لم يمض وحيدا . فسفينتنا عبرت معه للشط
الآخر . حملت زاد الأحلام ، وبقيّة نار تخبو تحت رماد الأيام . ماذا
نملك بعدك الا أن نتغطي بالآلام ، أن نسأل روحك : يا روح الشعر ! زوري
أحبائك في ليل القهر ، جودي بالمعنى والالهام ، مطرا يروي هذا القفر ،
عودي ، لا تنسينا ، لا تتخلي ، ففراقك مر ، والوحدة بعدك في هذا القبر
المأهول أمر . الانسان الانسان عبر ، افترش الحصباء ونام ، وتغطي
بالآلام (١) ، فعليك سلام ، وعليك سلام .

كيف رحلت يا أعز الراحلين ، عن مجلس الرفاق والحديث ذو شجون؟
قد كنت أرجو أن أكون أول الذين يذهبون ، كأظلال كالسحاب في سكون .
فكيف أبكيك وليس لي بيانك المبين . والعمر قد تدلى من مشنقة الضياع
والحنين . فارسنا الحزين ، يا صوت جيلنا الممزق الطعين ، يا أنضج
الثمار في بستاننا الضنين ، ودفئنا وشمعنا في عتمة السنين ، ألن نراك
بعد اليوم لن نعاين الجبين ؟ والضحكة التي يضج فيها ألف فارس حزين ،
تمدنا بآية اليقين ، ألن ترن بعد اليوم لن تطل من حداثق العيون ؟
يا فرحنا وجرحنا الدفين ، أي جنون غالنا أي جنون ..

أرفض موتك يا من أحببت - كيف تغيب وأنت الحاضر ما فارقت ؟
 نبرة صوتك ، ضحكائك ، لوعة نظرات من عينيك الواسعتين ، شلال
 الحكمة يتدفق من قلبك فوق الشفتين ، ومرارة سخرية تتحدى الموت .
 كيف يجوز عليك الموت ؟ كيف أهادن كابوس الغدر الجاثم في «كنت» ؟
 كذب القائل ذات مساء أو ذات صباح : الموت غياب مطلق ، وسن ممتد
 مطبق . أبدا لن تصبح لا شيء ، فحضورك حي ، دفء بين ضلوعي ، جرح
 في قلبي ، نور في عيني . لن تنقطع رسائلك الى ، وبأسرارك وإشاراتك
 ستظل تجود على . رسمك معقود في عيني ، صوتك مسموع في أذني ،
 شخصك موجود وحواري ممدود معك الى آخر نفس في . يا كأس لحظة
 بخمرة الخلود امتلأت ، ووردة من شجر الليل نمت ، ومن دموع الزمن
 الجريح أسقيت حتى ارتوت ، يا زهرة من طينة السواد والأسى تفتحت ،
 وبالندى تلالأت ، لما تعرت للرياح والظلام والأشواك أدميت ، مهما ابتعدت
 فالبعاد لن يضيع نفحتك . « قد كنت عطرا نائما في وردتك ، لم
 انسكبت » ؟



- انتظار -

١

ها هو البيت ورائك . ما زالت رائحة الدخان والطعام وثرثرة النساء
 والرجال والضحكة الصافية من فم الطفلة البريئة تطاردك وتتشبث
 بشيابك . ما زالت الكتب فوق الرفوف ، وحجارة الألفاظ التي رجمك بها ،
 وبقع الدماء التي تقطرت على الأرض دون أن يراها أحد ، ما زالت كلها
 راقدة هناك كحيوانات متعبة تلوذ بالجدار . تستقبل نسيمات الليل
 الباردة فتحبو نار في داخلك وتتوهج . تشعر بندائها يتساقط على رأسك
 كما يتساقط على شمعة في آخر أنفاسها . تقول لنفسك : ها أنذا « أتحد
 بجسمي المتفتت في أجزاء اليوم المتفتت ، أرقب جسمي يتحول دخانا
 ونداوة » (١) ، يتدلى ، مجروحا من سقف الليل الأزرق . ترفع رأسك
 وتتأمل النجوم المتراصة من سقف السجن الكوني . تهمس بسؤال
 الأعمى المكسور المخاطر : وهل يابق الإنسان من ملك ربه (٢) ؟ وتتابع
 خلوات عذابك في اليوم الميت ، تتداخل في جلدك كي تتجول في تاريخه ،
 تسمعها تهوى في أطرافك ثقلا ، ترجع مقهورا لتلم الأشلاء . وتلم أطراف
 القميص الأبيض وياقته حول الصدر وحول الرقبة .

– الدنيا برد • كان الأفضل أن نبقى هناك •

تحس بصوت الشاعر وهو يحاول أن يمتد اليك كما يمتد الحبل
لانتقاد غريق • تنتبه للثلاثة (٣) الذين يسرون بجانبك مطرقين صامتين:
الشاعر الكبير الأصلع الرأس ، والشاعر المجدد الذي يشبه اخناتون ،
والناقد الممتلئ الطموح (٤) • تشعر أنك تهوى فى جب معتم • يسرع
الناقد بادلاء حبل آخر :

– بالعكس • الهواء النقي هو ما يحتاجه الآن •

نرفع يدك لتتحسس موضع قلبك • نتأمل جسمك يتبدل من سقف
الليل الأزرق -

يتلوى فى جوف الجب الأسود • يسقط تحت سنابك خيل وحشية •
يتفتت فوق الأسفلت • تتنفس بعمق وتتقلب السكين فى صدرك • تنظر
للصديق مبتسما : الهواء النقي هو ما نحتاجه جميعا • يخرج الشاعر
الكبير عن صمته : خصوصا بعد يوم مرهق • تقول بعد فترة صمت :
بالفعل • وتضيف لنفسك : بل يوم ميت • يسقط فى أيام ميتة من أيام
العالم مكرورة • يوم كذاب خوان – بعناه بثمان بخس ، قايضناه وساومناه ،
ودفعناه للنخاس الأبدى ، ثمن فطانتنا الصفراء • فى الصباح والضحي
نجمع فى مكتبي أكثر من ثلاثين أو أربعين • ضاقت الغرفة على اتساعها
بالثرثرة والدخان والضحكات وصليل أكواب القهوة والشاي وطنين أجنحة
الاشعار الزاحفة من الدواوين • يح صوتى من الكلام ، كلت يدي من
التأثيرات والتوقعيات ، ضحكت كثيرا حتى أصبحت الضحكة غصّة ،
نهرت حزنى القديم أن يطل من ستائر الجفون • أمطرت الجميع بحكمتى
ودعاباتى المرة ، حلقت فوق سفوح الصغائر والأكاذيب وتوقفت وحيدا
عند القمة كالنسر الجارح والمجروح • تسللت كفى آلات المرات لتمسح
عش النسر الأبيض كالثلج • يتهدل فوق السالفتين كشلال فضي • لكل
واحد كتاب أو ديوان أو مجموعة قصص يستعجل ظهورها لتغير وجه
العالم ، وكل واحد يتسمع طرقات أكف الملايين على بابي • وبقيت وحيدا
كالأبطال القدماء ، كالفرسان الحكماء المحزونين ، كمغن سئم الجمهور
ولزم الصمت ...

تتناوب الخطوات وتتهشم أصداء كعوب الأحذية على الأسفلت •
تحوض الأقدام فى ظلام الليل كأنها تخوض فى نهر جف ماؤه • يعبر
بعض المارة وتنداح أصواتهم فى السواد والصمت • تتكسر مقاطع حروفهم
على الرصيف كقطع الفخار • يا ليل يا ليل يا ليل •

تنعكس أضواء السيارات العابرة على عينيك فتبهز رأسك : « أبعد
رماح النور عنى » ، وتتناقل أطرافك ، تعلو الموجة ، تطفر من عينيك ،

تصغر كالاعصار بأنفاسك • ترتجف الشفتان : « حزني ثقیل فادح هذا
المساء » • يسارع الشاعر الكبير فيقترب منك ويمسك يدك : لم يكن
يقصد ما قاله • ترفع يدك في غضب مفاجئ : أرجوك • يشاركه الشاعر
المجدد رأيه ويغتصب ضحكة : قلبك كبير أكبر من كل ما قال • تمر
بيدك على موضع القلب • كأنك تخرج الشوكة من موضعها • تحس الوخز
وتملك نفسك من أن تلفظ آه • يشارك الناقد صاحبيه في محاولة يائسة
لانتزاع ضحكة منك : كم عذبتك بكلامنا • كم ناجيناك بالفاظ ، كم
آلناك • لكن قلبك الكبير • • تتحسس موضع الصدر وتلفت إليه بعينين
تقطران لوعة وموتا ، تعاسة وصمتا • تحاول أن تنزع الشوكة وتزم
الشفتين من الألم • تهم أن تقول : حصل خير ، تغالب الضحكة فيغلبها
الحزن كوحش يجثم فوق غزال • تصعد بصرك الى السماء التي تتوابع
فيها السحب السوداء وتخلق أنفاس النجوم الفضية ، تطوف بعينيك
كتل الليل الساكنة كقطط سوداء ، تسمع صوتا في داخلك ينوح :
« حزني ثقیل فادح هذا المساء • حزني غريب الأبوين • ويلتوى كالأنفوان
يعصر الفؤاد ثم يخنقه • وبعد لحظة من الاسار » • يا ترى هل يعتقه ؟
تبتسم للصحاب وتحاول أن تضحك وأنت تتحسس صدرك : « معذرة
يا صحبتي قلبي حزين » • يسارع الشاعر المجدد والناقد في صوت
واحد : « من أين أتى بالكلام الفرح » ؟ يؤمن الشاعر الكبير على قولهما
ويهتف وهو يربت على ظهر الشاعر الذي يمشى بجانبه : راوية وشاعر •
عندما نرجع لن أتركك حتى تروى عنى أيضا • وعندما تموت سنبنى لك
قبرين وشاهدين •••

يضحكان وتتردد أصدااء الضحكة على الفم وتجاعيد الوجه وأطراف
التياب وتتناثر مع حبات الهواء البارد • يختلس الناقد نظرة حانية الى
وجهك • يلمح انقباضه بالألم • يرفع صوته ليدارى غصة انزلقت في
حلقة : « حزن تمدد في المدينة • كاللص في جوف المدينة » • يقاطعه
الشاعر المجدد محاولا أن يستدرجك للكلام : « حزن ضريز ، حزن طويل
كالطريق من الجحيم الى الجحيم • حزن صموت » • ثم تستغرقه موجة
من الغناء قيّم صوتيه : « والصمت لا يعنى الرضاء بأن أمنية تموت ،
وبأن أياما تقوت ، وبأن مرفقنا وهن ، وبأن ريحا من عفن ، مس الحياة
فأصبحت وجميع ما فيها مقيت » • ويضحك وحده فتفتقت ضحكته
وتتهاوى على رصيف الشارع كالزجاج المكسور • وتنعقد سحابة الحزن
على وجه الصحاب فيسدده سهمه الضاحك مرة أخرى ويهتف : « سنعيش
رغم الحزن نقهرة ونصنع في الصباح ، أفراحنا البيضاء أفراح الذين لهم

صباح . يحس أن السهم خاب ، أوشك أن يرتد الى صدره ، يختلس النظر الى وجهك يتحسس قشرة الأحزان الصلبة التي التفت حوله ، تتلوى الكلمات في حلقه وتتبعثر على شفثيه . تتطلع اليه بعين غاب عنها بريق الدعابة ، تسحب نظرتك من وجهه الى أعماق بترك الدفين ، توشك أن ترد على سؤاله الذي يخاطبك بلا صوت : « لا تسأل الشيء الحزين أن يبين ، لأنه مكنون . شيء غريب غامض حنون . لعله التذكار . لعله الندم . لعله الأسى . لا تسأل الشيء الحزين أن يقر . لأنه كطائر البحار لا مقر . وقل له لقد ملكتنى . فتحت لك . صندوق قلبي الكليم . فلتقطر الدموع كالنغم » .

تعاودك شبكة الألم . وخزها أقسى مما كان . تنعقد خطوط جبينك وتفتح فمك لنقول لنفسك : « لا شيء يوقف المأساة لا أحد » . يصعد من أعماق البئر الأسود صوت يناجيك : « من لي بمن يجس ذلك الشيء الحزين جستين ، لكى يرى فجاءته ، ويستبين وجهه ومشيته » تمد ذراعك وتستند الى الجدار الأبيض المرتفع على حافة الرصيف . تتحامل على نفسك وتساءل : أليست هذه هى المستشفى ؟ يلتفون حولك مزعجين ، يسرع الشاعر الكبير ليقترب منك ويمسك يدك : لم المستشفى ؟ أنت بخير . تقول مداعبا بينما تفاجأ بيدك اليمنى وهى تستقر على صدرك : زيادة الخير خير . ألم بسيط . للاطمئنان . يصدق الناقد على كلامك . نعم لن نخسر شيئا . ما دام المستشفى قريبا . ينبه الشاعر الكبير : قريب؟ انك تلمس جداره . . يقول الناقد وهو يتأبط ذراعك : على بركة الله . هيا بنا . تحاول أن تمد الخطى . أن تبدو فى مظهر من لا يحتاج لكتف يستند عليها أو لذراع تمسكه حتى لا يسقط . تتأوه فى صوت مسموع : آه ما أنقل جسمى الليلة ! تقتربون من البوابة الحديدية . تتلفت وراءك وتمسح نظراتك صدر الليل وخصلات الشعر المنسدل على كتفيه : يا ليل . . يا ليل . . يا ليل . .

« عبرت بى آلاف الأقدام الهمجية أقدام الأفكار الهمجية والنيات الهمجية ، فتأكلت وشوهت . . يا ليل . . يا ليل . . يا عين . . داوينى أيتها الغيمات الفضية ، برحيق الأنداء الفجرية » . . .

يسبقك اثنان من الصحاب الى المشى المفضى الى باب المستشفى . يتوقفان عند حجرة الحارس الليلي ويسألان عن الطبيب المناوب . تلمح رأس عجوز أشيب وعينيه الضامرتين تطلان من كوة زجاجية . تتجه مع الشاعر الى سلالم الدرج الرخامى اللامع ببقع الضوء والظلال الرمادية الساكنة على صفحته . تحاول أن تبدو خفيفا وأنت تحرك الأطراف الثقيلة

كالأصفاد . تضع على فمك قناع ابتسامة تكشف عن المرارة ولا تخفيها ،
وتقول لنفسك : « حزني ثقیل فادح هذا المساء » . . يقهقه المثلث الشرير
ولا يسمعه أحد . يتسلل الطارق المجهول وراء الخطوات الصاعدة على
الدرج ولا يراه أحد . .



٢

« رباه ! ما سر هذه التعاسة العظيمة ؟ ما سر هذا المفزع العظيم ؟ »
ينقلت الناقد والشاعر المجدد ويجريان بحثا عن الطبيب - يبقى الشاعر
الكبير بجانبك ، يمد ذراعه بين الحين والحين ليتأبط ذراعك أو ليمر بيده
على يدك فلا تطاوعه . يهم أن يفتح فمه ليستأنف الحديث الذي بدأه في
أول الليل عن مشروعاته فيحتبس اللسان . يوشك أن يكرر السؤال عن
الندوة التي اشتركت فيها قبل حضورك فيواجه بابك الموصد . تتراءى
أمامه مسوخ الكلمات التي ألقيت في وجهك فيخفض رأسه الى الأرض .
الهواء في المدخل لافح ، وأنفاسك المتهدجة تتوالى متقطعة كإزني النار في
الحطب تزيد لفحا . تطوف عيناك بالعجائز والأطفال والرجال المنتظرين
على الأرائك ، بالمرضات اللائي يسحبن المحفات وتشم رائحة الدواء
والمرض والانتظار الممض والموت المتربص خلف الأبواب والجدران الناصعة
البياض . يشتد الوخز عليك ويرفرف شيء في صدرك فتقول لنفسك :
الطير الأسود ، يكون الشاعر قد عثر على كرسى فيجره نحوك ويدعوك
للجلوس . تشكره وتغالب ضحكة لا تريد أن تخرج : شكرا يا صاحب
هذا البيت . . يمد يده الى جيبه ويخرج علبة سيجاره ويقدم لك منها
وهو يضحك : « نورا يا صاحب هذا البيت » . . تحس أصابعك ترتعش
وهي تبحث في جيب السروال عن القداحة ، تخرجها وتلتقط سيجارة
ثم تعيدها الى مكانها وتشعل له سيجارته . يؤيد الكلام مخاوفه : الأفضل
أن تؤجلها لما بعد الكشف . يكفي ما أحرقت الليلة . تبتسم بمرارة :
وما احترقت . تغمض عينيك قليلا وتفتحهما . تتطلع من نافذة المدخل
وتنظر في ساعة يدك - يسارع الشاعر قائلا : لا تقلق - لحظات ونعود
اليهم . تتردد في ذاكرتك أبيات قرأتها قديما : انتصف الليل . وزمن
الانتظار فات . وأنا أنام وحدي (٤) ، تغمض عينيك وتدير وجهك للحائط
وتتابع صدى أبياتك القديمة التي اندفعت اليك بغير ترتيب : « هذا
المساء . أدركت وجهي للحياة واغتمضت كي أموت . في هدأة السكوت .
قد آن للشعاع أن يغيب ، قد آن للغريب أن يثوب » . تندفع أصدا بيت

قديم كنت تحب ترديده : وكل ذى غيبة يثوب . وغائب الموت لا يثوب (٥) .
تتوالى الأصداء الأولى : « للمركب الجانح أن يرسو على شط قريب .
للمجدول الناضب أن يفضى الى نهر رحيب » يقطع الشاعر حبل النغم
مؤكدا : بعد الكشف سنرجع حالا . ما هي الا دقائق ونعود . لا تنظر
فى الساعة . أرجوك . تنظر فى الساعة وتندهش لقفزات عقاربها .
تتمنى لو كانت مى ومعتزة (٦) فى الفراش ، أو لو كانتا بجوارك ، لو
وضعت يدك على رأسيهما وكتفيهما وتخللت بأصابعك شعرهما وقبلتهما
كمادتك قبل الذهاب للنوم . تتمنى لو كانت هى أيضا بجوارك ، تسألك
عما تريد فتقول لها : « أن تكونى لى الى الأبد ، وأن تكون مقلتناك آخر الذى
أرى من الحياة » . تلمسك الوخزة فى الصدر ويشند لغيب القلب فتند
يدك كأنك تبعد هواجسها : « كل شئ يا حبيبتي يهون ، ما دمت لى الى
الأبد » . تتخيلها تضع يدها على قلبك فتقول : « حينما يكون قلبك الكبير
جنب قلبى - فالبحر لا يفصلنا ، والنار لا تخيفنا ، والموت . . وتتوقف
لتسحب نفسا عميقا يتدحرج فى لهاتك كجدول يشق طريقه بصعوبة
فى الأحراش . وعندما تقع عينك على الصديقين القادمين عن يمين الطبيب
ويساره تتحسرج فى أنفاسك المناجاة التى لا تستطيع أن تتمها : ينبئنى
- تهز رأسك وتنفى أنك فى شتاء هذا العام . وقدة الحر المتلظى فى
ليل الصيف تعطيك الأمل - تعود للمناجاة التى ستقطع بعد لحظات والتى
بدأت فتتخللها ملامح الناقد الجادة وابتسامة الطمأنينة على وجه الشاعر
المجدد : « ينبئنى هذا المساء أننى أموت وحدى ، ينبئنى هذا المساء أن
هيكلى مريض ، وأن أنفاسى شوك ، وأن كل خطوة فى وسطها مغامرة ، وقد
أموت قبل أن تلحق رجل رجلا ، فى زحمة المدينة المنهمرة » . تقول لنفسك
وأنت تنهض بصعوبة وتمد يدك للطبيب : « أموت لا يعرفنى أحد .
أموت لا يبكى أحد » .



طويل ونحيل أسمر . حاجباه الكثيفان يقفان كحارسين فى ملابس
السواد أسفل جبهته الضيقة المربدة ، ملامحه صارمة وعليها آثار الارهاق
والحس المفرط بالمسئولية - يقدمه اليك الناقد ، بل يذكر اسمه :
الدكتور . . . ويقدمك اليه وهو يضحك باطمئنان الواثق ويربت بيده على
ذراعك : شاعرنا الكبير . . . تسلم عليه بيد لا تستطيع أن تمنعها من
الارتعاش . يوسع الأصحاب مكانا الى الوراء ، يرجوك الطبيب أن تصحبه
الى غرفة الاستقبال ، يلتفت خلفه ويطمئن رجلا مرتبك الأعصاب فى أواسط
العمر : لن أتأخر . ثم يلامس ذراعك ويقول وهو يبتسم « خير ان شاء الله » .

يستأذن الصحاب في الدخول معك فيشير اشارة مهذبة : لن نتأخر .
تعب بسيط . ثم ضاحكا وهو يتفرس الوجوه القلقة والعيون الشاحصة :
أمراض العصر . من أدري بها من المثقفين ؟ تلتفت اليهم وتجاهد لسحب
قناع الثقة المطمئن على وجه انسحب عنه الدم واللون : طيب دقيقتين .
تنظر في ساعتك بسرعة . يقترب منك الناقد والشاعر الكبير ملهوفين :
تحب أن تذهب لهم وتطمئنهم ؟ تمط شففتيك مرجحا الفكرة ثم تقول
بسرعة : البركة في الدكتور . لن نتأخر بأذن الله . يؤكد الناقد : أنت
بخير ، لا داعي لازعاجهم الآن . يضيف الشاعر المجدد : كلها ثوان وتكونون
في البيت - تغيم سحابات عابرة على جبهتك وخديك . ترد النظرة
للباطن ، تجس الشيء الحزين وتمر على جناحي الطير الأسود الراقد مفتوح
العينين . تشير اليهم اشارة ترج الجسد الثقيل : شدوا حيلكم .
يضحكون ويرتفع صوت هاتف : دائما أنت أنت نفسك . دائما مرح .
اتكلوا على الله . تقول لنفسك وأنت تتجه مع الطبيب الى الغرفة المواربة
الباب في الركن القصى وتفحص بعينيك وجوه المرضى على الأرائك ، والأيدى
المسندة الى الصدور والخدود ، والمحفات العابرة في المداخل والطرقات
أمام أبواب المصاعد ، والعيون الجاحظة المستسلمة للمددين عليها : الى
المصير . ينفذ بصرك في الجلد والثياب وتضيف : « الطارق المجهول .
ملثم شرير . عيناه مسقيان بالسموم . والوجه من تحت اللثام وجه
بوم » . يبتسم الطبيب في وجهك وهو يفتح الباب ويدعوك للدخول فيدوى
صوت في سمعك : « الى المصير ، والمصير هوة تروع الظنون » ...



٣

يشير الطبيب الى السرير الأبيض الصغير في جانب الغرفة - يصفق
بيديه فتمرق من باب داخلي ممرضة صغيرة الوجه ضيقة العينين سريعة
الخطى ، تتقدم نحوك وترجوك أن تخلع القميص . عندما تلاحظ ارتعاش
ذراعيك تمد يدها وتساعدك . تنظر الى وجهها الصغير وتطيل النظر .
تتمدد على الفراش وتتدل قدمك من الطرف الآخر وتحقق في السقف .
تقرأ في طبقات الطلاء المتآكل صورا وتهاويل ونقوشا : وجوه مغمضة
الأعين ، جدران بيوت تتصدع ، بوق ينفخ فيه طفل على هيئة ملاك مكسور
الجناحين ، سفن تذهب ولا تعود ، شطوط لن ترسو فيها أبدا . يقترب
الطبيب ويمد يده ليرفع القميص الداخلى الى أعلى . يندق بأصابعه على
الصدر والرئتين . يسرق النظر الى عينيك وملامحك ويحاول أن يوقف
المرارة التي تسيل منهما . يضع السماعة على أذنه ويدق من جديد على

الرثة اليسرى . ينفتح فمه ويغمض عينيه لحظة . يعاود تحريك السماء
من أعلى الى أسفل ومن أسفل الى أعلى . تنغرز السكين عميقا فى الجرح
وتنفلت الآهة التى حبستها طويلا . ويرف جناح الطير وتتسع عيونه .
نظرتك لا تخطى الخطوط والتعاريج المنعقدة على جهة الطبيب . لا تخطى
سهوم بصره وتريد ملامحه الدقيقة السمراء . تهم بسؤاله ثم تسكت .
تزم شفتيك كما زم شفتيه . يسألك بعد تردد والسماعة لا زالت نفحص
وتهمس له بالنبا المكتوم : هل شكوت قبل هذا من القلب ؟ يتحرك الوخز
فى الموضع القريب من السماعة ، تثبت عليه نظرتك الحادة المستسلمة :
أبدا . أبدا لم أشك منه . يأتيك صوته الممدود فى حنان مبالغ فيه :
وما الذى كنت تشكو منه ؟ تمط شفتيك وتقول وأنت تبحث فى تاريخ
جسدك : المتاعب العادية . . يحاول الطبيب أن يغتصب ضحكة لا تلبث
أن تتهاوى ثقيلة على فمه : متاعب المثقفين ؟ تفكرون أكثر من اللازم . .
تحاول أيضا أن تجاريه فتقع الضحكة مكسورة النفس والجناح على الملاة
البيضاء الناصعة : كما تعرف . . القولون العصبى . آلام الأسنان
— يقاطعك الطبيب وهو يرفع سماعته ويتركها تتدل على صدره :
والتشخين . تسرع وتقول : طبعا طبعا . يسألك بأدب جم : تذكر منه ؟
ترد باقتضاب وتتمنى لو تشعل واحدة : للأسف .

يتجه الى مكتبه ويضع السماعة فى حقيبته ، تطلب منك الممرضة
أن تنهض وتساعدك على ارتداء القميص الصيفى الأبيض . يتناهى اليك
صوته من بعيد ، بعيد ، خير ان شاء الله . استرح قليلا . يأمر الممرضة بصوت
أقرب الى الصراخ : لماذا تتعبينه بالوقوف ؟ استرح يا أستاذ ولا تنهض
من مكانك . سأعود حالا . يتوالى الوخز وتؤلك الشوكة . تتابع نظرتك
الممرضة التى انشغلت عنك بأدوات وعلب وزجاجات على المكتب وتتأمل
ظهرها المحدوب قليلا وساقها النحيلتين وحركتها اللاهثة — تسألها هل
أمر بحقنه ؟ تقول وهى لا تزال مشغولة عند المكتب وظهرها النحيل
يتندرج مع كل كلمة : كورامين . ثم وهى تستدير نحوك باسمه : لن
تشعر بأى ألم . تسحب عينيك الى داخلك . تتصاعد خطى اليوم المرهق
وتذكاراته الى أطرافك كالرصااص الصدى الثقيل . يتصاعد معها الندم
على الساعات الضائعة واللحظات المقتولة . تتجول فى مبنى التلفزيون
الذى قضيت فيه ساعات . دائما وأبدا نفس المصيدة . تستدرج إليها
وتشارك فى مأدبة الشريرة وتآكل لحما عافته نفسك منذ زمان . هناك
تحدثت عن الغربة . « اننا الأغراب فى الفقر الكبير » . غربة المثقف فى
أوروبا . زهرة العمر وقنديل أم هاشم . وأديب الخارج من جوف الهرم
وأنفاس الموت الأبدى ليصنم بهواء الحرية ويحترق بشمس الجنس

المسورة - . القطيع . غاب راعيه وطالت رحلته . وهو فى بيء
لا ظل بها ، . وحوار ممطوط يتهدج فيه صوتك .، تتحشرج أنفاسك وهى
تحاول أن تنفذ فى غابات الشوك المغروزة فى صدرك - وضحكات لم
تستمتع بها . وثناء تتأفف منه ، وبطولات حققها أبطال موهوبون وما أغناك
عنها . وتنادم غربتك وتسقيها وتنادمك . وتقول لنفسك وسط الأضواء
على مرأى من فرسان العصر : « أسعى وراء الشمس ، والشمس فى
ظهري » . ويختلس الحلم نظراته الى شمس أخرى ومدن أخرى ، الى حياة
التفرغ تحت شمس كمبريدج الشتوية (٧) ، الى العودة لمشاهد عنتره (٨)
الذى لم يتم ويحتاج لجو آخر وهواء آخر وفرسان غير الفرسان ، الى
مشارف الخمسين (٩) التى تنتظر أن تكملها بذكريات وذكريات من زمن
الجراد والاكثاب والضحكات المغتصبة وجيل الموتى قبل الموت ، الى وجوه
تذوق طعم البسمة وعيون تحلم وتعمل لمدن المستقبل ، الى أجساد خلقت
للحب وعرفت سر المعجزة . . لكن جاء الغيلان . . تنتبه الى ظل المرضة
التي تقف أمام سريرك والحقنة فى يدها . تبتسم وتقول : أقل من ألم
الشعراء . . لن تحس بشيء . تمد ذراعك الأيسر فتقول : أقل من ألم
الأيمن . تمر بقطعة قطن فى يدها اليمنى على العرق المنتفض : عرق
لا يتعب . يدعو للشك . تضعك المرضة وهى تغرز الابرة بتؤدة وبراعة :
سمعت عن رجل يقول : أنا أشك فأنا اذن موجود . ومنذ ذلك اليوم وأنا
أشك كل من يرقد على هذا السرير . . توشك أن تنفجر الضحكة فيتهدج
صوتك ويشتد سعالك . تنزعج المرضة . تطمئننا بعد أن تلتقط أنفاسك
وتقول بعد قليل : لو شككت ديكارت لأصبح رجلا عاقلا . تسأل المرضة :
من ؟ تدرك غلطتك وتعذر : حكيم . الله يرحمه . . تتجه المرضة الى
المكتب وتضع الحقنة فى طبق كبير من الصاج لا زال البخار يتصاعد منه .
تستأذن وتنصرف من الباب الداخلى . تتذكر أنك كتبت سؤالا كان يلح
عليك . تسرى غيمة التسليم فى عينيك وتثنى ذراعيك على صدرك وتشبك
كفيك على موضع القلب . تغمض عينيك وترتك الذكريات والمرثيات وأبيات
الشعر تتزاحم عليك كالفراشات السوداء - تحاول أن تطردها عبثا
فيجذبها الحريق المتوهج فى صدرك . « وضع النطع على السكة والغيلان
جاءوا » . تراحم حولك « كهان الأروقة الكذبة - اصطفوا حولك كالدببة .
تلاغوا بالكلمات الرواغة كذباب الحانات . لما سكرُوا سكر الضفدع
بالطين . انطلقوا فى نبرات مكتظة » ، وتسلبوا بترامى الفقاعات القذرة
والألفاظ الفظة ، لاكوا لحم الكلمات المطعون ونهشوا لحمى ، باعوا أنفسهم
للأصنام الكذبة واتهموني أنى بعت لهم نفسى . آه ماذا أجبت كلمائى
حتى تقتلنى الكلمات ؟ ماذا أجبت رحلة عمرى فى أعماق البحر ؟ أخرجت
لآلى أهديتها للفقراء البسطاء ، طيبة بيضاء ولامعة وبلون القلب ، جاء

الغيلان العشرة والغيلان الألف ، غاصوا فى مستنقع ألفاظ وشعارات عفنة ،
 رجموني بالألفاظ وطعنوا قلبي بسيوف الكلمات النتنة - « عجزت عن
 عونى معرفتى ، لم تنفعنى فلسفتى » كسرت راياتى ، وتهاويت الى القاع
 أمام الزوجة والأطفال وحيدا عريانا - ماذا أفعل ؟ ماذا يبقى لى من تعبى
 الخاسر ؟ هل يسلم حتى الشعر ؟ ينتفض الطير الأسود وينادى الجرح
 على السكين . تتسلل الممرضة على أطراف قدميها وتقترب من السرير
 وتنظر اليك . تسأل هامسة : هل نمت ؟ تفتح عينيك وتهتم بالنهوض
 فتشير اليك ألا تتحرك . تعقد وتزم شفطيك وتهز رأسك وأنت تقول :
 « تصارعت والهول وجها لوجه ، ولكننى ما عرفت الفرار » ...



٤

لابد أنك نمت قليلا بعد خروج الممرضة . فما أنتذا تفتح عينيك ،
 تفركهما ، تحس أنهما محمرتان كعادتهما عندما يؤلمانك . ولابد أنك
 حلمت بأنك سفينة يهددها الموج ، وتشتد عليها الريح فتغرق ويغطيها
 الماء ، هل رأيت أيضا الفئران تهرب منها ، وهل شعرت بمحنة الربان
 الذى يكون - هو والفنان - آخر من يغادر السفينة الغارقة ؟ لابد أنك
 كنت تنتفض غضبا وتدق أجراس الخطر وتحدى الموج الذى يرتطم على
 جسدك وينثر رذاذه الملحي البارد على ملابسك ويزمجر سخطا لأنك
 لاتخضع لمشيئته . فما هو صدرك يرتجف ، والموجة اثر الموجة تتصاعد
 فى داخلك وتضغط على رقبتك وتريد لو تظفر من عينيك وأذنيك ،
 وجسدك كله يستحم فى مائها وملحها . تفتح عينيك على الجدران البيضاء
 الخرساء ، تتحسس حديد السرير البارد ، تطل من النافذة على كتل الليل
 المتراصة كجبال سوداء ، تهمس فى سرك : « الله لا يحرمنى الليل
 ولا مرارته » ، تتمنى لو يسعف مولاك الشعر فتمسك باللحظة وتكبلها فى
 قيد الوقت ، كى تتأملها فى خلوة ، أو تسمعها فى صمت . لكن الشعر
 يفر ويوغل فى الوحشة ، فتلجأ الى خزانة ذاكرتك التى لاتحفظ منه كثيرا .
 وتحاول أن تسند ظهرك على الأعمدة الخلفية أو تعدل من وضع المخدات
 تحت رأسك فيقعدهك العجز ويشتد لهائك وتضطرب الموجة فى صدرك
 وتفور وتحرك شفطيك التى لم يبلغها القيد ولم تثقلها الأصفاة وتوشك
 أن تبكى على الجسد المهزوم لولا أنك تنكر هذا الضعف على نفسك :
 « لكننى مجرب قعيد ، على رصيف عالم يموج بالتخليط والقمامة ، أكسبنى
 التعقيم والجهامة ، حين سقطت فوقه فى مطلع الصبا » . تحاول أن تتقلب
 على جنبك لتضغط الشوكة التى عادت تؤلك ، وتحاول أن تثنى الذراع

وتجس بيدك سطح الموجة التي ترتفع وتلطم حاجز الضلوع ، لكنك تفاجأ بأن الذراع لا تستجيب لارادتك ، وأن العزم لا يصل الى الأطراف .
رباه ! أهو الشلل ؟ هل تتحقق نبوءة شعري أم نبوءة قدرى ؟ هل أفضى ما بقى من العمر قعيدا يجتر تجاربه المرة ؟ - تلقى بصرك للسقف والحائط وزجاجات الدواء والحقن المرسومة على المكتب ، تصدم أنفك رائحة آسنة صماء لاتعرف كيف تسميها : هل شل الحائط أيضا ؟ تتطلع من جديد عبر النافذة التي لاترى منها نجما ولا سماء ولا قمرا . ماذا كنت أريد من الدنيا ؟ كنت أريد : أن ألبس هذا الكون الأعمى ثوب المعنى ، وأنعم هذا الزمن الموحش موسيقى . كنت أريد . أن أجعل من نثر الأيام المتشابه شعرا يبقى . أن يحلو الانسان بعين الله ويكبر حرا ، يزهر بالتاج على رأسه ، بالصدق التابع من نفسه . أردت أن أرى النظام فى الفوضى ، وأن أرى الجمال فى النظام . وكنت نادر الكلام . وتطيل النظر وراء النافذة لعلك تبصر خيطا مختبئا خلف حجاب الغيم ، لكنك تحمد نعمة ربك اذ أعطاك الليل ، الليل الغارق فى بحر حداد فى بحر سواد فى بحر الصمت الموت - ينتفض صدرك عندما تتردد الكلمة الأخيرة بصوت يقاجئك . يفتح الباب وأنت تردد بينك وبين نفسك بينما تسحب نظراتك من الليل والنافذة والنجوم التي لم ترها والحيط الذى لم تهتد اليه : «تعانى الله هذا الكون موبوء ولا برء ، تعالى الله هذا الكون لايصلحه شئ» ،
فأين المارت أين الموت أين الموت ؟



يدخل الطبيب الذى كان عندك منذ قليل على عجل . تتابعه بعينيك كأنك تتحقق منه : أسمر طويل ونحيل ، على وجهه وجبهته صرامة وجديّة لم تلحظيها من قبل . يهتف وهو يستدير : تفضل يادكتور . من فضلكم انتظروا بالخارج . تطل رؤوس تعرفها وان لم تظهر من الباب الا لحظات خاطفة . تلمح القلق على وجه الناقد والشاعرين . تتمنى لو تنادى عليهم أو تطمئنهم فلا تقوى على اخراج كلمة واحدة . يدخل رجل ناصب الوجه مستديره ، تسبقه نظارات تلمع كالبرق بين اطارين من السحب السوداء . تظهر أسنانه البيضاء التي تنفرج عن صوت جهورى ضاحك : الشاعر الكبير ؟ لا بأس عليك . ترفع حاجبيك دهشة فيرتفع الصوت وتعلو الضحكة : طبعاً لا تتصور أن الأطباء يعرفونك . ها أنا جئت يا سيدى لأسمع نبضات قلبك بعد أن قرأتها . . يقف الطبيب الأول بعيدا ويقدمه اليك : الأستاذ الدكتور . . أخصائى القلب المعروف . ينهره الثانى

بإشارة من يده ويقترّب منك ويسبقه نور أسنانه وابتسامته العريضة الصافية • تحاول أن تبدد الدهشة التي عقدت حاجبيك وتبهمهم : أهلا و • ولكن الصوت يتهدج ويخونك • ينطلق الطبيب قائلا : أرجوك لا تجهد نفسك • حتى الكلام ممنوع الآن • أليس غريبا أن أطلب هذا من شاعر ؟ يفتح حقيقته بسرعة مذهلة وفي لحظة تتدلى السماعة على صدره • يقول وهو يمسيح على يديك ويمر بهما على رأسك المشتعل بتاج الثلج : أرجوك • لا تتكلم أبدا • هذا أغرب أمر يوجه الى شاعر • أليس كذلك ؟ قل لربة الالهام أن تدير وجهها قليلا ، أو فلاقل أنا ذلك • سأعمل كل شيء والرب يدبر ما فيه الخير • فرصة سعيدة ان شاء الله • هل تعلم أنني كنت أتمنى أن أراك من وقت طويل • آي والله • قرأت كثيرا من شعرك وأنا طالب وما زلت رغم مشاغلي أقرأ فيه • هل أففى لك بسر ؟

تبسم وأنت تحس أصابعه تدق على صدرك ببراعة وتلمس برودة السماعة وهي تلهث صاعدة نازلة على جلدك • يأمر بك بصوت رقيق أن تسعل ، أن تزفر ، أن تشهق بقوة ، أن تأخذ نفسا آخر فتتمثل برغم الاعياء المسترخى فى أطرافك وعروقك • لا تفارق الابتسامة الشاكرة فمك وأنت تتابع ثرثرته الحبيبة وتنظر بحب الى قسماته الوديعه الطيبة • يستطرد حديثه كأنه يتلو تعويذة ساحر يحاول أن يخرج جنيا عنيدا من جسد مريضه : هل تعلم أنني • أقصد أنني لم أكتف بقراءته والحياة معه ، لقد ساعدنى أيضا على الحب • طبعا تتعجب • أقول لك السر وأمرى الى الله ، باختصار : أحبيت بشعرك •

تسرح عيناك وتبتعدان عن وجهه قليلا • تغيم سحابة عليهما وتقول لنفسك : « الشعر زلتى التى من أجائها هدمت ما بنيت • من أجلها خرجت • من أجلها فى أول المسا طعنت ، وما أنا أعرض قلبى الذى أوجعنى حتى بكيت ، قلبى الذى •••••

تلاحظ أن الطبيب يترك السماعة على صدرك ويتجه الى زميله مقطب الوجه • يتبادل معه الكلام المتدافع كتطرات المثير المفاجئة بالانجليزية ، وتلتقط أذناك كلمة القلب التى تنقطر فيهما كالحديد المصهور • يخرج الطبيب الأسمر النحيل مسرعا ويغلق الباب وراءه • يرجع اليك الطبيب وهو يرسم نفس الابتسامة على شفثيه وملاحج وجهه الذى لا يخفى الانزعاج • يستأنف كلامه وهو يواصل كشفه الدقيق ويسرع فيه اسراع النبضات التى بدأت ترتجف وترج صدرك : باختصار ياسيدى • أحبيت بشعرك وتزوجت أيضا • • وجه حبيبى خيمة من نور شعر حبيبى حقل

حنطة» . نسيت بقية الأبيات . أرجوك لاتجهد نفسك . والآن انقلب على وجهك حتى لاتتذكر فتثير في نفس حسرات الحب . نعم هكذا . لم تصدق أول الأمر . أضرت لها الكتاب المقدس وقرأت معها في نشيد الأنشاد . بالطبع لم أنسب الشعر لنفسى . معاذ الله من الكذب . انما أثبتت لها أن الحب نبع خالد ، يلهمك ويلهم صاحب النشيد ويلهمنى أيضا . . ساعدنى شعرك أيضا حين أردت أن أعزز حبى وقلت لها عن ظهر قلب : آنستى - لم تكن قد أصبحت سيدة بعد - «اليك قلبى واغفرى لى ، أبيض كاللؤلؤة ، وطيب كاللؤلؤة ، ولامع كاللؤلؤة ، هدية الفقير للفقير» - ولاتسل عن تأثير صوتى وأنا أقول أبيض وطيب ولامع وأقدم لها قلبى فى ليلة لا أنساها واتفقنا فيها على كل شيء . . أليس غريبا أن أصبح طبيبا للقلب وأن أستدعى الليلة من نومي لأعالج قلبك كما عالجت قلبى ؟ استدر الآن خير ان شاء الله . ان شاء الله خير . كم اليوم من أيام المسيح ؟ أعنى فى أى يوم نحن ؟ ينظر فى ساعته بسرعة . يخطف الكلام ويقول : الخميس . نعم . ثم يفرد تقطية حاجبيه وجهته ويسأل مبتسما: اليوم الثامن من أيام الأسبوع الخامس فى الشهر الثالث عشر . الحق أننى لم أفهم ماقلت تماما - ننتزع ضحكة خافتة من أنياب الحزن وتقول رغم أوامره المشددة : وأنا لم أقل شيئا . انه بشر الحافى لشيوخه بسام الدين . . . يصفق بيديه . معذرة لا وقت لدينا . سنتفاهم فى الغرفة الأخرى حول . . من قلت ؟ آه . . أرجوك الصمت لاداعى للاجهاد أو الحركة . أنت تقدر بالطبع . وستبقى يومين عندنا . يبدو الذعر على وجهك ويثب من عينيك . تهم بأن تسأل أو تعترض فيشير بيده اشارة حاسمة : اطمئن . اطمئن تماما . اجراءات عادية نعملها كل يوم . تهم أن تحرك شفتيك وترفع يدك فيؤكد اشارته : أعرف أعرف . سنبلغ الزوجة الكريمة والأولاد . لماذا لاتريد أن تشرفنا يومين ؟ على الأقل نتكلم عن الشعر ونتعرف على الشيخ . . الشيخ . . يسرع الى الباب الداخلى ويفتحه . يغيب لحظات تنشغل فيها بنفسك وتناجى بشر وبسام الدين . . هاأنذا مقتول ياشيخى . فى اليوم الثامن من أيام الأسبوع الخامس للشهر الثالث عشر . مقتول وبلا قطرة دم . واللفظ القاتل ذو ألف لسان تقطر سما . لقط يردينى وبلا قطرة دم . والسكين الألفاظ تشق اللحم . أى زمان هذا ؟ لايعرف فيه مقتول من قاتله ومتى قتله . وأقول لنفسى : ياليتك كنت خرجت . من مدن الموتى يسكنها جيل مات قبيل الموت . ياليتك كنت ببشر الحافى فى الصحراء لحقت ، ياليتك كنت لزمت الصمت . فتحسس رأسك . فتحسس رأسك . . .



تتحسس رأسك بكف مرتجفة • تتطلع للنافذة وتشعر أن الليل
المتربص يحصى من ممكنه الأنفاس • الليل القبر يمد غطاء الكفن على
الناس • تهتف : يا رب الكون المشئوم • أدركنى فالليل طويل تنعق فيه
البوم • ها هى تصرخ وهى تحوم : جروك لبثر الكلم المسموم • تركوك
وحيدا تغرق وتئن أنين يتيم • رجموك بلفظ كالحجر رجيم • كلمات فى
كلمات تنهمر كشلال هادر ، نسجوا منها حبلا يلتف على رقبة شاعر •
ورأيت الدنيا مولودا بشعا فتمنيت الموت • والآن تنام وحيدا على عنقك
تلتف حبال الصمت • يا ليتك كنت لزممت الصمت •• يا ليتك كنت
خرجت •••

وتعود تتحسس رأسك عندما ينفتح الباب فجأة ويدخل الطبيب
والمرضة التى تسحب وراءها محفة تدور على عجلات • ويلمحك الطبيب
فيهتف : ألم تتفق على عدم الحركة ؟ ويقتررب منك وهو يجاهد أن يفرش
ابتسامة على فمه : ألا يستمع الشاعر مرة واحدة لربة الطب والشفاء ؟
- ترن الكلمة الأخيرة فى أذنك رنين قيثاره مجروحة على جبل بعيد •
تتطلع للوجه الطيب الضحوك بنظرك المفعمه بالتعاسة والسخرية •
يتقدمون نحوك وهم يحذرونك من أى حركة ، ويلف الطبيب الشاب ذراعك
حول عنقه ، ويدخل طيب القلب ذراعه تحت خصرك ويحملك الى أعلى ،
بينما تحاول الممرضة أن ترفع ساقيك بحذر وتنزلهما على المحفة الواطئة •
تنغرز الشوكة عميقة فى القلب • ييم الطير الأسود أن يرفرف بجناحيه
وتتسع عيناه دهشة ورعبا • تتردد كلمة القلب فتتذكر بيتا قديما وثب
الى صندوق الذاكرة منذ قليل : « أشقى ما مر بقلبي أن الأيام الجهمه ،
جعلته قلبا جهما •••

تخرج المحفة الى القاعة الواسعة فتسرع الخطى نحوك • هادى أنت
والليل الطارق المجهول والأصدقاء مسرعون • يتسابقون بجانبك وعينك
ترعاهم وتطوف بوجوههم وتحاول فى صمت أن تمسح عنها آثار الذعر •
يهمس طبيب القلب للشاعر الذى اقترب منه هو والناقد : غرفة الانعاش •
يبتعد قليلا ويسر إليها : أزمة حادة فى الشريان • سأعمل ما فى طاقتى •
يهز رأسه كثيرا وهو يلاحق المحفة ويؤكد لهما : العمل عمل الله • لابد
من اجراء سريع • نعم لابد من حضورهم • نعم • ان شاء الله • تلمح
القلق يطل من العيون فتقول وأنت تحاول أن تمد يدك لتصافحهم
فلا تستطيع : ما لكم • شدوا حيلكم •• يحذرك الطبيب وهو يعدو خلفك •
يخبط الناقد كفا بكف • تطفر الدمعة من عينه ويسند وجهه على الحائط •

تبتعد المحفة وما زالت نظراتك تلمسهم وتجفف دموعهم وتزيل غبار
الذهول عنهم . تكاد النظرات تقول : « وما الانسان ان عاش وان مات -
وما الانسان ؟ وهل من مات لم يترك له رسما على الجدران ، وخطا فوق
ديباجة ، وذكرى فى حنايا القلب ؟ وما الانسان ان عاش وان مات
وما الانسان ؟ »



أُنذرنى من قبل أن يجيء . . .

رفقا يا قاضى الوقت . مهلا يا ملاح الموت . يا من تعبر نهر الخربة
والنسيان ، أنظرنى حتى أعزف بعض الألحان ، أو أشرب نخب العمر على
مأدبة الخلان ، وأودع من أحببت وأختم آخر فصل فى مأساة الأحزان ،
وأقوم خطيبا فيهم : اخوانى . . يا من كنتم أغلى الاخوان ، أسألكم ،
أسأل نفسى : من نحن وماذا نبغى ، ما الانسان ؟ واذا كان الانسان هو
الموت فما معنى أن نولد ونشيب ونلقى فى الأكفان ؟ واذا لم يكن الانسان
هو الموت فمن كتب عليه القسوة والحرمان ؟ من أوقفه كالمسجون أمام
السجان ؟ ان كان الانسان . هو الموت . . .

تسرع المحفة على عجالاتها وبجانبيها الطبيبان وخلفها الممرضة الصغيرة
لاهثة الخطى والأنفاس . أرقد فى سكون وذراعى هامدة وأصابعى تتحرك
شوقا للقلم وللأوراق . هل فات الوقت ؟ هل أظف الموعد ؟ أنصت يا طير
الموت الأسود . أسمع دقات الطبل المرعد ، تعلو تهبط تدنو تبعد . أنصت
يا طيرى الهاجع فى عش القلب المجهد . فالنغم الهارب يتردد حيناً ثم
يبدد ، يتكسر فوق زجاج القلب ويخمد ، يجمع أشلاء نشيد ضاع من
النشيد : « أُنذرنى من قبل أن يجيء » . . تراب لونه الردىء . . أُنذرنى
ولم أصدق نذره . . أنبأنى ولم أحقق نبأه . رأيت على الدوام يخفى عينه
المختبئة ، فى طرقات المدن المتهترئة ، وفى حنايا الأعين التى تنم عن قلوب
صدئة . . أُنذرنى من قبل أن يجيء . . لم أنتبه لوقعه البطيء . . هل
آن أن تدهمنى خيوله المفاجئة ؟ . . ترتفع دقات الطبل الخافت حتى تصبح
كدوى الرعد . . تتلبد سحب الغبار أمام عيني وتبرق حوافر الخيل . دقات
القدر الخامض أم دمع القمر على صدر الليل ؟ تسرع المحفة وتسلمنى من
درب مجهول الى درب مجهول . تهبط من كون علوى فى كون سفلى .
يا ربات القدر الرابض فوق العرش . تغزلن خيوط العمر وتصنعن نسيج

النعش • مهلا يا ربان القدر ولا تقطعن الخيط الهش • لا تزعجن الطير
الراقدة فى العش ••

تشيئنى انظرات الكابية والنظرات الحانية • يا أمى أين تراك الآن ؟
ضمينى واحمينى من شر العين • وأنت يا حبيبتى الحنون • حبيبتى يا من
دعوتها أغلى من العيون • هل يسعفك الوقت ؟ أم يبلغك رسول الموت
بأنى مت ؟

آه أزف الوقت ، ضاع الوقت ••

لا تعجل يا ملاح الموت بأغراق سفينى ، الجرح ينادى السكين
فلا تك أقسى من سكين • أتقول بأن الموت علينا مقدور ، ذلك حق •
لكننى أرفض هذا الموت الباهت حثف الأنف • كنت بسالف أيامى قد
صادفنى هذا البيت : الانسان هو الموت • لكننى لم أقبل أبدا أن يصدق
هذا البيت • فتمردت عليه وثررت • ودعوت الله بأن يرفع عنا زمن الموت ،
أن يتسو كى نزدجر علينا ويعلمنا أن نتمزق اربا أن نتفتت ، حتى لا نمثل
للموت ، حتى يخرج من بئر الماضى الأسود طفل المستقبل ممتطيا مهر
الوقت ، ويجوز بقافلة الموتى أرض الموت ، لأرض تبزغ فيها شمس الحرية
فى السمى ••

عجل يا ملاح الموت ولا تخش القدر أو المقدور • ان تبد جبال الملح
أمامك والقصدير ، فسندحيا فى أطراف الالم ونبلى شط المحذور ، ونجرب
لحظة رعب قاس مر ومرير - حتى نرسو فى جزر النور ، نرسو فى
جزر النور •••

تقف العجلات على باب الغرفة • تفتح عينيك على النور الباهر ينهمر
من السقف على الأركان • تهتف من قلب خنقته أمواج الظلمة والصدفة :
أواه يا مدينتى المنيرة •••

٨

مدينتى المنيرة •••

« مدينة الرؤى التى تشرب ضوءا ، مدينة الرؤى التى تمج ضوءا » •
تلوح بعد طول الانتظار • تكشف عن نجومها وراء الغيم والضباب بعد
رحلة العذاب والدمار • يا كم خرجت بحثا عنك كاليتيم ، مطرعا أنقال
عشى الاليم ، وملقيا وراء ظهرى بالأنا القديم • أقول كلما بدت أبراجك

الحسان والمنار ، ولوح الملاح سيد البحار ، للمركب الذى أضنته طلعة
الشموس والأقمار ، ورحلة الضياع فى عيون الليل والنهار : « حجارة
أكون لو نظرت للوراء ، حجارة أصبح أو رجوم .. » هل آن أن أرسو
على شطوط الحلم ؟ أ أنت يا مدينة الجمال والجلال وهم ؟ أم أنت حق ؟
أم أنت حق ؟

أرقد فى فراشى الكليم ، عريان كاليتيم ، مجردا من النقوش والألقاب
والرسوم ، تطوف فى خيالى السقيم حلمى العقيم حلمى القديم ، أن تفتح
السما أبوابها عن نبأ عظيم .. « وها أنذا أستدير بوجهى اليك ، وأبكي
لأن انتظارى طال ، لأن انتظارى يطول » أيا أملا قادما من وراء الغيوم .
أغيب فى غياهب الضباب والدخان ، أسأل عنك النسر مرة والأقوان ،
وأسأل الشيوخ والكهان ، عن شاهد يدل عن صداك فى الزمان أو خطاك
فى المكان .. وبعد رحلة العذاب فى البحار والقفار ، وبعد طول الانتظار ،
أراك - يا مدينتى زاخرة الأنوار ، أبعث من تابوتى القديم فى مدافن !
لتذكار ، أبعث فوق صدرك الطهور كالأبرار ، أضع من نهديك نور العدل
والحرية ، أطعم من كفيك خبز العدل والحرية .. بعد طول الانتظار ..
بعد طول الانتظار

تزاحم السحب عليك فترفع يدك محاولا أن تبعتها . تتصور أنك
راع يحمى بعضاه القطعان الطيبة من الذئاب . ينتهى اليك صوت الطبيب
محذرا كأنه ينفذ من أستار الضباب : أرجوك .. أرجوك .. تنظر من
خلال الغيم المتناثر حولك كالقطن ، تندهش وتعجب مما حولك : أجزءة
تضع فى أيديهم ، وعقارب تجرى وتدور ، أكواب وأنايب وخراطيم يستقر
أحدها فى فحك ، يخرج منها ليدخل فى فتحة أنفك . تتنفس عطرا أزرق ،
وتحوم فراشات حول الأنوار - ربى : ما هذا النور !

يعملون .. يعملون صامتين . أيديهم تغزل ثوبى المسحور . أفراهم
نادرة الكلام . كذا يكون الناس فى مدينتى المنيرة - كذا يكون الناس فى
بلادى جارحين كالصقور . لا . لا . كم جرحونى فى زمان غابر قديم .
كم غرزوا السكين فى فؤادى الكليم فى فؤادى اليتيم . لكننى أسامح .
أغفر زلة اللسان والعيون والجوارح . ورحلة العذاب علمتنى الصمت .
أهل بلادى طيبون . قد يجرحون كالصقور ، يقتلون ، يسرقون ، يشربون ،
يجشأون . « لكنهم بشر . ومؤمنون بالقدر . وحين يسغبون يطعمون من
صفاء القلب . وحين يظمأون يشربون نهلة من حب . ويلغظون حين يلتقون
بالسلام . عليكم السلام . عليكم السلام . ففى ذرى بلادنا يرفرف
السلام . ومن ذرى بلادنا يرفرف السلام . أهل بلادى طيبون يعملون

صامتتين . وفى مدينة الأنوار يعيشون يعرقون يزرعون . وحين يملكون ،
ارادة الانسان أن يكون ، لن يشغلوا أنفسهم بالموت والقضاء والقدر ،
ولن يحدقوا «كعم مصطفى» فى لجة الفراغ والسكون ، سيفرحون يضحكون
يرقصون فى مواسم الزواج والحصاد والمطر ، وعندما يجىء الموت لن
يخافوا طلعته ، فالحب – يا حبيب – قد أزال شوكته ، ومرت الحرية
الخضراء فوق جرح العدم المهين ، وها هو الجرح القديم يتحدى طعنة
السكين . .

تتحرك شوكة ألم فى صدرى . تطفو الموجة بعد الموجة توشك أن
تغرقنى . يبغى الطير الأسود أن يخرج من حلقى . يبغى أن يخنقنى .
ها هو ذا ينهض ويرفرف . ها هو فوق الجرح يحط ويسقط . اهدا
يا طيرى الأسود ، ابعده منقارك عن كبدى . واختر غصنا آخر من شجرة
جسدى . اهدا أرجوك ولا تنقر فى حبة قلبى . دعنى أجمع ما يتناثر
من حطبى . وأجدل من شعرى عشا ترقده فيه بجنبى ، وتعال لتصنع نغما
يشجى قلب طبيب يأسو قلبك ويهدأوى قلبى . اسمع يا طيرى غنوة
حبى :

« العالم الذى أريد . أريد للرجال أن يعانقوا الرجال دون حقد .
العالم الذى أريد . أريد للنساء أن يغفن وادعات ، فى أذرع الأزواج
والأحباب والأبناء ، العالم الذى يصبح الأطفال ، نورة الأمل ، بنغية الحنان
والدمى والقبل . العالم السعيد ، راحة الأجيال ، فى سعيها قوافل الأجيال
نحو عالم سعيد » . أنظر يا طيرى الأسود ! هل تلمح نور مدينتنا – نور
المستقبل ؟ « الزمن الآتى بالنجمين الوضائين على كفيه : الحرية والعدل .
الزمن الكاسر للذلة والظلم كما تنكسر زجاجة السم ، تتفرق سُلطات
لا يلتئم لها شمل ، الزمن المطلق للأنسام لتحمل حبات الخصب السحرية .
وتفرقها فى أرحام حداثتنا الجرداء المختومة بالعقم » . هل تشهد هذا
الحلم ، أتلحظه لحظ العين ؟ أم تحسبه رؤيا الغارق فى قاع النوم ؟
يا طيرى الأسود قم . هل تلمح مدن الأمل وراء الغيم ؟ أم هى وهم ؟
أم هى وهم ؟

تتكاثف سحب عاتية تصدم رأسك . يتخللها برق لا يلبث أن
ينطفئ . ويطفىء حسك . تتجمع سربا من قطعان بيضاء وسوداء ، سفنا
ترتطم على الشطآن وتتفتت فى الخلجان ، وتصارع جبل المردة والحيتان ،
تهرب منها الفئران ويبكى البحارة – لكى يبقى الربان ، يبقى الربان ،
وحيدا يكشف للريح الغاضب ستر الصدر العريان ، يحمل بين يديه
المصباح الواهن فوق الطوفان – يا هذا الربان ! يا هذا الربان ! غرق

الغرقى قبل الغرق وسقطوا فى القيعان ، هرب البحارة والفيران ، والجرس
المعول من ناقوسك لن تسمعه الآذان ، انقذ نفسك يا ربان ، أتمثل دور
الضرسان المحزونين الشجعان ، ذهب الفارس والفرس وغطاه رماد الأزمان،
يا ربان ! يا ربان ! ماذا تصنع يا ربان !؟

– أنتظر الزمن الآتى بالسيف المبصر والميزان ، لأزف النور لركب
الشجعان ، وأضع التاج على رأس الانسان ٠٠ الانسان ٠٠٠

تطفو فوق الموجة ، تتشبث بالسرّج المزيّد والموجة فرس رهان ،
تنزلق على ظهر العالم ، تهوى تهوى فى كهف لم تسكنه الجبان ، كهف
سكنته الغصة والأحزان ، يتصاعد منه دخان ، يتصاعد منه دخان ٠٠٠
ترتفع على ظهر الموجة ، تتنفس فوق الماء كأنك سمكة صيد فرت عن وجه
الحيثان ، هربت من شبكة صياد كى تقع بشبكة صياد ثان ، تخنق
وتسقط فى القيعان ، تتأمل جسدك يهوى فى بشر أحمر قان ، ينتفض ،
يحاول أن يهرب منك فتتماسك ، نلقف حبلا يمتد اليك كشعبان ، تخرج
من قاع الشر وتتجول وسط حقول ومغان ، تلمح شبحا ، أشباحا تدنو
منك فتتهافت يا أصحابى ، يا أحشابى ، أتراكم غبتم عنى وتخليتم يا خلانى
(تهتف لن يسمعك الجيران ، لن ينتبه لصوتك قاص منهم أو دان) .

الطبيب يتمتم : ربى ! رب الميلاّد ورب الموت ٠٠ ويراقب أنفاسك
ويعاين نبض القلب . الطبيب الآخر يتأمل وجهك ويهمس : يا رب ٠٠
المرضة تذهب وتجىء ، تحرك أنايبب وتحضر أنايبب وتنشج : يا رب .
وأنت تطفو على الموجة وتنزلق . تمتطى ظهرها وتسقط . تمسك بلجامها
الفضى ويفلت منك . تتزاحم الأشباح حولك . تقرب وجوها من وجهك .
تعرفها ، تنفرس فيها ، وتناديها بالصوت المفعم بالكتمان :

– الى الى ٠ يا حلاج ٠ ثبت قلبى يا محبوبى ٠ يا سيدنا القادم من
بعدى ٠ أدركنى أو لن تدركنى ياليلكة الظل ، أميرة روحى وجروحي ٠
تنتظرين ؟ ماذا تنتظرين ؟ يا عشرين السترة ! مد يديك وأظهر لون القدرة .
أصبر يا طير الموت الأسود ٠ نقر فى صدرى لكن أبعد منقارك عن حبة
قلبى ٠ أمى يا أمى ٠ أين تراك وأين أبى ؟ نادى يامى عليها لتكون بجنبى .
يا شجرة عمرى نور العين رفيقة دربى – غطينى ضمينى مدى كفك داوى
قلبى ٠ تهوى فى لجج الاغماء ، يشع الضوء ، وتبتلع الملح ، تنض على
لحم السر الهارب كالسمكة فى الماء ، تدخل من حال الصحو الى حائل المحو
وتلمس قلب الأشياء ، تصبح خمرا ، خبزا أسمر ، نورا ، خصلة شعر

ذهبي ، أرضا وسماء • تختنق بسرّك وتعضّ عليه ، تصرخ - من يسمعك ؟ -
إلى الى ! تعالوا يا أحباب يا أصحاب الدرب ، رفاق الجرح ، الى الى ••
يا أحباب •• يا أحباب ••••

٩

تنفّرج أسارير الطبيب قلبلا • يأخذ نفسا عميقا يكشف الغمة التي
أطبقت عليه وكادت تنسيه أن يتنفس • يراقب جهاز القلب ويحصى الأرقام
ويبتلع الفصّة فتغيب كحجر في الدوامة • يلتفت لزميله الذي يقف عند
طرف الفراش كحارس ليلي صامت ويهز رأسه • يتطلعان لوجهك ويرقبان
النفس الذي يصارع التيار ويطفو على السطح • تلوح بارقة أمل خفي •
تفتح عينيك وتنظر حولك ثم تغمضهما • وتتمتم شفّتك بصوت لا يسمعه
غيرك : الى الى •••

- ها أنذا بين يديك •••

- الأميرة ؟

تدخل كالنور الساطع • يتهلل وجهك وتضيء بعينك ومضة أمل داعم •
سيدتي ! سيّدة الجرح الباسم كالفجر الطالع • ترقص شفّتك وهي تتابع
خطوات الحلم الرائع : « شمس في السمّت •• فيض عبير يسرى فتبل
ندواته جدران الغرفة » مولاتي •••

تهمس شفّتها : مولاي الشاعر !

- « يتضوّأ تحرك • حقل ليالك مرشوش بالنور • ويزغرد شعرك •
خمر تنسكب على صفحة بلور » •

- شكرا • هل تذكرني ؟

- « ان أنس فلا أنسى ثوبك • صفحة فضة ، تتمرغ فيها شمس
الصيف • أن أنس فلا أنسى جيدك • كومة ماس يتكسر فيها النور ويلتم » •
- « ليلكة الظل أنا • عابدة الظلام » •

تكمل نغما يترقرق منها : « الزهرة التي تخاصم السنا وتعشّق
القتام » • ما زلت كعهدك والوجه حزين • ما زلت كعهدك تنتظرين ؟

- لا أنتظر سواك • هل ينسى العابد معبوده ؟
- من أنا حتى تنتظريه ؟
- من أبدعنى وبرانى • هل أنسى من سوانى ؟ من من عدم نسج
كيانى ؟ • يا خالق سرى وبيانى قم لترانى ••
- خالقك كسير عانى • ملقى كالعدم الفانى •
- ترخى جفنيك كأنك مهموم • فى وجهك تتمدد غيمة ضيق مكتوم •
هل أبطأ وحيك ؟
- بل أبطأ نبض القلب وضاع يقينى • أترين شحوبى وغضونى ؟
أسمعت أنينى ؟
- ولهذا أشفقت عليك • خفت خطاه تسبقنى ويجيء اليك •
- من تعنين ؟
- من قتل الزهرة ورمها فى الظل سنين من ألفاها فى جوف التنين
من خيب أملى ، كذب على ومررت كذوبته فوق مدينتنا كالأعصار المجنون •
أنسييت سمندل ؟
- أنساه ؟ عشت حياتى أمفته وأعرى وجهه •
- لن تنفعه أقنعتة • سأعينك ••
- لا شيء يعين – لا أحد يعين – عاجزة أنت كشاعرك المسكين ••
- لن يخدعنى الليلة ، سأواجه ظلمه ••
- سبقتك خطاه ومد على صدرى ظله • عشت سنين العمر وعينى
تتحدى عينه • أتسمع وقع خطاه كعابر ليل يسمع خطوات القتلة –
لا أتذوق كأسا حتى ألمح فيها نصله • وكما يتوقع عار فى طرقات الليل
الصدئة ، أن يدهمه المطر الهاطل فجأة ، أتوقع منه أن يأتى الليلة ، كالدائن
يطلب دينه ••
- لن تتركك وحيدا • وقر نذل لن يتأخر ••• ها هو ذا ••
- تجرى نحو رجل يخطو فى ضوء الغرفة كخيال بطل مهزوم • رجل
رث الهيئة ونحيل ، عليه تراب الفقر والسفر ، فى فمه المتحدى أغنية
لا زالت تتشكل • تسرع نحوه هاتفة :
- ها هو شاهد مأساتى •••

تمسح نظراتك وجهه الذابل وعينيه الصامتتين وتمر على القيثارة
المتدلّية من كتفه وتبتسم :

— وأنا من يشهد مأساتي ؟

— سيخلصنا منه قر نذل ثق من قولي • فالشاعر يخفي الخنجر في
سترتة وسيغرزه في صدره تتحسس صدرك وتقول :

— أم في صدري ؟

يقنرب قرنل منك يلمس سريرك كما تلمس أم مهد وليدها • في
عينيه الصامتتين حنان نبي يعرف قدره ، غضب المنتقم يصمم أن يأخذ
ثأره • يمر بأصابعه على القيثارة فترن خفقات لمن شجى وترفرق في جو
الغرفة • يرفع عينيه كأنه يتابع سرب طيور مغردة ثم يخفضهما لتلتقيا
بعينيك :

— الكلمة أيضا يمكن أن تقتل ...

تدير عينيك الغاضبتين تجاه الحائط وتعض على شفّتك • يأتيك
صوته :

— أغنيتي أقوى منه — لحني من خنجره أرهف • تعرف خيرا مني سر
الكلمة أمضى من حد السيف • تتردد أصدا غصبك وتصطدم بالجدران
ينتفض جسدك وتهتز رأسك وتتمتم :

— كذبة ! قتلتنى كذبة !

تتفجر حمم الكلمات في صدره وتسيل صارخة من فمه :

— لن نسمح أن تتجدد تلك الكذبة • لن نترك تلك الحية تسحر
الباب الناس وتصبح قبة • طعنت قلب مدينتنا ذات مساء كذبة • فاسترخت
مثقلة بالجرح • والليلة ...

— الليلة صرعتني الكذبة — هل أجدتني الكلمات ، هل أنقذني اللحن !

— الليلة قد تهوى أنهارا وتلالا ومنازل لو ولدت في ساحتها أخرى ••

— تهوى فوقى وأنا أهوى •• لن يجديني يا شاعر لحنك فارجع ••

— دعني ألقى ظلي في عينيه ، وأغنى من أغنيتي آخر مقطع ••

— انغرز النصل بقلبي • لم تدفعه أغنيتك عنى ••

تتحسس صدرك وتثن • يضطرب الطبيب ويمد ذراعه الى زميله •

يشير الى احتقان وجهك وعينيك يسرع بتثبيت الخرطوم الجديد فى فمك
وبتثبيت عينيه على عقارب الجهاز . تبكى الأميرة وتميل على صدرك تتسمع
نبض الجرح . ذبلت زهرتك الليلية ، ماتت أغنية قرنندل . تستجير بالوصيفات
فلا يستجيب أحد . تجرى نحو النافذة فتصدها أكوام الليل ، تعود
وتندفع نحوك وتندب حظها على صدرك : أولا يكفينى فى اليوم الواحد
جرح واحد ؟

يشتاق الجرح الى السكين . يفرغ الطائر الأسود ويفتح عينيه .
تهمس وأنت تتلمى صفحة وجهها المتألق كالبللور :

– جرحى أعمق مما قدرت أوجع مما ظنت قيثار قرنندل . أتريين
اللس الجاثم خلف قناع الليل ؟ لن يفرعه صوت الديك الذهبى ولن يطرده
الفجر لن يرديه اللحن ولا الحنجر . آه قد سلمت . عودى أنت عودى
لحياتك فى قصر الورد قبيل إذان الديك . يا سيدتى وأميرة أحلام العمر .
ان يقهرنى الموت فكونى أقوى منه ومن ذل القهر . عودى للقصر كى يستجلى
أتباعك طلعتك النورانية ويشم رعبك نسيم الحرية . فلتسرح أم الخير
جوادك والعربة لتكونى معهم قبل الفجر . عودى . عودى . وارعى عهدى ،
عهد الشعر . شاعرك قتيل مطروح ، دمه مسفوح . فوق رصيف المدن
الكاذبة القلب ينوح . عودى يا زهرة دمعى وجروحي . وانضمي للورد
النائم فى روضة روحى . لا تنسى قبل ذهابك أن تهبى قيسا من نورك
أو ظل شعاع من وهج جبينك فالنور شحيح . . تقف الأميرة كالطيف
المسلول ، ترفع يديها الى وجهها وعينيها لتزيح الدمع وتمسح ظل الكابوس .
تنعطف عليك ، تقبل وجهك وجبينك وغضون الألم على وجهك وجبينك .
تستدير وتنسحب على أطراف قدميها . ينهض قرنندل من الركن الذى تكوم
فيه ويجر ساقيه وقيثارته الصادئة مدلاة بجانبه كالبلبل الذبيح يقفز
ديك الفجر على جسد الليل الأسود يصيح . تنفذ سيده الأعلام المرة فى
بللور النافذة الشاحب وتعود كما جاءت : باقة نور ، وردة حلم نبتت فى
بستان القلب المهجور . تثبت نظرتك عليها وتودعها وتقول : سلمت
خطراتك نحو القصر . ولترعى يا سيدتى تهدد الشعر . موعدنا ؟
لا لا أدرى . فقد انحسر النهر : قد ألقاك مع الفجر ، أو فى القبر من . ؟
ضيف آخر ؟ لا . لا . الوقت تأخر ؟ أى سر ؟ لا شىء يعين . لا أحد يعين .
أيلح عليك ؟ عودى . عودى . يبتهل اليك ويتشفع بك ؟ فليدخل هذا
الضيف الآخر . رجل مجهول مكسور الحاطر ؟ ومسافر ليل جاء يقول :
سلاما لمسافر ؟ آه . . . قد سلمت . . . قد سلمت . . .

سلمت وما سلمت ...

فلا تكاد تغمض عينيك وتنأجى نفسك ، لا تكاد تتذكر سر الأحرف
التي جمعتها يوما وتصفها أمامك ، لا يكاد الطائر يجمع في مرقدته ويهدأ
في عشه وتأخذ نفسا عميقا وتفتح عينيك المحمرتين بجمر الألم والوخز
والانتظار حتى تراه أمامك : بطل الملهاة السوداء ، ومهرجها المسكين •
لا لون له أو أبعاد - الرجل الورقة ، سقطت من شجرة هذا العالم ذات
شتاء أو ذات خريف ، لا تتميز من آلاف ، ملايين الأوراق ، تنمو في رحم
الليل ، تحلق في عين الشمس ، تتلوى تحت سياط الريح وترتعش من
الحاجة والبرد ، تسقط لا يشعر أحد ، لا تدرى الأرض ولا الرسم رجل
رث الهيئة مرتجف الساقين ، أجوف كالقصبه حافي القلبين ، منحوب
تصفر فيه الأنوار ، أغنية الموتى الأحياء - تتلوى شفتاك اشمزازا ، تنوى
أن تبعد وجهك عنه ، يستعطفك ويوشك أن يركع ويقبل قدمك • تهتف
في غضب : انهض • انهض •

- لا تصرف وجهك عني يا مولاي • لا تحرمنى نظرة عطف •

- ما تبغى الآن ؟ ما هذا الخوف ؟

أرجوك اسمعنى • لا تكسر خاطر ظل مكسور •

- أولا يكفى أنى جسدتك فى الأوراق ، أطلقتك فوق الحشبة
وتركتك تعرض مأسأتك •••••

- حتى انغرز بصدري الحنجر • لكنى الآن عرفت السر •••

- السر •• أى سر !

- هل تضمن ألا يسمعنا أحد •• حتى الجدران ••

- قل •• لا وقت لدى ••

- حتى الوقت •• هل يأمن حذر جاسوس الوقت ؟

- قلت تكلم •••

يقتررب منك على أطراف قدميه • يتلفت مذعورا حوله • يرى الطبيب
عاكفين على الأجهزة غارقين فى كابوس العمل الذى لا يرحم • يطمئن أن
أحدا لا يراه ينحن ويهمس فى أذنك :

- بعد فوات العمر كشفت السر التهمة كانت خطأ • ساءحك

الله •••

- أفهمت اذن ؟
- بعد فوات العمر • أنا لم أقتله ••
- يا للسخف ومن القاتل ؟
- هل تضمن ألا يسمع أحد ؟
- قلت تكلم !
- عشرى السترة •• هو قاتله ، جلس على عرشه • حتى قاطع
تذكرتى ••
- ما شأنه ؟
- مسكين مثلى • هو فى الواقع جلاد وضحية •• نفذ أمرا لم يفهمه
فى انسان لم يعرفه • والأدهى من هذا ••••
- ماذا ؟
- أنى لم أقتل وحدى •• أوحى الله أو الشيطان الى •••
- ومتى هبط الوحى ؟
- بعد تمام اللعبة ••
- اللعبة ؟ •• أظننت بأنى لعب ؟ •• انى •••
- أصبر يا مولاي أعرنى سمعك – بعد سقوطى فوق الخشبة ، بعد
التصفيق وثرثرة النقاد مع الجمهور وثرثرة الجمهور مع النقاد – خرجت
الى الشارع •• شبحا يتسكع بين الأشباح • لا أحد يحس بجرحى ، لا أحد
يجفف سيل دموى ودمائى – هل تدرى من صادفت على طرق الوحشة
والقبح ؟
- عشرى السترة ؟
- يقينا لا •• هذا لا يبصره مسكين مثلى –
- ومن صادفت ؟
- موتى مثلى • ولدوا أمواتا ، قتلوا كل صباح ومساء ، لم يلمح
أحد منهم قطرة دم تنزف منه أو تلمع فوق ثيابه • شغلتهم أحزان اليوم
وأوجاع الأمس ، جمع الزاد ليوم موعود يزحف فيه الدود • لم يعنوا
أنفسهم حتى بقراءة نص التهمة ، لم يشكو الأمر لقاض أو مسئول
أو سجان – هل تعرف سر الأمر ؟

— سر آخر ؟

— السر بسيط • الكل قتيل لا يدري من قاتله ومتى قتله • خدم معصوبو الأعين تخدم خدم الخدام ، وعبيد تسجد لعبيد عبيد • قلت لنفسى : مقتول من آلاف القتلى • من مليون ملايين • منذ سنين ، ملايين سنين ، والسيد • هل تدري من ؟

— من ؟

— عشرى السترة • يتربع فوق العرش وبين يديه زمام القدرة • يتنزل منه الأمر ولا يعرف أحد أمره • هل تعرف ماذا قلت لنفسى ؟

— ماذا ؟

قلت لنفسى : ماذا أفعل ؟ هل تملك شيئا حبة رمل فى وجه الجبل المظلم ، أو قطرة ماء تائهة فى اليم ؟ أدركت حقيقة نفسى وحقيقة جنسى ، وبكيت بملء العين وقلت لنفسى :

— ماذا تفعل ؟

— حقا ماذا أفعل ؟ لم يبق أمامى الا أن أقتل أو أقتل ••

— أعلنت الثورة ؟!

— هل يعلنها من طعن الخنجر صدره ؟ — كان الليل ثقيلًا والمحنة أثقل • فتسكعت قليلا فى طرقات الوحشة ثم رجعت •

— لنفسك ••

— بل للمسرح •• كان الناس قد انصرفوا والقاعة صمت وخواء • وطلعت على الخشبة وحدى أعرض منبهاتى السوداء • أعرض نفسى فى مرآتى ، كالأخرس يخطب فى سوق الخرّس ويروى قصته الخرّساء • رحت أمثل كل الأدوار بلا ترتيب : فأنا الآن مسافر ليل ، قاطرة ، قاطع تذكرة ومفتش ، وأنا فى نفس الوقت الناظر والسائق والحارس والجمال وجمهور المنتظرين • جمهور البسطاء الفقراء • حتى نفذ الى الصوت ••

— الصوت !

— صوت يأمرنى أن أخرج من ملهاتى وأعود اليك ••

— الى أنا ؟

— أنبأنى الصوت بأنك تتألم فأتيت اليك • قل لى ماذا أفعل ؟

— نفس سؤالك وسؤالى • هل ينفعنى فى حالى ؟

— بم تأمر ؟ بم يشملنى عطفك ؟

- هل عندك للجرح دواء ؟ ها أنت ترانى يعصرنى الداء .
- ما أنا الا خادمك وظلك ، وصدى صوتك . أ أسوى فرشك وأرتب
عشك ؟ أم أعرض فصلا من ملهاتى كى أمسح دمعك وأخفف وجعك ؟
- ما أبغيه لا تقدر أنت عليه . .
- هل أستدعى أبطال التاريخ ؟ ها هى ذى الأسماء ، نقشت بحروف
بارزة سوداء . هل يرضيك الاسكندر ، قيصر ، هانيبال ، تيمور لنگ
والحجاج وجنكيزخان ؟ هل أدعوهم . . .
- القتلة . . دعيم يا أحق ، لا تزعجهم فى مقبرة التاريخ . .
- ما أنا الا أحد الفقراء . . داستنى قدم العظماء وألقتنى حبة رمل
فى صحراء الدهماء . .
- أ رأيت بنفسك ؟
- مرنى يا مولاي بشيء . . أرجوك . .
- لونك يبدو مصفرا . فاذهب عنى مشكورا . .
- عشت كما عاش ملايين المجنولين سواى ، كجرادة حقل يا مولاي .
ألثت سعيا خلف الخضرة واللقة والماء ، تسقط أيامى الجرداء بجوف
ليالى السوداء — أما وجهى
- وجهك ذكرنى باللون الأصفر ، واللون الأصفر يغشى عيني الآن ،
وكانى ألح لون الداء ولون الطغيان . كنت حمامة أيك تدخل فى معركة
مع ثعبان ، كنت فقيرا لا أملك الا كلماتى أنثرها فى أوزان أو ألحان ،
راحت أجنحة الكلمات ترفرف فوق السور وحول الجدران ، تصطدم
بأسلاك الزيف وأشواك الخسة والبهتان ، حتى ارتدت للقلب وغارت فيه
الأحزان . اذهب عنى أرجوك . .
- تصرفنى ؟ انى جئت أقدم قربانى ، أنسييت بأنك من عدوى سويت
كيانى ؟
- لونك أصفر . .
- أو لا تكفى تهمنى الأولى ؟
- تهمتك الكبرى أنك موجود . وعقابك ألا تحيا الا كحياة الدود .
- ما ذنبى وأنا لا أملك حتى الزاد ؟ هل يرضيك عذابى تحت سياط
الجلاد ؟

تذروني الريح على أرصفة الزمن الضائع حفنة عدم ورماد ، كجراد
أهلكه الجوع يجبر صغار جراد ؟

— دعني ، حول وجهك عني .. واسقط في مزبلة التاريخ لتنتظر
قضاءه .. أنفذ نفسك أو فتش عن ينقذك بعيدا عني .. أنا لا أقدر حتى
أن أنقذ نفسي أو بدني

يتلوى الجرح وتسقط فيه السكين • تحاول أن ترفع يدك الى صدرك
فتثبثها كف دافئة ناعمة الجلد • يثور غبار حولك ، تتلبذ سحب صيفية ،
يعوى الاعصار وتختنق الأنفاس ويسقط في عينيك غبار • تسأل نفسك :
يا دارى ، يا دار الشقوة يا دار ، هل زحف السيل الجرار ؟

يغفى الزائر في الركن الصامت مكسور الخاطر • وكما سافر في
الليل مع الوحدة والأحزان يسافر • يهمس في محنته :

— ربي • خرج العالم عن محوره واختل الميزان • هل يعدله انسان
مثلي وأنا أضعف انسان ؟ ماذا أفعل ؟ ماذا أفعل ؟

تنتبه الى صدها الذى يغيب شيئا فشيئا وتسأل نفسك : ماذا أفعل ؟
تلتفت الى الأشباح البيضاء التى تقف بجوارك وتتحرك أيديها ورؤوسها
في كل اتجاه وتسأل : ماذا يفعلون ؟ تشتد العاصفة ، يثور غبار ، تربد
السحب وتجههم نذر الاعصار • يتردد صوت المسافر الذى انزوى شبجه
في ركن الجدار وتكوم على نفسه كحيوان محتضر وهو يردد : ماذا أفعل ؟
ماذا أفعل ؟ تشتد العاصفة وينفذ صوت كالرعد : هجم التتار .. هجم
التتار ...



١١

هجم التتار .. هجم التتار ..

يرتفع صدرك وينخفض ، تتحشرج أنفاسك كالريح المختنقة فى أسرار
الغابات • يرفرف الطير الأسود ويضطرب جناحاه ويقاوم العاصفة ، يعلو
ويهوى مذعور القلب والعينين • لو تنفذ كفاك الى قفص ضلوعك فتهدهدهم
وتحن عليه حنان الأم على صدر وحيد ؟ لكن الاعصار شديد ، والأفق
الغائم غطته الرايات السود ، ودوى الطبل الأجوف يقترب ويبتعد ويدعب
ويعود • تفتح عينيك الدامعتين ، تحاول عبثا أن تنهض ، تصرخ ، يضنيك
الآلم ، تن ، تتردد أطراف الجسد المكدود : جحافل التتار ، واقفة هناك

كالجدار ، تسد عين الشمس بالغبار ، تجلجل السماء بالسواد والحداد
والدمار ، تزحف كالجراد كالأعصار ، تفتك باخضرار العين والضمير
والأشجار ، الى يا أحباب .. قد أهلكنى الدوار ، الى يا أحباب فالتتار ،
عيونهم تنز كالشرار .. يرتفع أنينك فيثبت الطبيبان نظراتهم عليك
ويثبتان فتحة الخرطوم فى فمك ، يرتفع أنينك فيصحو المسافر من غفوته
فى الركن الداكن ويقترّب منك :

— هولاى ...

تشير بسباتك الى النافذة وتلهث :

— الأفق مختنق الغبار ...

يتجه الى النافذة وينظر ، لا شئ سوى جبل الليل الأسود كالويل .

— « والأرض حارقة كأن النار فى قرص تدار » ..

ينظر وينظر .. الأرض قطرة سوداء ملتفة على نفسها فى عباءة النوم .

— « وكثائبى رجعت ممزقة وقد حمى النهار » ..

النهار لا يزال بعيدا ، والكون يحتفى من الظلام بالظلام ...

— « الخيل تنظر فى انكسار » ..

حقا هى خيل الليل — تعدو وتسابق خيل الليل ..

— « والبوق ينسل فى انبهار » ..

تنبهر الأنفاس ولا أسمع الا صوت الليل وصوت الليل عميق —

اكشف عن وجهك يا ملك ملوك الصبح وأذن فى البوق ..

— « والعين تدمع فى انكسار » ..

يتراجع عن النافذة ويختلس الخطى الى فراشك . تضطرب أنفاسه

وهو يرى اضطراب أنفاسك . تلمح عيناه الدمعة تترقرق فوق الجفن

وتنحدر الى الحدين . يمد الكف المرتعشة كى يمسخها ويحس بأخرى

تلمس شفثيه . يقرب أذنا من فمك ويسمعك تسر اليه :

— « زحف الدمار والانكسار — زحف التتار » ..

يقف مسافر ليل كالصنم الأبكم ، الوجه يطل عليك كوجه غراب

أسحج . وتحول عينيك عنه لتنظر وجه القدر المعتم ، يخفق كالطير الأسود

فى داخلك ويؤلم : فى مطلع النهار خيمت سحائب التتار ، والتهم الجراد

خضرة الشباب ، غالها بالخوف والأسى والاصفرار . هتفت يا أماء لن

نبيد ، يا أماء جففى الدموع قولى للصغار ، غدا نشيد ما قد هدم التتار .
ومرت الأيام .. مرت الأيام واستقروا فى الديار ، وداسن الأقدام فى
فؤاد الفارس الهمام فى فؤاد الفارس المغوار ، وساخت الأحلام فى قرار
هوة بلا قرار ، وضلت الخطى طريقها للدمعة البريئة ، وأخطأت طريقها
للمضحكة البريئة ، وانكفأ النهار فى ضجاء كالعجوز ينكفى فى ساءة
احتضار . سمعت من يقول هم هدية السماء للفانين من أمثالنا ، لحفنة
الأموات ، حفنة التراب الآدمى والغبار ، وكنت فى زمانى القديم أحضر
الأسمار ، أنشد الأشعار ، « وعندما أمرت أن أثير زهوهم وأذكر انتصارهم ،
غنيت - كان فى قرار اللحن ، ما لم أجد كتمان من وحشة وحزن » -
وعندها بكيت ملء العين : « جوهرة سقطت فى الزمن الوغد ، تحت حذاء
الجندي الأبيض والجندي الأسود ، برجا سقط جريحا فى زمن التبريح ،
قصر أسطوريا سقط عليه الأجلال ففرت منه الأسطورة ، مهرا وثابا فى
درب المعراج الى الله ، جاء الدجالون فنزعوا منه الريش الفضى ، واقتلعوا
جوهر عينيه اللؤلؤتين » ، وانهمرت أسئلة الشعراء الموتى والأحياء على :
سألوا عن معنى الحرية والحق ، عن معنى العزة والصدق . نادى الجرح
على السكين فصاحت : آه يا وطنى ! ولزمت الصمت . هل تفهم عنى يا من
تسافر فى جنح الليل وما زلت ، - يا من من أجلك جعت ظمئت حييت
ومت ؟ بكيت وانتظرت أن تزول محنة التتار ، أن يرفع الغبار والأسى
والاصفرار أن يعود الاخضرار ، لأعين الصغار ، للدماء فى العروق ، للربيع
والدموع ، للكلام والسلام ، للأيام والأحلام والسنابل التى تموت فى
الهجير للصحارى والقفار ، وعشت فى انتظار سيد يجرى بعد طول الانتظار ،
يحمل قلب الأم فى يمينه ، فى يسراه سيفه البصير كالنهار ، وطال الانتظار
.. ثم طال الانتظار ...

تنظر عينك المتعبتان الدامعتان الى وجه أخرس أبكم ، يعلو جسدا
كالطين المعتم أخرس أبكم . تتحشرج لجة أنفاسك ، يرتعد الطير الأسود
ينقر صدرك ، يشرع منقار الشؤم ويتوعد ، ترفع عينيك ووجهك نحو
الأفق المربد : الريح تدمدم ، والليل يهمهم ، والسحب على صدر الأفق
تغيم وتظلم . ينتفض الجسد على صوت يخطف كالبرق المرعد : الليل
تمدد ، والصبر تبدد . يا أهل مدينتنا ! انفجروا أو موتوا ! انفجروا أو
موتوا ! تشرق بسمة طفل فى شفئك وفوق جبينك تتمدد . تسأل
نفسك : أهو السيد ؟!



يا أهل مدينتنا .. يا أهل مدينتنا ..

ينقش الغبار وتنجلي العاصفة • تطفو فوق الموج وتشرب أنفاسك
وتسترد شعاع الوعي • تنسحب ذيول الضجيج وقعقة العربات ودقات
الطبل وأطراف الرايات السود • وتمد العينين والأذنين في السكون الرحب
فتسمع صيحة ديك مشروخة ، وتفتش عن نور الفجر الذى لمستَه عصاه
السحرية ولم تلمسك • النور هنا مصنوع ، نور مصابيح تثر كجمر فى
عينى شيطان ، تنشر سحب ضباب مغبر ، تلتف على ظهور الطبيبين
والمرضة الصغيرة المشغولة أبدا كالنحلة ، وعلى جسد المسافر المكوم بجوار
السريـر كصنم يحلم أن يتحرك يوما أو يتكلم .. نورا يفرش دربى ،
وليصبح طير الموت الأسود ديكا يعلن مطلع فجر فى قلبى • يتردد الصوت
النافذ كالسهم ويصطدم بجدران الغرفة ويشع ريننا ينداح كدوامة :
يا أهل مدينتنا .. يا أهل مدينتنا .. تنظر ، تتذكر ، تهمس : هل
يأتى السيد ؟

تتطلع للنافذة فتري وجهه النجمى يزيج ستار الظلمة ويقترب منك •
وجه يسبقه بريق عينين ملتهبتين بالغضب والتحدى ، ويد ترتفع وتنخفض
تفتش فيها عن سيف مبصر • أين هو السيف المبصر كي يذبح طير الموت
الأسود ؟ ما زال يررف فى صدرى ، يغرز منقار الشؤم بقلبي • أقبل
يا سيد أقبل - لكن لا تنس السيف المبصر • ما زال بعيدا عنك • تستعطفه
عيناك ولكن لا يتحرك • تغلبه الكلمات ، تشل يديه وقدميه عن الفعل •
طالت غيبتك ، تقدم • ساعدنى أرجوك ..

يفتح فمه فتفجر الكلمات الغاضبة : يا أهل مدينتنا ..

ترسم ظلال ابتسامة على فمك ووجهك : أنا وحدى يا سيد ملقى
ومحطم ..

ينهر الصوت كشلال ينبثق من نبع قديم : رعب أكبر من هذا سوف
يجيء ..

تتكاثف المראה على فمك : أكبر مما أنا فيه ؟

ينطلق الشلال كما ينطلق المارد من جوف القمم : « لن ينجيكم أن
تنتصروا منه بأعلى جبل الصمت ، أو يبطون الثابات - لن ينجيكم أن
تختبئوا فى حجراتكم أو تحت وسائدكم » .. لن ينجيكم .. لن
ينجيكم ..

تحاول أن تقاطعه وكأنك تضع قشة أمام التيار : هل تنجيني
كلماتك ؟

تشير ذراعه التي ترتفع وتهوى بإشارة حاسمة : انفجروا أو موتوا
.. هذا قولي ..

تحول عينيك وأنت تقول : قولك .. قولك .. كلمات في كلمات
في كلمات ..

يجيب بسرعة كأنه بدأ يلتفت اليك : لا أملك الا أن أتكلم ..
تردد وأنت تتطلع للنافذة بحثا عن شعاع واحد : « كلماتك لا تسقي
عطشانا قطرة ماء ، لا تطعم طفلا كسرة خبز ، لا تكسو عرى عجوز تلتف
على قامتها المكسورة ريح الليل » ، لا تشفييني من جرحي القاتم كالويل .
هل تنجيني كلمات غاضبة كالسيل ؟ ..

يقترب منك ويمد سبابته كأنه يشرع سيفا : لا أملك الا كلماتي
الغاضبة ..

توشك أن تضحك فلا يسمعك الصمت : يا ليتك جئت لتضحكني
أو تضحك ..

يتجهم وجهه ويتراجع قليلا كأنه يفسح مكانا للأحجار المنهمرة :
أضحك ؟ « انا نحتاج الى أن تغضب . ضحكت هذى المدن المتبلدة الحس ،
خمسة آلاف سنة ، ضحكت حتى استلقت ميتة فاتحة فاهها كالجرح الصديان ،
ظننت وخز الأيام النحاس ، دغدغة حنان » .. تنسكب جداول الذكرى في
وجدانك وتطفو على ملامح وجهك : أتذكرك الآن . أنت نبي مهزوم يحمل
قلما ...

يسرع قائلا : ينتظر نبيا يحمل سيفا ..

تخالب الألم الذي ينفذ وخزه على صدرك : أنا أيضا أنتظره ..

يقترب بوجهه كأنه يمد اليك البشارة : يأتي بعدى .. يأتي
بعدى ..

تحاول أن تنهض وتصرخ في فمه وأذنيه : يأتي بعدك .. يأتي
بعدك .. فمتى يأتي ؟

ينتفض جناح الطير الأسود . تضغط بأصابعك على الألم ، تحس
الجرح وتمس بالصوت المجروح : لم تبطئ عني ياسيد ؟ الطير الأسود

يخفق في جنبى ، ينقر فى حبة قلبى ، أولا يبصره سيفك ؟
يتردد صوت لاتدرى هل يأتى منه أو منك : سيفى لم يبرح جفن
الغمم ..

تسأل وأنت تعض على سرك : ومتى تكشف عن وجهك ؟
- أنا لا أكشف عن وجهى الا فى أوج المجد ، أو فى بطن اللحد ..
تعض تعض على السر المختنق بصدرك
- ياسيد ، أبتهل اليك . أخرج من لحدك - اهبط من قمة
مجدك ..

- أنا لا أهبط الا فى منتصف الليل .
- ليلي انتصف وما دقت أجراس الفجر ..
- الا فى منتصف الوحشة ..
- الوحشة فاضت كالطوفان وأغرقت الصدر ..
- الا فى منتصف اليأس ..
- يأسى يقطعنى نصفين ويقتلع النفس ..
- الا فى منتصف الموت ..

- انتصف الموت وعشش فى الطير الأسود .. أدركنى أو لن
تدركنى بعد ..

يزداد رفيف الطير الأسود فى صدرك . يتخبط كالمذعور ويضرب
بجناحيه . يدخل فى أعضائك مختطف الخطوة مسروقا ، تفتح صدرك
وتناديه : «أدخل عذبا ورقيقا ، فانا أتأهب لك ، نقر حتى تجد طريقا .
آه ما أوجع خفق جناحيك ، أبعد عنى هذا المنقار الشائك » .. تتلفت
حولك ، تستنجد بالأشباح الواقفه حيالك : ما بالكم تقفون كأشباح ؟ ..
أنت بأشعارك .. أنت بطبك ودوائك .. أنت النائم فى قاطرة الليل
بصمتك وغبائك .. فليفل أحد منكم شيئا .. ياسيدى القادم من بعدى
.. أدركنى فلقد طال عذابى .. انى أنتظرك .. أنتظرك ..

يقف أمامك مهزوما وبلا قلم أو صوت . تختلج الكلمات على شفثيه
وتسقط فى جوف الصمت .

يتحرك نحوك ، يغمض جفنيه كالعراف الأعمى ، ينطق بالنبوءة رغما
عنه :

- لا تنتظر الآتى .. هو ينتظرك ..
- ومتى ألقاه ؟
- حين تدق الساعة ويحين الوقت ..
- ناشدتك أن تدعوه .. تعبت .. تعبت ..
- وأنا أيضا أنتظره ..
- كلمه .. ناد عليه .. هاأنذا فى منتصف الوحشة ، فى منتصف
اليأس ، فى منتصف ...
- وأسفاه .. أحببت الموت .. أحببت الموت ..
- لأنى أحببت العيش وعشت .. انك لاتعرفنى ..
- بل أعرفك وأعرف سر كلامك والصمت . كنت رفيقك فى الليل.
الموحش ، صاحبك وتابع ظلك ، حامل قلمك ، صندوق متاعبك وهمك ،
كم نادمك ، عاتبتك ، سافرت على مركبك ، سبحت على الأمواج ، غرقت .
أعرفك وأرسم صورتك كما أنت : «جبهتك المشرقة الصلبة ، عيناك
المتعبتان الطيبتان ، كفاك المتكلمتان وعيناك الصامتان تيران وتنطقان»
مشيتك المرهقة المتماسكة كمشية جندي بين قتالين مريرين » .
- ألقى الجندي المتعب أسلحته .. علقه الزمن الوغد من الساقين
وشيب جرحه . قطع أوصال الحاضر والماضى .
- أولاتؤمن بالمستقبل ؟
- «بل انى أخشاه لأنى أومن به - أوشك أحيانا أن الحظه لحظ
العين . ولهذا فأنا أبصره ملتفا فى غيم أسود» .
- والحرية ؟
- هل عشت لشيء غير الحرية ؟ هل جدت بدمعى الا كى أسقى
شجرتها الذهبية ؟
- هل فجر فيك الغضب فبجت بما أمليت عليك سوى إيماني بالمستقبل
والحرية ؟ لكن المستقبل حلم قدلا أشهده ، والحرية شط قد لا أرسو فيه ..
- فى منتصف الوحشة يولد طفل الحلم . فى منتصف الظلم يضيء
سراج العدل ويحكم . فى منتصف اليأس يجيء القادم بعدى ...
- أم فى منتصف الموت ؟

تشعر أن الطير الأسود قد جن جنونه • اختنق وراح يشق طريقا
يخرجه من قفص الصدر • فتح منقاره كالنورس المذعور وتهياً للاندفاع
الى البحر الواسع والانطلاق على متن الريح • تحس أنه يتمدد كالكابوس
ويقرش جناحيه عليك • ينفرد الجناحان ويغطي الظل القاتم على شرارة
ضئيلة لا تزال تتقد في الداخل كأنها عين محمرة تومض وتنطفئ • يمتد
الصوت كحبل يرفعك من الكابوس :

— القادم سوف يجيء — القادم سوف يجيء ••

تفتح عينيك المجهدتين وتنظر للوجه المتلمع العينين :

— هل أصنع شيئاً الا أن أنتظر القادم ؟

ينقر الطير الأسود ويحف ويحفز كي يقتلع الحبة ، يرفرف بجناحيه
لكي يطفئ الشرارة ، ينفث جرح في عمق الأرض المشقوقه وتنز منه
قطرات تلص وتخبو كبريق مذنب في آخر الليل • تتحرك شفتاك من
الآلم اللامع : يا سيدنا القادم بعدى ••

يقترب الوجه الصارم منك وينعطف عليك : اصبر •• حتما سيجيء •

تريد أن تصرخ فلا تستطيع : الصبر تبدد •• فمتى يأتي ؟

يتصلب الوجه أمامك • تقرأ في صمت ملامحه : تعرف مواعده ••

تعض على شرك وتحاول أن تعثر على اليد التي تبحث عنها : ناد
عليه •• أرجوك •• أو فادع الموت ••

يهبط صوت ينحدر من أعالي الجبل كرفيف النسر : لا يدعو الموت
اليه سوى الموتى • أما أنت فحي •

ترفع اليه عينين شاهدا الجرح ولمساه وصبغهما بحريق الدم :
أنا لا أدعوه جرحي يبتهل اليه يخفق الصوت ويمد جناحيه على صدرك
ووجحك : جرحك مفتوح ككتاب قدسي والسيف المبصر سيعود وينطق
كالوحي • أنا مثلك أنتظر القادم بالزاد وبالرى ••

تردد بصرك بين المسافر المكتوم في غيبوبته بجانب الفراش ، وصاحب
الوجه اللامع المتصلب كالكاهن الفرعوني على رأس مليكه المحتضر ، والطبيبين
الساكنين على الأجنحة والأنايب والأدوات والدوارق ، والممرضة الصغيرة
التي تجرى كالنحلة في مهب الريح • تضغط أجنحة الطير الأسود ويتأهب
للانفاز فتصرخ من تحت الجبل الجاثم عليك : يا حلاج •• ثبت قلبي
يا محبوبى ••••

١٣

ثبت قلبي يا محبوبى

يدخل كالطفل الضاحك فرحاً بهداياه ولعبه ، طفل شيببت الأيام
الجهمة شعره ، ترك الحارس والسجان وقاضى الشرع على الجسد الناحل
أثره ، فوق الذقن المرسل يتناثر دم ، فوق الصدغ وتحت العينين بقايا
دم ، وعلى السترة والشفال الأبيض والسروال المترب بقع الدم . يتهلل نور
العينين الساجيتين ويبرق بالبسمة والكلمة فم ، لا تخفى الحفر عليه وعلى
الوجه الضامر ألم السوط المؤلم . يقترب قليلاً ، تذكر طلعتة النورانية ،
تنضو عنه سحابته ، يتضح الشبح المعتم ها هو ذا يقترب ، يحاول أن
يجرى نحوك يتعثر فى الأغلال الصدفية فى رجليه ويديه ، يقوم ، يشد
الخطو ، تجلجل ضحكته الحلوة يوم تبدت للعين الشجرة واندفع الى عرس
الصلب وتمتم بالآيات وشكر الله وسلم . تتهلل طلعتك وتخفق آخر أنفاس
سراج العين وتبتسم وتحتضن الحلم . توشك أن تطلق ضحككت العذبة وتمد
اليه تفتحها الناضجة بدفء العمر الغارب فى ليل مبهم ، لكن الشوكة
تنغرز وينطبق الفم . يقفز كالصفور الأحب يتملى وجهك يتكلم :

« تبدو كالغارق فى النوم . تنسكب العينان على صدرك ، وكان
ثقلب دنياك على جفنيك ، أو غلبتك الأيام على أمرك » .

تفتح شفتيك المالحتين بطعم العلقم وتخاطبه كخطاب النائم فى حلم :

« يا شيخى أنا انسان يضمنى الفكر ويعرونى الخوف . ثبت قلبي
يا محبوبى . أنا انسان يظماً للعدل ويقعدنى ضيق الخطو ، فأعزنى خطوك
يا محبوبى ، وشفيعى قلبي المثلثل ودموعى فى الليل » . . .

يثبت عينيه فى عينيك المغمضتين على الحلم النائم فى فرش اليتيم :

« بلسانى تنطق يا ولدى ، وبشعرى الباكي تتكلم .

« انى أتعذب يا شيخى الطيب . .

« فليغفر لى الله عذابك يا ولدى .

« أنا بين يديك صريع يا حلاج . قتلتنى كف العصر الدموية ، داستننى
قدم الحصر الهيجية ، لدغتنى بالسسم أفاعى النيات المطوية ، ألعاب الزاهر
والخاوى بالكلمات القدسية -

« قدس ربى كلماتك ورعاها كالورد ندية . كنت يسالف أيامى قد
قتلتنى الكلمات ، ورأيت الدنيا مخاوفاً بشعاً شوهه الظلم وعذبه الفقر
الباثم فى الطرقات ، وتخلت عن السر فبحت وصحت . .

— أنا أيضا قتلتنى كلمات تنزف كجراح • عجز لسانى عن الجلام
السر الجامع فانطلق وباح •

— قل يا ولدى ، وانفض شرك وتكلم • ما أحلى أن نتكاشف بالأسرار
ونحلم •

— كنت أحدثهم بحديث القلب • لم يستطع الکتمان فباح • وسقطت
بقاع الجلب •

— مثلك لا يسقط أبدا يا ولدى • قد تسقط شجرة جسدك أو يهوى
غصنك • لكن تبقى ثمرة فكرك ، يبقى لحنك • ألم تقل على لسانى : « كان
من يقتلنى محقق مشيئتى ، ومنفذ ارادة الرحمن ، لأنه يصوغ من تراب رجل
فان ، أسطورة وحكمة وفكرة ؟ » •

— أو حتم كان علينا أن نقتل ؟ أن ينهال الكذبة بفئوس الحقد على
شجرتنا فتميل وتذبل ؟

— يقتل كل الشعراء بكل بلاد الله • يقتلهم حقد الخطابين الفقراء ،
المحرومين من الموهبة السفهاء •

— خوضت طويلا فى طرقات الله • والآن يعض الطير الأسود حبة قلبى ،
أو لست تراه ؟ ها هو ذا يضرب بجناحيه ، ينشر ظل الموت ، يسدد سيف
الرعب فأه ••

— لا يخشى الموت سوى الموتى • قم فالناس « عطاش لترويه من ماء
الكلمات • جوعى لتطاعمهم من أثمار الحكمة ، ظمأى لتنادمهم بكئوس
الشوق الى العرس الربانى » ، قم واسكب كأس غناك يندى القلب بحلم
نورانى ، قم يا ولدى •••

— آه يا يا شيخى الطيب كيف أقوم وأمشى أو كيف أغنى ؟ أنا
لا أملك حتى أن أفتح عينى •

— حاول يا ولدى •• حاول •

— تتخلى عنى القوة ، يسرى الشلل بأطرافى ، يهوى شعرى كالملح
البارد فى أعضائى ، يخذلنى نهر حياتى ودمائى ، يجفو وقدة صحرائى •

— هيا يا ولدى نسعى فى طرقات الله ، فالفقر يعربد فى الطرقات ،
يذل رقابا وجباه ، « والمسجونون المصفودون يسوقهمو شرطى مذهب
اللب ، قد أشرع فى يده سوطا لا يعرف من فى يده قد وضعه ، ورجال

ونساء قد فقدوا الحرية ، اتخذتهم أرباب من دون الله عبيدا سخريا • قم
فالشر استولى في ملكوت الله •

– الشر قديم في الكون • أو لم تعرف هذا يا حلاج ؟ أو لم يشهد
دمك الطاهر طغيان الشر على الخير ، ألم تلاحظه لحظ العين ؟ الشر قديم
متجدد • في كل زمان ومكان يكتسب جنودا ويعربد • لكن الشر فراس
محزون مجهد • يجذبه النور فيحرق بالنار ويجلد ، يسقط كعجوز محتضر
مقعد ، ياكم حاول شعري أن يصنع من نار العالم نورا يأتلق ويسعد ، حتى
احترق وصار بلون آلفحم الأسود ، صارت كلماتي شوكا في الصدر ودها
في العين تجمد – هل خبت وخابت كلماتي ؟

– كلماتك ما خابت أبدا فتشجع – « وستأتى آذان تتأمل اذ تسمع ،
تتحد منها كلماتك في القلب ، وقلوب تصنع من ألفاظك قدرة ، وتشهد
بها عصب الأذرع ، ومواكب تمشى نحو النور ولا ترجع ، الا أن تسقى
بلعاب الشمس ، روح الانسان المقهور الموجه » •• كلماتك ••

– كلماتي •• كلماتي •• هل تقدر أن تنقذني من هذا المستنقع ؟
هل تقوى أن تسجبنى من شعري أو من شعري الغارق في الدمع ؟
آه لو كانت كفا تحصد أو تزرع ، تبني أو تهدم أو تردع ••

– كلماتك تنحدر الى الناس ، تحدثهم عن رغبة ربى : « الله قوى
يا أبناء الله ، كونوا مثله ، الله فعول يا أبناء الله ، كونوا مثله » •••

– يا شيخى الطيب • « فى عصر ملثا ، قاس وضنين ، لن يصنع
ربى خارقة أو معجزة ، كى ينقذ جيلا من هلكى ، قد ماتوا قبل الموت » ••

– الموت علينا مقدور ، لكن كلماتك يا ولدى حية • صنعت منى
أسطورة رجل فان ، رجل ظمآن يروى عطش الناس لنور العدل الباهر
والايان ، كم أحييت من الأرواح بسر الكلمات ، وبعثت الحلم مسيحا يحيى
الأموات ، وغدا يتفتق منها فجر الحرية •• أنظر فالنور •••

– النور شحيح يا شيخى ، والفجر على الأفق مقيد ••

– النور سيأتى يا ولدى ، وغدا ••

– كم عشت على أمل الخد ••

– الفجر قريب يا ولدى ، لن تخطئ طلعه الموعد ••

– يا شيخى مهلا لا تسرف ، فالليل على الكون تمدد •••

– الفجر سيولد فى الخد • وسيزهو بمدائن ربى ، ويتم الموعد

والوعد ••

بسمته تشرق كالرؤيا وتطوف على الوجه المتعب ، كالبرق النافذ
ميجروحا ، من ثوب الظلمة والسحب لا تخطيء عينك دمعته ، تتحدر
كالطفل الميت ، تتلوى بالألم وتسكت • ترهقه ، تشرب دمعته وتحول
عينك للسيد :

– هل يأتى حقا يا سيد ؟

تفترج أسارير الوجه الفرعونى المتصلب ، ويطل الصوت المرهق
كابتسامة أبى الهول : لابد سيأتى ••• لابد •

تطوف عيناك بين الوجهين ، لا تدرى أيهما تصدق • تسحب كلمتك
كمجداف تاه على لجج الوحشة وتمزق : والطير الأسود ؟ ها هو يتمدد فى
جنبى ، والظل على قلبى يرقد • ساعدنى يا شيخى الطيب ، هات ذراعك
مد يديك وحاول أن تطرده يا سيد •

يأتى الصوت ولا تدرى من أين يجيء : الطير الأسود سيخلق فى
الجو ويبعد ، وقريبا يسبق نذر العاصفة ويرعد •

تعض على شفتيك ، على طرف مخدتك ، على السر الموجه كالسيف
المسنون الحد :

– يا طيرى الأسود • يا طير الرعد • يا طير الغد • هل جاء
الموعد ؟ ما زلت ترفرف بجناحك وتنقر حبة كبدى • أتعد الزاد لسفر
يوغل فى البعد ؟ خذ ما شئت وغادر عشك فى • بسدى • خلص نفسك
من قيدك لتخلصنى من قيدى • ماذا أفعل ؟ قل لى يا شيخى الطيب ،
مرنى يا سيد • ماذا أفعل ؟ يزداد الحمل على ولا أتحمل • يا شيخى
قل ••

يدنو منك • يتعثر فى أغلال الساقين وقيد القلب المثقل • يحنو
فوقك ويفيض على عينيك من النور الأكمل :

– تسألنى ماذا نفعل ؟ نلقى بذرتنا فى أرض البشر ونرحل •
هيا يا ولدى ••

تعض •• تعض وتفتح شفتيك فتخرج نسمة : أدركنى يا مولاي
وخذ يدي ••

بريق النور بعينيك وتشرب اكسيرة • تتكسر تمتعة الشفتين على
شفتك ويشع رنين البلور على البلورة •

ترقص آيات الله وتجرى وتحوم حولك كفراشات مذعورة :

— هيا يا ولدى .. هات يدك .. اتبعنى .. يا أحباب الله
 الفقراء .. ليسكب كل منكم دمة حب ووفاء ، ويرقرقها فى كأس القلب
 المتعب اكسير حياة ودواء .. هيا .. هيا .. ثبت قلبك يا محبوبى ..
 واتبعنى فوق الدرب تباركك دروبى .. يا شهداء العالم هذا شاهد مأساتى
 وشهيدى .. هل نحرمت هذا العالم من روح شهيد ؟ .. هيا .. خذ يدي
 وغن نشيدى .. هيا .. هيا ..



١٤

تطفو فوق الموج .. تحس برودة ماء البحر على جلدك فى أطرافك ..
 تتساقط قطرات من كهف الابطين وغابات الصدر .. تتذكر أنك كنت
 بقاع البحر تخوض فى حقل المرجان وتلعب مع أسماك الذاكرة وتجري
 خلف عرائسها الذهبية .. تذكر أبيانا من شعرك كعيون واسعة ظلت
 ترهقك وفى حدقتها الدمع وتنسدل عليها خصل الشعر الفضية وجدائله
 الشقراء العسلية .. تمسك شبكتك بعين منها تتألق بالنور فتتهف
 وتقول : ربى ... ما هذا النور .. تبدو كالطلسم المسحور ، يلقيه
 الموج الليلي الى الصياد المقهور ، ان وافاه الرزق ... تأخذ نفسا عميقا
 وتشعر أنك تصعد ، تصعد على سلم الضفائر الطوال الى شرفة زرقاء
 فى أفق أزرق وتطل على الموج الأزرق ، لكن الأسماك الماكرة توارت فى
 بشر الليل ، وعرائسه الذهبية لجأت للكهف السرى ، ودعوى العين السحرية
 ذابت فى ملح القاع .. تأخذ نفسا آخر عميقا وتشرب الزرقة فينسكب
 الصفاء فى صدرك وجوفك وترف فراشاته الزرقاء حول رأسك وشعرك ..
 تنتفض فجأة وتهتز ، تنتبه لألم الخرطوم المغروز فى فمك وتنظر حولك :
 ما زال الليل هو الليل ، والعالم جهنم لا زال .. الطبيبان فى مكانهما
 محنيان عليك ، تتفرس فى وجهيهما فلا ترى غير بياض ، تنظر للسقف
 بياض ، للجدران بياض ، والأشباح العابرة بياض يسبح فى بحر بياض ..
 ربى ما هذا النور ؟ هل أشرق وجه الغد ؟ هل لاحت أبراج المدن
 النورانية ؟ أين النجمان على كفهما ميزان العدل وطير الحرية ؟ تفكر أن
 تدعو أصحاب السفر وتساءل أين العلاج ، وأين السيد ومسافر ليل
 وأميرة أحلامى المرة أين ؟ هل حملتها المركبة الى قصر الورد وهل تتطلع
 من شرفته للاتباع وللحاشية الملكية ؟

ربى ما هذا النور ؟ تتعلق بجناح الزرقة ، تسبح فى بحر الصفو
 الأزرق ، تسأل هل هذا طير الحرية ؟ أه لو يحملنى طير الحرية ، لو يبعدينى

عن أرض البشر الطينية ، أو يرميني في بحر الأبدية .. روجى تطفو
فوق البرزخ بين الأزل وبين الأبد أحزان القلب مصاييح تتألق فوق
الدرب وتأخذ بيدي .. أخرج من شرتقة العمر المقهور ، تطير فراشة
روحى نحو النبع المستور ، لتذوب بسر الأبرار ونور النور .. وحدى
الليلة وحدى أحثقل بليلة ميلادى ، لا الحلاج يعين ولا السيد فى الأفق
ينادى ، هل حان الآن أوان رقادى ؟ كاسى ممتلىء ، لازال وفيه بقية
انشاد ، وفمى صادى ، لازالت تشتعل النار ولكن تحت رمادى (١٠) ،
أتمنى .. ماذا أتمنى ؟ قبل رجوعى للمهد وقبل سقوطى فى اللحد ؟
أتمنى .. ماذا أتمنى ؟ آه ضاعت أمنيتى وتبخر وعدى ..

أبحر فى ذاكرة الأشياء وأتحد بقلب الأشياء .. لكن ذاكرتى
جرداء .. وانائى امتلاً وفاض وأفرغ مما فيه فصرت فراغاً وفضاء .. راهنت
على الفرس الجادج شائى شأن صحاب العمر ، وبكىنا وتعذبنا من أجل
عيونك يامصر .. من أجل الضحكة نرقبها فوق الوجه المغبر ، ياما ذرفنا
الدمع ونمنا فوق سرير السهد نعاين طلعة فجر حر .. حتى هجم تشار
العصر ونزعوا عين الحضرة والبسمة والسر .. آه يافرسان العصر !
اعترف بأنى يافرسان العصر ، يافرسان الموت المصفر ، أكرهكم من قلب
عشش فيه غراب الحزن المر .. كسرت أجنحتى - هل تقدر أجنحة فراش
الشعر ، أن توقف زحف جراد القهر ؟

ياما فكرت وكم سطرت .. هل تبقى الكلمة بعدى أم يبقى الصمت ؟
ياللكابوس ! خدر ملعون يهبط من رأسى حتى قدمى .. انى أنهار ،
أتخلخل مقرورا كالجبل الثلجى وأتفتت كالأحجار ، عينى يجلبها النور ،
القدر المخلى برأسى يلتف يدور ، ذاكرتى تتخلى عنى ، شعرى يتخلى عنى ،
ينحسر كظل عجوز هرم مقهور .. خذ بيدي يا أنت .. وأنت .. وأنت ..
ما هذا الليل الأسود فوقى تحتى حولى ، فى الجو حريق مسود والظلمة
تغلى ، أين صفاء الأفق ، صفاء البحر ، صفاء الموج وكيف تجوم أجنحة سود
حولى ؟ أين سفينى ، ساريتى ، أين شراعى مجدافى هل تغرق مثلى ؟ هل
خرج الطير الأسود من جنبى ، صعد فى الجو ، وهجم على ، أيبغى قتلى ؟
أبعده يا حلاج ، اطرده يا سيدى القادم بعدى ، واحم الشاعر من عضته
يا شعرى .. آه يخذلنى الكل وأرتعش وحيدا فى ريح الصمت وبرد الليل ..
يخذلنى الكل ولا يبقى الا الصمت .. الصمت .. الصمت .. أين رفيقة دربى ،
أين عيونك يا مى ؟ يا معتزة ان وحوش الليل تغر على .. الى أين صحاب
العمر النشأت كزجاج مكسور .. «أنا وقت مفقود بين الوقتين .. عمر
مفقود بين الماضى والمستقبل» .. أنتظر القادم ، أنتظر وأنتظر ، فهل يأتى
الآن ليأخذنى أم يأتى بعدى ؟ أنتظر وأنتظر ولاشئ يعين ولا أحد يعين

ولا يجدى . أفتح عين الشعر المحمرة فى سردابى - تفتح وردته المحترقة
عينا تنزف بعدابى - «قد كنت عطرا نائما فى وردتك - لم انسكبت ؟
ودرة مكنونة فى بحرها - لم انكشفت ؟ تهوى الوردة فى قاع البحر ،
يلتهم الدرة فك التنين . التنين التنين التنين . يا أصحاب العمر الى الى .

يا أحمد يا فاروق وعبد الواحد يا عبد الرحمن وعز الدين (١١) أغرق
فى بحر الحكمة ، أطفو أغرق أبلع أمواج الملح وملح الأمواج وأنكفى
وأثقياً أرتعش وأختنق وأغرق أين الحكماء وأين حكيم (١٢) ؟ أبحث عنك
« ياوردة الصقيع . أبحث عنك فى البحار فى القفار فى حدائق
الأطفال فى المقابر » . ياوردة الصقيع . ياوردة الصقيع . أبحث عنك
« يا مدينة الرؤى المنيرة . مدينتى التى تمج ضوءا ، مدينتى التى تشرب
ضوءا » - جنية المحال يا جنية المحال والجداول الطوال . جداول الضفائر
الطوال والخميلة التى وفى بلادى الناس فى بلادى جارحون كالصقور
كالصقور جارحون طيبون طيبون مؤمنون بالقدر . وحين يلتقون بالسلام
يلغظون جارحون طيبون كالصقور ، والطارق المثلث الشرير ، والأجلد
المنهوم طارق المجهول للمصير من تحت اللثام وجه بوم ، أواه يا مدينتى ،
يامى لاتخافى ، والنجوم ياواحدتى النجوم يا حبيبتى ، والقه الحبيب حظ
فوقه الغيلان أعداء الحياة لاتخافى ، وضع النطع على السكة والغيلان
وللسكة والرأس الوديع ، قريتى يا قريتى واحسرتى لم تأتد هجم التتار
واحسرتى الا الدموع والحيل تصهل قريتى أماه يا أماه قولى للصغار
للصغار والتتار والدمار لن نبيد للصغار ، حبيبتى زهران والحياة فى
مشارف الخمسين جارحون والصقور والصخور والحلاج ياوردة الصقيع
يا أميرتى وسيدى ياسيدى قد انسكبت كنت عطرا درة وهل يساوى ليها
ياليتها أغلى من العيون والعيون ليها يا عنتره يا عنتره وفى انكسار
والطبول والعيون والدمار يا أماه والصغار ليها حبيبتى يامى يا حبيبتى
فى هدأة السكوت كى أموت للغريب أن يؤوب أن يغيب للشعاع
واغتمضت اننى أسقيتنى أعض بالأسرار يا أماه يا حبيبتى الصغار للصغار
نجمتى يا نجمى الوحيدى أوحدى حبيبتى قولى لهم صغار والعيون يا صغار
قد سلمت ، ربما وربما فقيرة خزائنى حقول حنطتى مقفرة أسقيتنى
أسقيتنى يارب اننى أحببتها أعض اننى اختنقت بالأسرار اننى أحببتكم
والعالم الذى أريده حبيبتى أغلى من العيون ليها أحببتكم وطيبون
كالصقور جارحون قلبهم كاللؤلؤة ، وكاليتيم ليها من العيون انها ..
أغلى من العيون موحش يولد فيه الرعب والنجوم بالنجمين وضائين سيدى
ياسيدى النور والحرية التى أقول ما الذى لكم أقول الملك لك الملك لك
أسقيتنى والنور لك والحب والعيون ، والناس جارحون أين الموت أين

الموت فى بلادى فادح هذا المساء مدلى رباه يارباه حبل العدل داونى وفى
المدائن التى والعدل انها - خلصتنى - خلصتنى بالعدل والحرية العيون
فى غد تولد نفسى من جديد والغد الذى فى الفجر يا حبيبى بالعدل
يارفاقى طيبون العدل عادل وعادل والعدل ليتها والعدل والحرية . . .

١٥

يهوى يرتطم بقاع الحب وتعلو الدوامة . تصدم المفاجأة وجه الطبيب
فيرفع يده عن الجهاز ، يحنى رأسه ويرفع يده ويرسم علامة الصليب .
يدلهم وجه الطبيب الآخر ويعبل نحوك ، ينظر فى وجهك وتتمتم شفاته
ويرفع كفيه أمام وجهه . تجرى الممرضة وتصطدم بالأنايب النحاسية
وتجهش بالبكاء . لا يبقى الا الصمت وقطرات دموع تسقط فيه .

تختلج فراشات الحزن الأبدى ، تحوم فى سقف الغرفة ثم تحط
على صدرك . ترف عين الطبيب ويرفع وجهه ثم يخفضه ويصلب . ترف
عين الطبيب النحيل وراء النظارة السمكية وتتمتم شفاته . ترف عين
الممرضة الصغيرة التى جلست على الكرسي بجانب السرير وتبحث عن
منديلها الوردى . وتطل العذراء المكتئبة من خلف زجاج النافذة وتنسكب
أشعة وجه نورانى من أكفان سحابة . تدمع عيناها تدمع تدمع وتقول :

الليلة تولد فى القبر كما ولد يسوع

تبسم كأنك يا شاعر فى المهد رضيع

وتقبل مريم عينيك وفى العين دموع

تتقدم نحوك طيفا يتجول فى بستان الموتى . تتعطف عليك تقبل
نور جبينك . تسقط دمعها فوق الخد الناصع كالورد .

ترف فراشة كل الأحزان . ينهض من سافر فى الليل طويلا ثم
تكوم فى ركن الغرفة ، يخطو نحوك كالصنم الذاهل يتعثر فى حفر الصمت .
يقف أمامك ويتمتم كالأخرس فك القيد وحل العقدة وتحدى الموت .
ما زال يتمتم ويقول :

أنطقت لسانى يا مولاي الشاعر بعد دهور الصمت
فتحت العين على عشرى السترة وجنوده
الآن أعود الى الأسواق وأسعى فى رزق البيت
وأملد يرى لمطر العدل القادم ووعوده

يذرع أرض الغرفة محتقن الوجه سريع الخطو غضوبيا كالأسد
الثائر فى الأفاص • يتقدم منك كبطل مهزوم يسقط فى الفخ وينهض
يضرب جدران السجن ، العالم يصرخ يحلم بالنصر المحتوم • يتدلى الحزن
القائم من وجهه فرعونى صارم • يرفع يده ويشير يحركها الغضب الأزلى
الحبوس • يدمدم ويثور :

فى وجهك ألمح فجر اليوم المنتظر
وأبارك وجه السيد يأتى كالقدر
النجم يشير اليك : تعال ، ساكشف سرى
والأمل يطل من الظلمة كالطفل الضاحك كالقمر
من مثلك يغنى ويخلد فى نفس الوقت
قد ذهب الضيف وزال الخوف الآن عرفت :
ما بقى الشعر ومن يشعر فستبقى أبدا من أنت

وسيحيا سر الكلمات وتحيا أسرار الصمت
يخفق جناحا الفراشة وتهيم هنا وهناك باحثة عن منفذ • بدأ شعاع
الفجر يطل ، يفتح عينا والعين الأخرى مغمضة فى حضان الليل • يصطدم
جناحا الفراشة ورأسها الدقيق بالجدران والستائر ومقابض النافذة •
تسقط ، تتعثر ، يجذبها النور المصنوع تحوم بعيدا عنه ، تسقط فى
مستنقع أحزان العالم ، من يشعر بعذاب فراشة ؟ يشير الطبيب ذو الوجه
الأبيض الى الممرضة فتجفف عينيها المحمرتين بمندبها الوردى وسحب
الملاءة البيضاء من تحت قدميك وتغطيك • يتجه الطبيبان الى الباب ،
تتوقف الممرضة أمامك وتمسح بيديها دمة بللت طرف الملاءة • يخرجون
ويغلقون الباب • تبقى فى الصمت وحيدا ، تبقى وحدك • يتقدم منك
الشيخ صغيرا كخيال الظل البائس هرب من الجمهور الأرضى اليك •
يتعثر فى أغلال القدمين وفى قيد الكفين • ما زالت بقع الدم على ذقنه ،
ما زالت تلمع كعيون الرعب المحمرة فوق الثوب ، ما زالت كزهو الجرح
النازف فى شجرته الدموية • يخطو نحوك ، يكشف بأنامله المرتعشة
وجهك ، ينظر فى المرأة يسبح يدعو ويتمتم :

يا شاهد موتى وشهيدى
من فى الدنيا سيعوضنا عن شاعر ؟
قم يا ولدى لنسافر فالعالم كافر
يا صاحب دربى وحبيبي ..
فلنصعد للنور الصافى
ولنرجع برقاً وسحاباً
أمطاراً للقلب الجافى

يسحب الملاءة على وجهك ويتمتم ، يحاول أن يمسح وجهه فيصاقل
القيد . يسطع نور فى عينيه الشاحبتين ويهمس :
« يا صاحبي وحبيبي - هل يساوى العالم الذى وهبته دمك ،
هذا الذى وهبت » ؟

« تعود كى تنام فى حضن التراب ، تراب جدنا وأهلنا تنام ، تنام
فى سلام » .

« وقالت لك الأرض : الملك لك ،
تموت الظلال ويحيا الوهج ،
الملك لك ... الملك لك » .
« الانسان الانسان عبر »

« ومات ذلك الوديع دونما احتفال ، معلما ورائدا فى سنة
الكمال » .

« ومن موته انبثقت صحوتى
وأدركت يا فتنتى أننا
كبار على الأرض لا تحتها » .

« اننا الاغراب فى القفر الكبير
اننا ضيقنا وضائق روحنا
القطيع ،
غاب راعيه وطالت رحلته
وهو فى بيداء لا ظل بها » .



أبكى سهما أخطأ هدفه
ليلا من غير صباح
أبكى أول طير مات على الغصن
آه أيتها القيثارة
يا قلبا جرح عميقا بسيف خمسة (١٣) .



فى الخلاء المواجه للقبر
تجلس سيدة هى مصر
تداعب أطفالها الشعراء بغصن من الكلمات الندية
تقرأ وجه حصان يسافر فى الحلم
وجه فتى شقه سفر الليل
أيقظ فى قاعه حفرتين مبللتين بنار من الدمع
محشوتين برعب البشر .



وأحر قلباه :

كل المصابيح ترحل نازفة
ترحل الخيل .. والليل يبقى
يرحل السيف .. والبيد تبقى
يرحل الشاعر - الكلمات
ويبقى البكاء - الخديعة (١٤) .



نهر أنت يسارع نحو مصبه ، صوفى عجلان الخطو الى ربه ، صارعت
الموج صراع البطل البائس ، لم تنظر الا بنصيب الملاح البائس ، لكنك
عشت وجربت النشوة فى الابداع ، وكتبت شهادة ميلاد القادم من رحم
الأيام الحبل بالأوجاع ، جاء - وما كنا ننتظر بهذى السرعة ، لم نتحسب
وقع خطا البشعة • عشت الفن ، عرفت ، رأيت وألقيت بنفسك فى
النار ، لم تتركنا بعدك زادا لجراد العصر.الجرار ، ريشا فى وجه السيل
الزاحف بالمجد أو العار • يا ربان سفينتنا الغارقة تركت الدفة للتيار ،
هل يجرفنا الموج الجارف بعدك أم نصمد للعاصر ؟



ضاق كأس القلب المثقل عن فيض البحر ، فتحطم وتحطمتنا معه
وانداحت فى الرمل الغادر روح الخمر ، والمصباح انطفأ وما طلع الفجر ،
وا حسرة ليل يجمعنى ورفاق العمر ...



حزنك •• ماذا أكتب عن حزنك ؟ أين الكلمات تعبر عما يجرحنى
فى عينيك ؟ خرس كل لغات الأرض ولا تقصص عن سر عذابك أو شجنك •
تبصر ما لا نبصر ، تسمع ما لا نسمع ، لو كنا نعلم ما تعلم ، لأمتنا
الضحك على الفم ، وبكىنا ما شاء الدمع على القدر المفجع •



الشعر ملاذك ، بل منفاك الموعود ، وطنك فى غربتك على أرض
الوطن المنكود ، أمك وأبوك وصاحبك الأوحى ، يتخلى أحيانا عنك ولكن
لا يجفوك • يهرب أياها أو أعواما ثم يعود يعقد الحرف المنضود ، تعصف
حولك ريح الزيف ، تنكسر على صخر الرغبة والخوف ، يتغصن وجه
الزمن السيئ بالخلطة والارهاب ، تنطفئ قناديل البهجة فالليل خواء
وخراب • لكن الشعر يجرى اليك فيمسح فوق الرأس المتعب ، وترقرف
أجنحة الطير الوافد من بار ناس والأوليمب ونجد ويترب ، فتردد قيثارتك
أنين الجرح ونبض القلب •

بعد شهور الوحشة والبعث يعود اليك الصوت الشارد فى الصحراء •
بعد التيه اللاعب فى نثر الأيام المتشابهة يزورك طيف ملاكك ذى المنقار
الذهبي رقيقا كالعدراء ، يكتب آخر بيت فى شعر الزمن المقتول •
يكفيك من عناء الرحلة الوصول ، وأن نفسك التى تعذبت وجريت
نغير الوجوه والفصول ، قد أشرقت بنورها ونحن لا نزال فى غياهب
الغروب والأفول ...



عشت حياتك تتأمل معنى الموت وتحياه كما فعل حبيبك أفلاطون ،
 تلمس زحف الأفعى فى جسد الكون المحبوب الملعون ، زحف الدودة فى
 أصل الشجرة ، وأخذت تمد الكفين وتقطف منها الثمرة . لا ليس الكل
 بباطل ، ليس كقبض الريح ، كذب سليمان ووقع « المازنى » فى هاوية
 اليأس يشن أنين جريح . أحببت حياتك وحياة الناس ، كل حياتك لحظة
 صدق ، لحظة احساس ، وقضيت سنينك الخمسين على مسرح هذا العالم
 تتعثر ، تسقط ، تنهض ، تصرخ من أعماق الدهشة والألم القاسى : كوني
 يا نفسى من أنت ، وطنى هو هذا الوطن وأرضى هى هذى الأرض ، وهنا
 أقف وأتعذب ، وأثور وأرفض ، أبكى وأضحك ، أهتف أحيانا قد سلمت
 وتعروني رعدة ألم عذب وممض جربت جحيم العالم ، ذقت نعيمه ، حتى
 امتلأت كاسى واستغنيت وأتممت ، فاذا جاء الموت ووضع على رأسى التاج
 تبسمت ، وهتفت تعال وخذ ثمرتك فقد شيبها طول الحزن على شجرة
 الليل وشببت ، وينادى : أنت الحى الأواحد بين الأموات فما أبعدك عن
 الموت !



ما جدوى العيش ؟ ما جدوى الحب ؟ ما جدوى الفن ؟ ماذا أفعل
 ماذا أفعل ؟ أنا لا أملك إلا الكلمة والكلمة تسقط تحت حذاء الرخ
 المغرور ، تسقط كالطير ذبيحا تحت عيون الشعب المقهور . ماذا أفعل
 والسيف الأعمى لا يبصر ، والكلمة حقل مهجور مقفر ، ومثقف هذا العصر
 يدنسها ، يعبت بجناحيها ، يكسوها أفئدة زاهية كحواة السيرك ويقفأ
 عينيها كالطفل المأفون ، يحشدتها بالفرقة وبالجمعية كالبالون ، ويظل
 سؤالك عطشان فهل يرويه العلاج بدمه والمجنون ؟



نحن صحابك ورفاق طريقك : هل أخطانا فى حقك خطأ الصوفية
 والفقراء مع العلاج ؟ هل أحببنا كلماتك أكثر مما أحببناك ، فتركناك
 تموت لتحيا كلماتك ؟ لم نفهم أن اللفظة حجر واللفظ منية ، أن الكلمات
 مسيح يحيى الموتى أو مسخ وبغى تلد الموت . يا جرح العمر أجبنى ،
 قل لى : أرجوك الصمت . ضقت بأحوالى ضقت ، بليالى وأيامى المختنقة
 فى سحب الكلمة ضقت . فى كل مساء أنوى أن أهوى فى قاع الصمت ،
 أن أتوحد بالصوت الهاتف من أعماقى ، من أعماق الأرض بلا صوت ،
 أن أجمع أشلاء العمر المتفتت فى لحظة صدق أو حتى لحظة صمت ، ثم
 تطل عيون تستدرجنى للكلمة ، والكلمة موت ، آه ضقت بكلماتي وبصمتي
 . ضقت

عشنا في الألفاظ الجوفاء سنين ، نأكل نشرب نتجشأ ألفاظا ، حتى صرنا ألفاظا تقتات على جثث الباطل والبهتان . هل نتعلم من درس حياتك أن تقتصد قليلا في الألفاظ ؟ أن الكلمة ان لم تهد الى درب الفعل ، تصبح طبلا في كف أصم ولعبة طفل ؟ حقا كنا الأسياد وحقا كنا ، لا كان لما نلفظ معنى ، لما كانت كلمات العرب تحرك جيشا وتسير سفنا ، وتشيد علما أو تصنع فنا - حتى غصنا ، ساخت أرجلنا في المستنقع وغرقنا . « ربى ! كيف ترعرع في وادينا الطيب ، هذا القدر من السفلة والأوغاد » ؟

كى يعطى الكلمة معناها - اختار الحلاج الموت
كى تعطى الكلمة معناها - يا شاهد هذا العصر استشهدت
فمتى يتعلم صناع الكامة منك ؟

ومتى يصبح صنع الكلمة تضحية حتى الموت ؟
كيف نحول كلماتك أفعالا تمطر بالخير ؟ ماذا نفعل كى لا نترك شبح الفقر يعربد في الطرقات ويفجر ؟ - هه المينا كفك ، أدفئنا من أنفاسك ، لا تحرمنا صوتك وإشاراتك ، واسأل ربك أن يلهنا قول الحق ، ويؤيدنا - حبا فيك - بروح الصدق . ألهنا أن نخلع ثوب الألفاظ ونخرج للناس كما خرج الحلاج وسقراط ، أن نصهرها في نار الغضب ونغمسها في خبز الفقراء ، فلعل الرقبة تنجو من مشنقة الاحباط - ألهنا ، علمنا ، لا تحرمنا صوتك حتى نجلد ظهر الأحياء - الموتى بسياط وسياط ، حتى نخلو في عينيك ونبصر أنفسنا في مرآتك ، في مرآة الشعب ومرآة الله . . .

كيف رحلت يا أعز الراحلين ؟
متى تعود للقاء والحديث ذو شجون ؟ ان كان في الموت العزاء فلاكن اليك أول المسافرين .

يا كم دعوتني الحكيم ودعوتني المسيح ، كم مسحت كفك جرح قلبي الجريح ، وأدركت عينك أننى مقيد كسيح ، كأننى كالمشلول لا أعيش لا أموت لا ألوذ بالكتمان لا أبوح . غرقت في بحار علمي العقيم عطت جنتي المتون والشروح ، وكم طرقت باب حبك الكبير ، وكم طعمت يا أمير من مائدة السرور ، وعدت في الجراب كسرة لقلبي الكسير ، وقطرة ببل غلتي في وهج الهجر . وكنت ثم كنت يا صديق ، ولم أزل كجثة

الغريق ، مطفأة العيون في كهوف حكمتى العقيمة الدروب والجحور
والشقوق ، أبحث عن حقيقة تلوح ثم تنطفئ كأنها البروق ، أبحث عن
طريق ، ومن فؤادك الذى رأيت فيه الله والانسان يبدأ الطريق - فهل
ترانى بعد ما رحلت أبصر الطريق ؟



بدموعى تمتلىء العين ولا أجد عزاء ، يتسلل شيطان القلق لقرشى
كل مساء ، يحضننى ، يغرز قرنيه بعنقى ، يوحى ما يوحى من أسرار
الحمقى والحكماء ، فمتى أنجز وعدى لك يا خير أجبائى ؟ أمسكت بحبل
الصمت الممدود فلم يسقط ثمرى الموعود ، وتعثرت على درب الكلمة
والدرب قيود وسدود . جفت سحبي وتسرب مائى فى الأخدود - يا روح
حبيب العمر المفقود ، باركنى وامسح بيديك على رأسى المكدود ، فلعل
المطر يعود - لعل المطر يعود ..



كيف أصدق ؟

الرفاق يتلقون العزاء . أحضنهم ويبتل وجهى بدموعهم . فاروق
يعانقنى وتنداح المرارة الى فمى وقلبى مشلول مغلول مذهول . عبد الرحمن
ينشج فى ركن وحيد ، عيناه دموع تتحدر كالشلال .

النعش يقتحم الصفوف كالبطل المأسور ، تستند أكتاف الأحباب
وأيديهم . الفجعية على الوجوه التى ترفض التسليم . يا أيها الراكض الى
أين ؟ أهى دعابة جديدة ؟ أيمكن أن تكون جادا ؟ أطل برأسى النسرين الجميل
الجليل وأصرخ بملء صوتك المتهدج الجريح : ليس هذا عرسى ولا مائى .
انصرفوا .. انصرفوا .. يا صوت ضميرى وضمير بلادى ، أخرج من
هذا النعش وناد . أخرج لا تتمادى . أريد أن أدعبك . أسمع منك
عجائب العباد والبلاد والأحوال . والزمن عجيب يلد الخرافات العجيبة
- أهى خرافة جديدة ؟ هيا لا تسرف فى سخريتك . نادنى يا حكيم كما
ن فعل فى كل لقاء ، فالحكمة توجعك وتوجعنى فى زمن الحق الأسود .
أنثر ضحكائك نمسح عنى وحل الرحلة ، أشعل مصباحك كي أجد طريقى
فى ليل المحنة ، أدفى قلبى الغارق فى ثلج الحكمة ، حرك صنمه ، ابعث
فيه لعازر ، مره أن ينفض نومه ، ويواجه يومه . تعال نغادر هذا
المسرح ، هذا الوهم الأسود ، تعال بنا بعيدا لنثبت أن اللعبة وهم ، هذه
الغربة وهؤلاء المشيعون وهم ، فحضورك هو الحقيقة الوحيدة الباقية بعد
أن يشيع الميت وينصرف المثلون - تعال تعال فأنت حاضر لا تغيب .

عين الشمس لا تزال تسطح ، الريح تتنفس ، الطيور ترفرف في
السماء ، الأبطال تولد في كل لحظة والأشجار تنمو والعجائز يجرون
أقدامهم ويسعلون ، الكتاب يفكرون في عمود الصفحة الذي سيسودونه
والشعراء يضطادون عصافير الكلمات السود ويستعدون – لم أنت وحدك
ساكن هناك ؟ أ أنت الذي يحملون ؟ أم أنت الذي أحمله في دمي وألقاه
مساء اليوم حسب الموعد القديم ؟

لا لا لا . وهم . كذب . كابوس . أمشي في كابوس الخمسين وأنت
تطل على من الشرفة – شرفة مسكننا في مستقبل العمر – تذكرني بالعهد
القائم والعهد أمين (١٥) . سيذهب الجميع ثم تسدل الستار .

وأنت أنت فوق الوهم والتمثيل . أنت حاضر ولن تغيب . كيف
أقول كنت ، كيف أستطيع ؟ وأنت يا حبيب نبض القلب ، ومضة
العيون ، وأنت – ما حييت – ساكن في القلب والعيون ، وكائن ودائما
تكون ؟ ...

يا صاحبي وحبيبي

« قد كنت عطرا نائما في وردتك – لم انسكبت ؟ »

ودرة مكنونة في بحرها – لم انكشفت ؟ »

وهل يساوى العالم الذي وهبته دمك – هذا الذي وهبت ؟

لا . لا أقول قد رحلت بل أقول في غد سنلتقى كما وعدت .

(١٩٨١)

هوامش وملاحظات (*)

(١) كل ما بين فاصلتين صغيرتين من شعر صلاح عبد الصبور ، أما بقية السطور الشاحبة فهي منى : فراشات عاجزة تحاول أن تحوم فى نوره وترفر فى سمائه . وهذه البكائية تفترض الاطلاع على مؤلفات الراحل العزيز ، دواوينه لسته ومسرحياته الشعرية الخمس وكتبه النقدية والنقدية - وخصوصا سيرة كفاحه مع الفن « حياتى فى الشعر » - وهى محاولة لتقص وجدان الشاعر واعادة بنائه وهو على طريق رحلته الأخيرة ، منذ أن غادر البيت الذى كان مدعوا اليه بعد شعوره بألم شديد فى صدره حتى سقوطه فى الغيبوبة . واذا لم يكن قد قدر لى أن أصحبه على هذا الطريق ، فقد صحبتته على طريق العمر ، وعشت فرحه وجرحه فى مئات الأيام والليالى التى عشتها معه . لا شك أن تفاصيل السفر الأخير هنا مختلفة عما جرت عليه فى الواقع . ولكننى أسترجع الأحاسيس وأتابع خطى الحوار الباطن كما تصورتها من قراءتى لأعماله ومن واقع رحلة العمر لا من وقائع السفر الأخير .

(٢) هو بيت أبى العلاء المشهور :

وهل يابق الانسان من ملك ربه
فيخرج من أرض له وسما

وطالما تمثل به العزيز المسافر وردده ، وكأنه الحكمة الأخيرة والكلمة النهائية فى وجود الانسان . أما عن حبه الكبير رهين المحبسين فقد أكدته فى « حياتى فى الشعر » وتمنى أن يتفرغ لكتاب يشرح فيه بعض أشعاره ويأخذ بيد القارئ للدخول فى عالمه . واذا لم تخنى الذاكرة فقد نشر بالفعل فصلين منه فى مجلتى « المجلة » و « الثقافة » المحتجبتين ، وبقي حبه وارتباطه بالتأثر العظيم المهزوم أشبه بالحبل السرى الذى يربط الجنين بالأم والانسان بالأرض . ومن سوء حظنا أن مشروع هذا الكتاب لم يكتمل ، شأنه شأن عديد من المشروعات التى لم تر النور .

(٣) لم يعد سرا أن هؤلاء الأصدقاء الثلاثة هم على الترتيب : الشاعر الكبير أحمد عبد المعطى حجازى ، والشاعر المجدد أمل دنقل والناقد الجاد وأستاذ الأدب العربى جابر عصفور .

(*) تفضلت هيئة الكتاب بالقاهرة بنشر البكائية الى صلاح عبد الصبور فى ذكراه الأولى (أغسطس ١٩٨٢) ولكنها لم تنشر هذا التعقيب الطويل الذى طهر مع البكائية فى عدد مجلة الآداب البيروتية (ديسمبر - يناير ١٩٨٢) ولهذا رأيت اعادة نشره فى هذه الطبعة .

(٤) من قصيدة للشاعرة اليونانية سافو . وكنت قد أهديت كتابي عنها (١٩٦٦) للراحل الحبيب ، وتفضل بمراجعته في الصفحة الأدبية بجريدة الأهرام .

(٥) البيت لعبيد بن الأبرص .

(٦) مى ومعتزة هما ابنتا الشاعر الحبيبتان .

(٧) كانت جامعة كمبريدج قد وجهت الدعوة للشاعر ليحاضر فيها ، ولولا محنة لقمة العيش ولعنة البيروقراطية اللتان تلتهمان عمر المبدعين فى بلادنا لأتيحت له نعمة اللقاء بنفسه والبقاء أياما أو أسابيع فى جو العلم النقى والريف الهادئ والنفوس التى لم تفقد معنى الحب والاحترام .

(٨) مسرحية شعرية حدثنى الصديق المسافر مرتين أنه بدأها وكتب بعض مشاهد منها . وقد اطلعت بعد رحيله على حديث ذكر فيه أنه يعالج فيها مشكلة الأصالة والمعاصرة التى اشتعلت فى سنوات الهزيمة الأخيرة وعسى أن تنشر هذه المشاهد لتؤكد من جناية الروتين على الشعراء .

(٩) عنوان الذكريات التى دأبت مجلة « الدوحة » على نشرها فى الشهور الأخيرة وأرجو أن تظهر قريباً فى كتاب . وقد ذكرنى فيها وفى حياتى فى الشعر - كرماً منه ومداعبة حلوة - وأشاد بقراءاتنا المشتركة لبعض شعراء الغرب ، وأشهد أن كل لحظة عشتها معه ونعمت فيها بحضوره وحبّه قد كان لها كل الفضل على آخر نفس فى .

(١٠) السطور الأخيرة تنويكات على أبيات من قصيدة الشاعر مجاهد عبد المنعم مجاهد : إلى صلاح عبد الصبور ، روحاً حزيناً كالناس فى بلادى ، مجلة الدوحة ، عدد أكتوبر ١٩٨١ ، ص ٥٠ .

(١١) مجموعة من أصحاب العزيز الحاضر الغائب وأصدقاء عمره : الشاعر الناقد وأستاذ الأدب العربى الدكتور أحمد كمال زكى ، الروائى ودارس الأدب الشعبى العربى فاروق خورشيد ، القاص والكاتب الإذاعى محمد عبد الواحد ، الروائى والكاتب المسرحى وكاتب الإذاعة عبد الرحمن فهمى ، الشاعر والناقد وأستاذ الأدب العربى الدكتور عز الدين اسماعيل .

(١٢) كان صديق العمر يداعبنى بهذه التسمية التى لا أستحقها .

(١٣) السطور الخمسة الأخيرة عن قصيدة « الجيتار » للوركا.
وقد ذكرها في « حياتي في الشعر » ، وأضيفت عليها الإيقاع .

(١٤) المقطوعتان الأخيرتان عن قصيدة « حدث في النصف الثاني من الليل » وهي المراثية التي كتبها الشاعر العربي الكبير من اليمن الدكتور عبد العزيز المقالح ونشرت في جريدة الثورة في صنعاء .

(١٥) أقمنا - صديق العمر وأنا - في مسكن واحد في حي المسيل وحى العجوزة بالقاهرة ما يقرب من السنتين (بين سنتي ١٩٥٦ و١٩٥٧) عندما انتقل الى مسكن آخر بالقرب من دار روز اليوسف التي انضم الى هيئة تحريرها بعد استقالته من التدريس - واتجهت أنا في منحة دراسية الى ألمانيا - واني لأطل الآن بكل الحب والعرفان على هذه الأيام التي عرفت فيها الانسان الكبير والمتقف العظيم وأعيشها كما أعيش غيرها حاضرا حيا الى آخر نبضة في القلب وومضة في العين .

خاتمة :

لا أجد تعبيراً عن حياة صلاح وكفاحه لمعرفة نفسه ومجتمعه وعالمه خيراً من كلمات « روسو » في مقاله المشهور عن الفنون والعلوم : انه لمنظر جميل وجليل أن نرى الانسان يرفع نفسه من العدم بجهد الخاص، ويبدد بنور عقله تلك الظلمات التي لفته بها الطبيعة (لنقل : تلك الظلمات التي لفت بها الحياة العربية ، في ليل الهزيمة والقهر والتخلف والثرثرة) . انه ليرفع نفسه فوق نفسه ، وينفذ بروحه الى أطباق السماء ، وينطلق كالشمس بخطوات جبارة عبر الفضاء الشاسع للكون . أما الأمر الذي يبقى هو الأعظم والأصعب ، فهو أن يعود الى نفسه ليدرس الانسان ويعرف طبيعته وواجباته وغايته .

ومع أن هذه العبارات العاطفية المتحمسة لا تصور عذاب صلاح تصويراً دقيقاً ، الا أنها تضع أيدينا على هذه الحقائق التي لا يدركها الا أصحاب طريقه وجرحه : لقد استطاع أن يرفع نفسه بارادته من العدم العربي المحيط به الى الوجود الشعري الذي يبدد هذا العدم ، ولو في لحظات الخلق المتاحة . هذا الارتفاع فوق العدم الذي يغرق هو وزملاؤه المبدعون في مستنقع كل يوم - قبل الابداع وبعده وفي أثنائه - قد مكنه في نفس الوقت من العلو فوق نفسه المحدودة والمقيدة في أغلال المكان والزمان وفوق الموقف الأدبي والتاريخي والاجتماعي والسياسي الذي يحاصره . أما المناطق السماوية العلوية التي يذكرها النص فهي قصائده ومسرحياته وإيقاعاته الشعرية وقراءاته ومشروعاته - أي البديل الفني

عن ذلك العدم الذى نختنق فيه ليل نهار . وفى النهاية يعود صلاح الانسان الى نفسه بعد أن ينطفئ وهج اللحظة وتهوى أجنتها ، يعود لينعطف الى الداخل ويشتبك فى الصراع اليومى مع قبح الحياة اليومية كى يفحص طبيعته وواجباته وغايته .

هذه الحياة اليومية التى اختفت منها المحبة والتقدير والنقة والاحترام المتبادل ، وأصبحت لا تسمح بنمو حياة انسانية سليمة ، ناهيك عن حياة مبدعة ، وأتى على خضرتها جراد الكراهية والحقد والادعاء والثرثرة وعدم الاكتراث – هذه الحياة اليومية التى غطت وجهها الحجب والأقنعة الشائنة ، وظلت تمتد حبال مشنقتها كل صباح – كيف لا يدينها ويسجل علامات التصدع والانهيال فى بيتها الآيل للسقوط ؟ كيف لا يفصح القردة والأفاعى والثعالب المتربصة وراء الأقنعة (بشر الحافى !) ؟ – غير أن الشاعر الذى يحاول أن ينتزع نفسه من مستنقع الخراب والبلاء ليعتصم بلحظات البراءة والنقاء (يا من يدلنى على طريق الضحكة البريئة والدمعة البريئة) هذا الشاعر الذى يجوس عاريا مكشوف القلب فى أسواق المدن الجاحدة المتبلدة الحس – يشتاق على الدوام الى مدينته المنيرة « التى ينام فيها الأبناء فى أحضان الأمهات ، مدينة الرؤى التى تشرب ضوءا وتمج ضوءا ، مدينة المستقبل التى كتب على المغترين المحتجين منذ أفلاطون الى اليوم أن يحلموا بها وأن يتركوا العالم وهى جنين أسطورى فى بطن الغيب ! ويظل النقاد المتفائلون يدينونه بحزنه ، ويطالبون بطرده من المدن السعيدة التى يقلق نومها دون أن يكلفوا أنفسهم بالسؤال : ومن المسئول عن هذا الحزن كله ؟ – هذه المدن المقنعة المغترية عن نفسها ، كيف لا يباح للفنان أن يخترب عنها ؟ كيف لا يسمح له بأن يكون هو نفسه ويحقق هذا المثل القديم الذى تقوم عليه الحقيقة والأصالة ؟ أليس هذا هو دأب المفكرين والمبدعين فى كل زمان ومكان ؟ ألا نتحمل الخسارة الفادحة فى حاضرتنا ومستقبلنا اذا حرمانهم من هذا الترف البائس الضئيل : أن يقولوا لنا « لا » ولأنفسهم والقيم الباقية « نعم » ؟ ولكن مجتمعاتنا التى اختلطت فيها القيم وجثم عليها كابوس القهر وعبيده لا تطيق هذا . انها تربص بكل صوت صادق ، وتجدل مشنقة التعذيب لكل بادرة حياة . وهكذا يقع الابداع العارى من كل سند يحميه فريسة الكلاب التى تنهشه من كل ناحية : عبيد السلطة وخدمها وحشمها ، الثرثارين الكذبة من يمين ويسار ، البيروقراطيين زبانية الموت وسدنة الجمود والركود والتحجر ، أوباش العصر وجلاديه الجدد وطواويسه المزيفين الذين يجوسون بيننا كالكوارج ويبرعون فى رصف بيانات الادانة والاتهام قبل أن يتعلموا ألف باء الحب والعلم والفهم والاحترام (اذا فرغت جعبتهم الفارغة لم يعدموا

حربة يسددونها : شاعر مغترب عن مجتمعه ، غير ملتزم وغير تقدمي وميتافيزيقي وصوفي ووجودي !) وبدلاً من ضم صوتهم الى الأصوات الصادقة لرفع ركाम الظلم ورواسب التخلف وأقنعة البطولة الكاذبة تراهم ينادون – كما نادى أفلاطون قديماً بحسن نية أخلاقية ! بطرد الأصوات النقية التي تزعج أحلام المدن الغافية وفرسانها المهزومين ! هذا هو الأمر المحير في حالتنا اليوم ، كأننا قد التصقنا بأقنعتنا فلا نقوى على انتزاعها لنتحسس وجوهنا الحقيقية ، كأننا نصنع أغلالنا بأيدينا ونحب أدوار عبوديتنا التي نؤديها بلا وعي ، ونكره أن نكون أنفسنا ونواجه واقعنا ونحيا في النور والحوار والنتيجة هي هذه اللعنة التي عبر عنها طه حسين عندما قال اننا لا نعمل ولا نحب لغيرنا أن يعمل . فمتى نتعلم أن اليد التي تجرح هي اليد التي تشفى الجرح ، وان خلاصنا لن يتم الا بأيدينا ولن يتحقق الا بالعمل ؟ أقول العمل لا القول – العمل الذي نحقق به ذاتنا ومجتمعنا وننقذ أنفسنا وحاضرنا ومستقبلنا المهديدين بالخراب والانقراض .



لم يكده يمر يوم واحد على رحيل شهيد الشعر والعصر حتى اشتعل الجدل العقيم : من الذي قتله وكيف قتل ؟ ما التهم التي سددت سهامها الى قلبه حتى اختنق وخذلته طاقته على تحمل الجراح ؟ وأنا أنزه نفسي عن المشاركة في هذا الجدل ، كما أنزه الأصدقاء الذين كانوا معه في ليلة الوداع . فالثلاثة الذين كانوا معه أصدقاء أحمل لهم الود والتقدير . وحتى الرسام المجهول الذي كان معهم وسمعت أنه لم يتورع عن قذفه بأبشع التهم على مشهد من زوجته وابنتيه – أدعو الله أن يغفر له ويسامحه (يعلم رب الغيب حقيقة ما قالوه وما فعلوه . ولقد كنت على موعد اللقاء بالصديق المسافر في نفس اليوم الذي قدر على أن أشيعه فيه) لكل أجل كتاب ، ولم يبق الا التسليم . غير أن هناك حقيقة لابد أن أشهد بها وأشهد عليها كل المبدعين المخلصين في أمتنا العربية : لقد ظل صلاح يقتل طوال العشرين سنة الأخيرة ، وظلت الفخاخ تنصب له من جهلة اليمين وأدعياء اليسار (في الجو الذي تعذب فيه جيلنا التعس فقدت هاتان الكلمتان معناهما كما فقدت كل القيم معانيها ٠٠) وتبقى قضايا وأسئلة أكبر منا جميعاً : لماذا يقدر على أفضل أبنائنا واخوتنا أن يسقطوا ضحية الضنى

والقهر والتعذيب ؟ الى متى نضن عليهم بالكلمة الطيبة طوال وجودهم معنا ، فلا نقولها - ان قيلت على الاطلاق - الا بعد غيابهم عنا ؟ (*) .

كيف نسترد المقدرة على الحب والاحترام - على الأقل لمن هم أولى الناس أن نضعهم في حبات عيوننا وقلوبنا ؟ الى متى نظل أعدى أعداء أنفسنا ، والى متى نختنق بالصغار والادعاء وتطاول بعضنا على بعض ؟ هل كتب على الموهوبين أن يكونوا دائما ضحية الخطابين الفقراء من كل موهبة ؟ واذا صح ما يقوله الحلاج في هذه البكائية « يقتل كل الشعراء بكل بلاد الله » فهل كتب علينا أن نكون أبشع البلاد قتلا لأبنائنا المبدعين في كل مجال ؟! ألا يكفي أننا مهزومون حتى نهزم أنفسنا بأنفسنا ؟ أنحاول برفع أصواتنا القبيحة أن نتصامم عن أصوات أخرى أولى بأن ننتبه اليها : أصوات الآلات والحفارات التي تقيم المستعمرات والمستوطنات على أرضنا السليبية ، وأقدام العدو التي تدوس جثثنا الممددة بلا وعى ولا حياة ؟ ألم تدق ساعة العمل التي توقف طاحونة القول التي سحقته كرامتنا وتوشك أن تسحق وجودنا نفسه ؟ واذا كان قدر الأدباء والكتاب أن يتكلموا ويكتبوا فمتى تصبح كلمتهم فعلا وكتابتهم عملا أو دليلا يهدي الى عمل ؟ متى نتعلم من عذاب صلاح ورحيله أن الجو الذي لفظت فيه حضارات منقرضة آخر أنفاسها وأنها محتاجون - هنا والآن ! - لجو جديد يقوم على الحرية والحوار واحترام الانسان والعمل المبني على المنهج والعلم والحب ؟

أسئلة كثيرة لا أستطيع أنا ولا من أهم أفضل مني من الواقفين في الصف نفسه الذي وقف فيه صلاح أن نكتمها عن أمتنا . فمتى تفتح عينيك وعقلك يا شعبي المسكين ؟ ومتى تستيقظ للخطر الأكبر يا وطني الأكبر ؟



وبما قيل ان الراحل العزيز لم يلتزم بالتقدمية كما يفهمها أنصارها أو أدعيائها . ولكن لا شك أنه بقي محاربا صلبا للارهاب والاستبداد

(*) اذكر الصامتين من أساقفة الادب عندنا بأن عشرات الباحثين في امريكا وأوروبا يعكفون منذ سنين على دراسة أعمال صلاح وان الندوات فد أقيمت هناك بعد رحيله وأمامه الآن ترجمة جيدة لمأساة الحلاج بعنوان « موت الصوفي » قام بها أحد المستشرقين الألمان وراجعها صديقا نحى حبيب المقيم في برلين وينتظر صدور « مسافر ليل » عن دار النشر نفسها عن قريب اذكركم أيضا بأنه كان قبل رحيله المفاجيء يستعد لظهور عرض مسافر ليل والأمرة نسطر على بعض مسارح يوغوسلافيا والنمسا كما كانت الدوائر الأدبية في كمريديج ننظر بلبية الدعوة الموجهة اليه ليكون الأغراب أحن علينا من أنفسنا وأقدار على تقديرنا من بعض أعلننا ؟ بارب ! كيف أعطيتنا القدرة على كل هذا المجد ؟ .

والتسلط بكل صوره ، وأنه ربما تعاطف مع التقدمية لو أنها لم تأت على أيدي الجلادين بمختلف أشكالهم . لقد ظل عدوا لكل قهر أو الزام . لا لان الالزام شر أخلاقي فحسب ، بل لانه - كشاعر - لابد أن يرتاب في كل من يؤيده تحت أى شعار أو تبرير أو تعميم .

ان الشاعر لا يكون شاعرا جيدا أو رديئا لأنه تقدمي أو أيديولوجي ، بل لانه قبل ذلك شاعر أو غير شاعر . والفن ليس دعاية ولا يجب أن يكون . ولكن بغاوات العصر والسلطة التي تحكم قضايتها على أجهزة الدعاية تريد من الشعراء أن يكونوا دعاة . فلا عجب أن يصطدم الشاعر والفنان صاحب الضمير الحر والرؤية المستقلة بمثل هذه السلطة (التي يضطر أن يكسب لقمته في ظلها) ولا عجب أن ترتاب هي أيضا فيه وتسلط ببغاواتها لنهش لحمه والتربص به . ولكن القيم الفنية لا تخضع للقيم السياسية ، والموهبة المبدعة لن تكون حرة اذا وضعت يدها في قيود الاعتقاد المذهبي . ربما تقول الأجيال الجديدة من النقاد ان صلاحا وجيله ظلوا ثوريين رومانتيكيين في شعرهم ونثرهم وفرديين في رؤيتهم للحياة ، قد يكون هذا صحيحا وله أسبابه التاريخية والاجتماعية . ولكن هذه الأجيال - التي نتمنى أن تكون أسعد حظا منا - لا تستطيع أن تجردهم من اخلاصهم ووطنيتهم وصدقهم مع أنفسهم ودفاعهم عن قضية الحرية والعدل بمعناها الفني والانساني الشامل . لا شك أن للفن دوره في المجتمع ، وهو في النهاية نتاج هذا المجتمع . ولكن اغتراب الفنان العربي عن مجتمعه في السنوات الثلاثين أو العشرين الأخيرة ظاهرة واقعة تستحق الدراسة لا الادانة . ولا يجب أن ننسى أن الفن المغترب فن سياسى أيضا ، مهما ابتعد عن سياسة معينة ، وهو في النهاية تعبير عن مختلف الضغوط التي جثمت على صور الفنان وألجأته للاغتراب والاختناق بالعذاب والحزن والصمت . وبدلا من أن تقول ينبغي أن يكون شعرك أو فنك كذا وكذا ، علينا أن نكافح لازالة القيود عن طريق الشاعر والفنان ، وخلق المناخ الذي يستطيع أن يبدع فيه ويتحمل مسؤوليته . ان الفنان انسان قبل أن يكون صاحب مذهب . والوظيفة الأولى للشعر ولكل الفنون هي أن تجعلنا أعمق وعيا بانسانيتنا وبالعالم المحيط بنا . لا أدري ان كان هذا الوعي سيجعلنا أكثر أخلاقية أو أكثر فعالية ، ولكنه سيجعلنا بالتأكيد أكثر انسانية . يكفيننا من الشاعر أنه ينبهنا الى الوحوش التي تسعى في زحام المدينة (بشر الحافي) أو الوحش الذي يحكم عليها بالموت وهو نفسه جثة ميتة (بعد أن يموت الملك) . أما خطة العمل التي تجعلنا نتخلص منهم فليست وظيفته . ان الشعراء بطبيعة اهتماماتهم وصنعتهم الفنية - كما يقول « أودن » في مقاله عن الشاعر والمدينة - غير مهئين لفهم أمور

السياسة أو الاقتصاد . ان اهتمامهم الطبيعي ينصب على الأفراد والعلاقات والتجارب الشخصية . بينما السياسة والاقتصاد يهتمان بأعداد كبيرة من الناس ، أى بالمتوسط البشرى (والشاعر يضيق الى حد الموت بفكرة الانسان العادى) والعلاقات غير الشخصية وغير الارادية الى حد كبير . انه يحدثنا عن مدن المستقبل لا عن أزمات البطالة والتضخم والاسكان ، عن معاناة الانسان فى مجتمعاتنا الحديثة التى يتضائل فيها ويتشوه « ويتشياً » ويغترب ويمتحن فى كل لحظة فى انسانيته ووجوده الحقيقى الاصيل . لا عن العامل والفلاح والموظف ومشكلاتهم المحدودة . ورسائله هى تغيير ضمير الفرد وقلبه ووعيه ، أما تغيير ظروفه الواقعية فأمر متروك للسلطة والعلماء والمصلحين . انه يطرق أبواب الخلاص لا أبواب الإصلاح ، ويأخذ بأيدينا على طريق الحقيقة لا طريق الواقع المحسوس . والمهم – وليس هذا قليلا – أن يكون أميناً وصادقاً وقريباً من قلوبنا . .

أليس أمام الشعر اذا فرصة للفعل والتغيير ؟ أكان يمكن أن يظل العالم على ما هو عليه لو خلا من كل الشعراء ؟ وأليست قضية العدل الاجتماعى أهم من كل قضايا الفن ؟ وانصاف المظلومين والمضطهدين – أليس أجدى من عشرات الملاحم والدواوين ؟ – ولكن المشكلة تكمن فى فهمنا لمعنى الفعل والتأثير – لا شك أن العالم كان سيفتقر الى الحرية والعدل والجمال – أكثر من فقره الزمن فيها – لو خلا من أمثال هوميروس ودانتى . والمتنبى والمعري وشكسبير وجوته وموزار وبيتهوفن وشوقى وسيد درويش ولا شك أن واقعنا كان سيبدو أكثر قتامة وبؤسا لو خلا من صلاح وزملائه المجددين والمتمردين لقد قدموا لنا الشهادة الحقيقية على ظلم واقعنا وظلامه وتفاهته وتمزقه ، أما الفعل المؤثر الذى يغير منه فقد يأتى أو لا يأتى على أيدي غيرهم . والمهم أن قصائدهم نفسها « أفعال » باقية فى عالمنا ، قيم مؤثرة على قلوبنا وعقولنا ، تعطينا الحماية والأمان الخلقى والعقلى والوجدانى وتزيدنا وعياً بانسانيتنا . ان المثل الأعلى للشاعر والانسان هو الذى يقترب من وحدة الشعور والعقل ، والفكر والفعل . فكيف ننتهمه فى ظل القهر والتمزق بأنه حزين وسلبى ؟ أليس تجسيدا نقياً لحريتنا ووجدتنا المفقودة ، لعذابنا وتعذيبنا لأنفسنا ؟ والمجتمع الأمثل هو الذى يكفل الحرية الكاملة للاختيار الأخلاقى – فهل فى بلادنا نظام واحد وحيد يسمح بهذا المجتمع اللائق بالانسان ؟ ان الدعائى الثرثار ورجل السلطة الحديدى يتهمان الشاعر بأنه يعزف ألحانه فى الوقت الذى تحترق فيه روما (هذا ان كانا يشعران بأنها تحترق !) . وهما يطالبانه بأن يستغل قدرته على صوغ الكلمات فى اقناع الناس بما ينبغى أن يفعلوه . ولكن مهمة الشعر ليست هى اخبار الناس بما يفعلون ، بل مهمته – كما قدمت – هى تعميق

معرفتنا بأنفسنا وبالعالم الحقيقي : بالخير والشر ، بالجمال والقيح . بالحرية والعبودية . ربما استطاع بذلك أن يجعل ضرورة الفعل أكثر إلحاحا وأن يجعل طبيعته أكثر وضوحا ، بحيث يقودنا الى اتخاذ القرار العقلي والعمل والأخلاقي الحر - ومع ذلك فلا بد أن تقتصد في الكلام عن رسالة الشعر والتزام الشاعر . . الخ وغير ذلك مما ضيعنا فيه السنين الطويلة بلا ملل أو كلال . . ولا بد أن نقول لأولئك الذين يتجهون للشعر طلبا لرسالة أو برنامج اصلاح : انكم تطرقون الباب الخاطيء ولا بد أن نقول لهم أيضا أن الشعر يضئ ويكشف ولكنه لا يملئ ولا يعلم . ان الفنان لا « يحدث » شيئا بمعنى الفعل المباشر - اللهم الا أن يجعلنا نؤمن بالحياة ونفرح بها ونمجدها ويزيدنا وعيا بالحرية الانسانية لأن مجاله كما قلت هو عالم القلب لا عالم السياسة والاقتصاد .

ان المعذنين في الأرض (بتشديد الذال المكسورة) قد أرهقوا صلاح عبد الصبور بالكلمات الضخمة والشعارات الغليظة شأن كهان الأروقة الكذبة والخطابين الفقراء مع كل فنان ناجح موهوب . طالبوه بأن يعبر عن أفكارهم هم ، أن يضع آراءهم هم في شعره - فأى تعذيب للضمير الحر أقسى من هذا التعذيب ؟ ان المجتمع الموحد في العاطفة والأهداف والكرامة والآمال هو الذى يمكن أن يتفجر بالأدب الناضج والشعر الصادق هذا المجتمع الموحد الذى يكون فيه كل الأفراد كالبحارة المشاركين في سُد حبال السفينة هو الذى يحلم به الشاعر . فلنوحده مجتمعنا العربى ، ولننفض به من حضيض التخلف ، ولنداو جراح كرامته قبل أن نتهم الشاعر وندينه بسؤالنا : لماذا أنت حزين ؟ . .

ان الحياة كل واحد مؤلف من وحدات كلية ، تتألف بدورها من وحدات كلية أصغر . هناك العضو المفرد ، والفرد الانسانى ، وهناك الفرد والأسرة ، والأمة والعالم ، وكلها بنيان أو مجموعات على علاقة بمجموعات أكبر . وكل مجموعة على حدة مختلفة عن سواها ، لكن ليس لها معنى الا فى علاقتها بالمجموعات الأخرى . ليس هناك كل بغير الجزء ، ولا أى جزء بغير الكل . وكذلك ليس الكل مجرد محصلة للأجزاء ، وانما هو شيء جديد . هذه مسلمات استقرت اليوم فى العقل الحديث فلماذا نكررها هنا ؟ لأنه يحدث فى بعض الاحيان أن يعمل الجزء وكأنه ليس جزءا من كل أكبر منه (كما فى النشاط السرطانى فى الجسم الحى) والنتيجة فى هذه الحالة هى المرض المميت والتدهور والانهار . هذا ما حدث للمجتمع البشرى عبر التاريخ ، وهو ما حدث لمجتمعنا العربى فى السنوات الأخيرة . فقد الجزء صلته بالكل ، فقد المجتمع صلته الحميمة بالمجتمع المجاور له ، انفصل كل فرد واغترب عن كل فرد ، تورمت الأجزاء وبعض « الكلات »

أو الوحدات الصغرى تورما سرطانيا وغفلت عن علاقتها بالكل ، وفقد الوطن
الأكبر علاقته العضوية بالعالم الذى يعيش فيه . والنتيجة ؟ هذا التمزق
والضياع والانتحار المنذر بالانقراض ، وسط هذا الحراب يقف الشاعر
وحده . يواجه الزلزال والمباني المتصدعة ، عاريا فى مهب الرياح والأعاصير ،
يقف وحيدا عاريا ليقول لنا : أنتم محبوسون داخل أنفسكم ، معزولون عن
بعضكم ، تائهون عن الحقيقة ، تسعون وراء الشمس ، والشمس فى
ظهوركم . لا كل فى نظركم الا الأنا الصغيرة الأنانية . انى أعيدكم للكل ،
أرجع العضو لجسده . والفرد لمجتمعه ، والمجتمع لوطنه الأكبر ، والوطن
للعالم والانسانية . أنا ضمير التاريخ المثقل بالذنب . هل يسمع صوتى ؟
هل تتركنى حشرات السلطات والشعارات لأنتم أغنيتمى ؟ عودوا للكل –
لانسانيتكم . لوعيككم . لعالمكم . لحقيقتكم . أنا شاعر المحبة أقول لكم وأننبأ
بالموت وأبشر بالميلاد . قوموا ، احتجوا ، اختاروا وتحملوا مسئولية
الاختيار . اهتزوا . اقشعروا من فرقتكم وهوانكم . افعلوا شيئا .
انفجروا أو موتوا . أنا الشاعر : ضعيف ومعرض للخطر ، أقول كلمتى
وأتحطم . عشت أنادى بمجتمع الحرية والعدل ، وأحارب الهوان والقهر ،
وأحذر من رعب أكبر من هذا سوف يجرى ، تحركوا على صوتى كما يحرك
البحارة أيدبيهم بالمجاديف على ايقاع الأغنية المنطلقة من واحد منهم ، فيتحرك
المركب الواحد ويشق صدر الموج والريح . تذكروا انهيار الدولة العباسية
وتمزق دويلات المرابطين . ان الحرية والعدل والديموقراطية والعقل
مهدة . بل هى فى الواقع تخرب كل يوم . يجب علينا أن نختار ، يجب
على كل منا . قد تكون نظمنا سيئة ولا أمل فيها على الاطلاق . لكن لا يمكن
أن يخرب الانسان تماما ، ولهذا أتجه اليه وأتعذب من أجله . لعلمكم تحلمون
معى وتعملون فى سبيل مجتمع جديد ، مجتمع يكون كل فرد فيه قادرا
على الحب والفهم ، حتى ولو لم يحببني أحد ولم يفهمنى أحد . أنا لا أنصح
ولا أصلى الكون وانما أقدم التجارب والحكايات والأمثلة ، وعلى كل أن
يستخلص منها نتائج . أنا وقت مفقود بين الوقتين ، جسر مشدود بين
الماضى والمستقبل . تذكروا يا من تعبرون علينا ، أننا تعذبنا هنا من أجلكم
– لكيلا تنتهوا نهايتنا ، وليكون حظكم أسعد من حظنا أضنتنى شهوة
اصلاح العالم . تمنيت أن أترك هذا العالم خيرا مما كان عليه قبل مجيئى .
لكن القدرة كانت محدودة ، والأيام ضئيلة فاذا كرنى يا من تأتى بعدى ،
واحفظ عهد الشعر وعاهدنى أن تتسامح وتكافح . . .

(نوفمبر ١٩٨١)

اللمعة الخامسة :

أوفيليا : ماذا فعلوا بك ؟

الدمعة الخامسة :

أوفيليا : ماذا فعلوا بك ؟ ..

على الموج الهادئ الأسود حيث تنعس التجوم
تسبح أوفيليا الشاحبة كزهرة سوسن كبيرة ،
تسبح فى بطء شديد ، ملتفة فى وشاحها الطويل ..
ومن الغابات البعيدة يسمع صوت الصيادين : « ها لا لا .. »
ها هى أوفيليا الحزينة منذ أكثر من ألف عام
شبح أبيض يعبر فوق التيار الأسود الطويل ..
منذ ألف عام يهمس جنونها الحنون
بأغنيتها الخيالية لنسمة المساء
الرياح تقبل نهدىها وتنشر وشاحها الكبير
كأنه اكليل زهرة تهدده المياه الناعمة ،
الصفصاف المرتعش يبكى على كتفها ،
وعلى جبينها الكبير الحالم تهجع أعواد البوص .
ورود الماء اختلجت من لمستها تنتهد حولها ،
أحيانا توقظ عشا فى شجرة حور نائمة
فتفلت منه رعشة جناح صغيرة .
- أغنية غامضة تهبط من النجوم الذهبية .



ها أنت يا أوفيليا الحزينة الشاحبة تسبحين فوق أمواج النهر الشاحب.
 الحزين كزهرة سوسن كبيرة تهددها المياه الناعمة ، الصفصاف المرتعش
 يبكي على كتفيك . وعلى جبينك الناصع الكبير ترقد زهرة الحب البريء .
 تسبحين من ألف عام ، أغنية غامضة تهبط علينا من النجوم الذهبية .
 وشاعر حديث اسمه « رامبو » همس بأغنيتك التي تردد أصداء جنونك .
 الحنون . كان تقيا وبريتا مثلك ، طفلا قلقا رآك في ألق النجوم :

والشاعر يقول انه رآك في ألق النجوم

باحثة ، بالليل ، عن الزهور التي قطفتها يداك ، ويقول انه
 أبصر أوفيليا الشاحبة طافية على الماء ، مكفنة في وشاحها
 الطويل كالزنبقة البيضاء !

نعم ! مت يا طفلتى عندما جرفك نهر أسود طويل . وقبلها غرق
 عقلك في لجة الظلام والجنون . ونحن نسأل اليوم ولا ندرى لمن نوجه
 السؤال : من المسئول عن جنونك وعن غرقك أينها الزنبقة الطاهرة
 البيضاء ؟ أهو الحب الذي خاب أملك فيه ، حبك للفارس الحزين ، لهاملت
 الشجاع النبيل المسكين ؟ أم هو أبوك بولونيوس الذي جئت عليك
 حكمته الحتماء حين حولك الى فخ لثيم ، ووضع على وجهك الجميل قناع
 التجسس على الحبيب المكتئب المذهول ؟ أم تراه هو الملك كلوديوس الذي
 اغتصب العرش والملكة والملكة الثعبان المتوج الذي نفت السم في جسد
 الدولة ، والدمل الكبير الذي نشر الصديد في عروق الحياة والمجتمع ثم
 وجدت نفسك في بؤرة تطفح بالجشع والطمع ، والفساد والعفن والتآمر
 والتلصص ؟ من نسأل من هؤلاء ومن نتهم ؟ هل جنى عليك أحدهم
 أم كلهم مشارك في الذنب والجناية ؟ أتكون مأساة الحياة نفسها هي التي
 عجلت بمصيرك ومأساتك الحياة التي نخر الفساد جذورها ، وحاصرتها
 الأبخرة الموبوءة فخنقت أنفاسها ، وهبت عليها رياح الفجور فأطاحت
 بفضائلها ؟ أم أنك قد كنت من البراءة بحيث لم تتحمل الحياة مع البشر
 وكنت الوحيدة التي لم تسقط ولم تتلوث في عالم ساقط مسموم ، ولهذا
 لم يبق أمامك الا أن تلوذى بالجنون ، وأن يسلمك الجنون الى الموت ؟
 اعتل الزمن وتفشى المرض في كيان الطبيعة والدولة والمجتمع . فتعالى
 نحلم بالحب وبالحرية قبل أن تفيق منه تحت سطح الماء « تعالى نصحب
 خطواتك على طريق الحياة التي كنت شاهدة عليها قبل أن تصبحي
 شهيدتها . تعالى نبداً من غرفة في منزل أبيك وأنت تودعين أخاك قبل
 سفره بقليل

تسلل الحب الى قلبك كأنه طيف لطيف شريف . وتسملت معه
الحيرة من هذا الضيف الرقيق المخيف . ويسارع أخوك « لا يرتس » الى
تحذيرك مما يديه لك الأمير هاملت من بوادر الحب وينصحك أن تبقى
وراء عواطفك ، بعيدة مرمى الشهوة والخطر :

لا يرتس : أما عن هاملت وما يمنحك من تدليل فلا تحسبه
الا مجاملة ونزوة عابرة :

بنفسجة فى ريعانها

قد تبدو فى نضارتها ، ولكنها لاتدوم

وقد تزكو رائحتها ، ولكنها سرعان ما تذبل

أن شذاها وحسنها لا يعيشان

أكثر من لحظة واحدة ..

أنه يخاطب فيك العذراء الغريزة التي مهما بالغت فى الحذر فهي
تسرف فى الاهمال ان كشفت القناع عن جمالها للقمر ولهذا يطلب منك أن
تخشى الأمير ولا تعرضى شرفك للضميم ان ضيعت قلبك من أجله ، أو أصغت
أذنك الساذجة لأغنيات حبه نصائح لمن لا يحتاج الى النصيحة ، يقدمها
من سيغرقه أبوك بعد قليل بسيل حكمته العميقة العقيمة التي لا يقدرها
الشباب الا بعد أن يقعوا فى شرك التجربة . ولهذا تبسمين وتقولين
لأخيك

أوفيليا : سأجعل معنى هذا الدرس النافع

حارسا على قلبى ، ولكن يا أخى الحبيب

لا تفعل ما يفعله الواعظ الأثيم

اذ يدل الناس على الطريق الوعرة الشائكة الى السماء

بينما يسير على طريق الشهوة المحفوف بالورود

كالفاجر الوقح الخليج

ويهزأ بنفسه من النصيحة التي يقدمها لغيره

ويأتى أبوك - وزير الملك الأول وكبير أمنائه - فيشتد عليك
بالنصيحة والتحذير . سألك عما سمع عن لقاءكما فاقترفت بما قدمه لك
الأمير من عروض تدل على ميله اليك . ويسخر منك الأب ويقول :

بولونيوس : ميله ؟ انك لتتكلمين كفتاة غريرة خضراء ، أتصدقين
هذه العروض كما تسمينها ؟ وتجيئين اجابة خضراء كما
سماك أبوك . وزقرات الحيرة تتردد مع كلماتك الحاترة : -

أوفيليا : لست أدري ياسيدى ماذا أصدق ..

لقد محضنى حبه الشريف
ودعم قوله بأقدس الوعود

بولونيوس : شواك لصيد العصافير !

هذا التوهج الذى يبعث من النار
أكثر مما يبعث من الدفء
وينطفئ بنفسه قبل أن يشتعل
لا تحسبيه يا ابنتى نارا

أما عن الأمير هاملت فلا تصدقنى من أمره الا أنه شاب
وجملة القول يا أوفيليا
لا تصدقنى وعوده

وخذى حذرك . هذا هو قولى لك
والآن انصرفى لشئونك

أوفيليا : السمع والطاعة ياسيدى

وازدادت عليك الحيرة يا أوفيليا . فأبوك وأخوك ينصحانك بتجنب
الأمير . بل يزينان لك الحذر منه والتوجس فيه ، ويأمرانك بالامتناع عن
قبول رسائله ورساله وهداياه لكن نبضات قلبك تحدثك بأن حبه شريف .
وتجلسين فى غرفتك أيتها العذراء فتنسجين مع الثوب الذى بين يديك
خيوط العشب الدافئ فى شجرة الملك والمستقبل الهنيئ . ويفاجئك
الأمير بزيارته فترين ستترته المفكوكة الأزرار ، ورأسه الحاسر ، ووجهه
الشاحب فى مثل شحوب مرضه ونظراته التى تقطع القلب من الألم كأنما
أطلق سراحه على النو من الجحيم ليروى الأهوال . وتفزعين الى أبيك .
بولونيوس : أجن حبا بك ؟

أوفيليا : لست أدري ياسيدي ولكنى فى الحقيقة أخشى أن يكون
تذلك ..

لازلت لا تدرين ولكنك تخشين عليه وتشفقين آكان الأمر فى حاجة
الى معرفة أو دليل ؟ ألم يكن الصمت والذهول لسان حاله الوحيد ؟
يسألك أبوك عما قاله لك فتجيبين :

أوفيليا : أخذنى من معصمى وضغطه ضغطا شديدا ثم ارتد عنى
الى الخلف طول ذراع ، رافعا يده الأخرى مفتوحة فوق حاجبيه ، وراح
يحدق فى وجهى بامعان حتى لكأنه يريد أن يصورنى . ومكث طويلا على
هذه الحال ، ثم هز ذراعى برفق ورفع رأسه وخفضه ثلاث مرات ، وأرسل
زفرة عميقة خلقتها قد هزت كيانه وذهبت بروحه ثم خلى سبيلى وصار
عننى ورأسه ملتفت الى واستمر فى السير كأنه بغير حاجة الى عينين تثيران
له الطريق وخرج من الباب دون عون منهما وبصره معلق بى ضياؤه حتى
اختفى ..

بولونيوس : تعالى معى . سأذهب الى الملك .

هذا هو جنون الحب بعينه ..

وتظنين به الجنون وتصدقين .. بل تحاولين مساعدته بكل سبيل
على الرغم مما أوصاك به أبوك ، وما كان لك الا أن تطيعيه . ويأخذك
معه الى الملك والملكة ليخبرهما بنبا انطلاق الشرار خشية أن تندلع النار
صحيح أنه يتصور ، بما طبع عليه من حنان الأب وبصيرته ، أنه قد جن
بسببك ، فلما صدقته عن نفسك أصابه الأسى ، ثم حرم على نفسه الأكل
والنوم ، ثم أصيب بالهزال ثم تودى فى الجنون الذى يهذى فيه ويبكي
عليه الجميع . ويعرض أبوك على الملك والملكة الدليل على جنونه . والدليل
رسالة بعثها اليك وسلمتها طائعة لأبويك :

بولونيوس (يقرأ الرسالة) :

ارتابى ما شئت بأن الأنجم من نار

وارتابى فى دوران الشمس

فى أن الحق كذوب ، وأن الصدق يقول البهتان

لكن لا ترتابى أبدا فى حبى

لكن أباك – بما اكتسبه على مر الزمن والتجربة من حنكة رجل
البلط الحبيثة – ينصح بتعقب مظاهر الاضطراب واكتشاف مكن الحقيقة

حتى وان اختفت فى باطن الأرض ويدبر مع الملك تدبيره ، أم من ظنم .
الآب لابنته ! هل عرف هو نفسه مداه ؟ هل أدرك أنه يسدد الطعنة الى
قلبك ويثد فيه براعم الحب الوليد ؟ لن يكتفى بأن يتجسس على هاملت .
سيؤكد للملك خضوعه وحسن أدائه ، لوظيفته . وسيجرك مع على
المنحدر الخطير . سيقول وما أقطع ما يقول :

بولونيوس : سأطلق عليك ابنتى
ولنختبئ عندئذ وراء الستارة
ونرقب المقابلة . . .

دبر الشيخ فأساء التدبير . فرض عليك أن تمتلى دورا لم تخلق .
له ، ووضع على وجهك الجميل قناعا هو منه برى . لم يكتف بإبعادك
عن طريقه ، بل جعل من براءتك وتقواك فخا يطبق عليك بمصيدة تكشف
عن حقيقة جنونه .

بعد أن يلقي الحبيب المذهول المتشبه بثوب الحداد نجواه المشهورة:
أنحيا أم نموت ، ذلك هو السؤال ، ينتبه فجأة الى وجودك فيهتف :

هاملت : أوفيليا الجميلة ! أيتها الحورية . فلتذكر صلواتك كل
خطاياى . . . وتذكرين لقاءكما الأخير ، وربما أحسست بالذنب
لما بدا عليه من ذهول ، وربما بلغك ما أشيع عنه فى البلاط من جنون .
لقد قالت عنك الملكة - وهى الأم الطيبة رغم كل شيء اذا كان جمالها
الطيب قد أذى الأمير ، وربما تعيده فضائلها الى طريقه المعتاد - لم تكونى
هناك حين قالت ذلك وحين أحكموا المؤامرة . ولكن لابد أنك قد حاولت
بنفسك أن تعيده الى الطريق . ويجرك الأمل خطاك فتسألينه كيف
كانت أحواله فى الأيام الأخيرة . وتحاولين . - نزولا على أمر أبيك لا على
صوت الطائر الملهوف فى صدرك - تحاولين أن تردى له هداياه فيفاجئك
بقوله :

هاملت : لا . لا . أنا لم أعطك شيئا قط . .

وتحاولين أن تذكريه بأنه قدمها اليك ومعها كلمات عطرة الأنفاس
زادت من قدرها . ولكنه يصدمك بسؤاله :

هاملت : هل أنت عفيفة ؟

أوفيليا : سيدى !

هاملت : هل أنت جميلة ؟

أوفيليا : ماذا تقصد يا سيدى ؟

هاملت : أقصد ان كنت عفيفة وجبيلة ، فلا يصح أن يسمح عفافك
بأنى صلة بجمالك .

أوفيليا : وهل يتصل الجمال بمن هو خير من العفاف ؟

هاملت : طبعا فقدرة الجمال على تحويل العفاف الى سبيل الخنا
والفجور أكبر من قدرة العفاف على جعل الجمال على صورته . قديما كان
فى هذا القول ما فيه من تناقض ، أما اليوم فإن الزمن يؤكد صدقه .
لقد أحببت يوما ما . .

أوفيليا : يقينا يا سيدى . وقد حملتنى على الاعتقاد بهذا . .

هاملت : كان عليك ألا تصدقينى . فمهما طعمت الفضيلة جئنا
، لنقدم فلن نتخلص تماما من طعم الخطيئة الأولى . . أنا ما أحببتك
أبدا . .

أوفيليا : اذا فقد خدمت . .

هاملت : اذهبى الى الدير ! فيم حرصك على أن تصيرى أما لعصاة
آثمين ؟ ها أنا فيما أظن رجل شريف ومع ذلك فباستطاعتى أن أتهم نفسى
بأنام يخيل الى معها أنه ربما كان من الخير ان لم تلدننى أمى . انى لشديده
الكبرياء ، حريص على الأخذ بالثأر ، عنيد الطموح : ورهن اشارتى من
الآنما ما يعجز فكرى عن حصره ، وخيالى عن تحديد شكله ، ووقتى عن
تنقيده أى نفع يرتجى من زحف أمثالى بين السماء والأرض ؟ نحن جميعا
أوغاد أنذال ، حذار أن تثقى بأحد منا . هلمى ! حتى الخطأ الى الدير !
أين أبوك ؟ هل سألت نفسك عن السر فى سؤاله المفاجئ عن أبيك ؟
لقد لاحظت حفيف الستارة فأدرك أن وراءها عينا أخرى من العيون التى
صارت تتربص به . وكذبت كذبتك البيضاء الوحيدة فقلت :

أوفيليا : فى البيت يا سيدى . .

(ويشند هياجه فيصيح) :

هاملت : أوصدى الأبواب عليه حتى لا يقوم بدور الأبله الا فى بيته .
الوداع !

وتهمسرين فى حيرتك :

أوفيليا : أيتها السموات ! أعينيه وأعيديه الى رشده !

لكن بركان ثورته لا يتوقف عن ارسال حممه على رأسك الجميل .
انه يشتد في حملته عليك وعلى جنسك كله ، ليشفعها بنصيحته البشعة :
اذهبي الى الدير ! (ولقد كانت كلمة الدير في لغة العصر تفيد كذلك
معنى الماخور) .

هاملت : اذا تزوجت أعطيتك مهرا هذه اللعنة : كوني عفيفة
كالجليد ، نقية كالثلج فلن تنجى من المذمة . اذهبي الى دير . أما اذا
اضطرت للزواج فتزوجي أحد البلهاء ، لأن العقلاء يعلمون حق العلم
أنكن تجعلن منهم وحوشا ذات قرون . هلمى الى الدير وأسرعى !
ما السر وراء هذا الغضب الهائل ؟ ولماذا يتدفق سيله على رؤوس
النساء أجمعين ؟

هاملت : لقد سمعت كذلك كيف تصبغن وجوهكن . أعطاك الله
وجها واحدا ، ولكنكن تصنعن لكن وجها آخر . تتصنعن الرقص والمشي ،
وتتكلفن في الكلام ، وتخلعن على مخلوقات الله أسماء من ابتكاركن ،
وتجعلن الجهل عذرا للخلاعة . اليكن عنى . وكفانى هذا ، فقد أصابنى
الجنون أتسمعين ؟ هلمى الى الدير ! اذهبي !

ولا تملكين وقد تركك وحدك الا أن تندبى العقل النبيل الذى هوى ،
وترثى لرجاء الدولة وزهرة أملها التى ذوت ، وتبكي مرآة الذوق والرقعة
التي تحطمت ، وقبل كل شيء : حلم العشب الدافئ الذى سقط على الأرض
وتناثر أمام عينيك :

أوفيليا : وأنا أتعس النساء وأباسهن ،

أنا التى رشفت غسل وعوده

أرى الآن هذا العقل النبيل الزفيع

وقد اختل اختلال أجراس عذبة

فراحت تتحشرج بالأصوات المنكرة

وهذه الصورة الفريدة للشباب اليافع

يعصف بها الجنون

ياويلتى لما رأيت

ويلتى لما أراه . . .

أى عنف أشد من هذا العنف ؟

أى مرارة أقسى من هذه المرارة ؟

كيف أمكنه أن يخاطبك بكل هذه الغلظة ، أنت يامن طالما سألك
أن تدعى له فى صلواتك بالغفران ؟

كيف أمكنه أن يتنكر للحب الطاهر الذى اعترف بأنه ملك عليه
قلبه فيما مضى ؟ ومن أين واثته القوة الوحشية التى جعلته ينتزع جذوره
من دمه ويلقى بها فى وجهك ؟

أنت يامن سماك «ابنة السماء ، معبودة روحى ، أوفيليا
الطاهرة» ؟

وليت الأمر توقف عند الغلظة والقسوة ولم يترد فى هاوية الجنون .
هذا الذى كان رجاء الدولة وزهرة آمالها . ألم يكفه أن يحطم قلبى فحطم
عقله أيضا ؟ والذى أحببته وأحبه الشعب كله ، هل فقد التف فى كل
شيء وكل انسان ؟ ألم يعد يرى من حوله غير ظلام فوق ظلام ؟ كيف
تخلت عنه بصيرته النافذة فلم يعد ينظر فى أعماقى ؟

وتقفين لحظات حائرة حتى يظهر أبوك والملك من خلف الستارة .
انتبهت الى ما يقولانه عن شكهما فى الجنون المزعوم ؟ هل آلمك أنه لم يجن
بسببك ؟ وهل — فهمت وهما يدبران لنفيه الى بلد بعيد — أنهم ورطوك
فى التدبير ؟ هل أدركت الآن سر ثورته عليك وهو يرى القناع الذى
وضعه على وجهك ويمد يديه لينتزع فيكاد يسلم مع اللحم ويفجر
الدم ؟ أم تراك لم تكتشفى شوكة الحقيقة الرهيبة التى تدمى فؤاده :
الجميع يمثلون وأنا أيضا أمثل دورا وأتى بالمثلين الفقراء الجوالين لكى
أعزى وجوه الممثلين ، لكن يا رحمة السماء ! هل يمكن أن تشتبك أوفيليا
فى التمثيل ؟ هل يمكن أن تصبح «السماوية معبودة روحى» عينا تتجسس
على نجوى القلب وتتطفل كاللص على مكنون النفس ؟ حقا حقا ! فسدت
الطبيعة وأنهار الناموس ، خرج الزمن عن محوره فكيف أعيده الى نصابه
ومجراه ؟ سقطت كل القيم وساد العدم وصار الظلام .. لكنى سأتحمل
عبئى وأواجه المحنة وحدى .. وينصرف الأمير اليأس فى ثورته ، الناثر
من يأسه .. وتقفين حائرة لا يدري أحد ان كنت قد فكرت فى شيء أو ان
كنت لزمت الصمت عن القول وعن التفكير .. العالم أيضا فى عينيك

ظلام والعالم - بعد جنونك يا هاملت - محض جنون وحطام .. وتنتبهين
من الحلم المفزع على صوت أبيك :

بولونيوس : والآن يا أوفيليا ..

لا حاجة لإعادة مقاله الأمير هاملت فقد سمعنا كل شيء ...



وبد عقلك الجميل ينفصل عنك . هذا العقل الذى لسنا بغيره سوى
صور ووحوش . هل التمسست العذر لهاملت على سيل اللحم التى صبها
على رأسك الصغير ؟ انك لم تستحقى كل هذا الغضب وكل هذه القسوة .
وما كان لك أن تعصى أباك الحبيب . لكن الحب قد ضاع الى الأبد وسيضيع
كذلك الأب الحبيب . وأنت يا أوفيليا تهيمين فى رياض جنتك العذرية ،
لاتدريين بالآلام التى عذبت نفس الأمير المسكين . لاتعرفين أنها غرقت بين
الاكتئاب الذى سمم دمه وعقله ، وبين الرغبة فى الثأر لقتل أبيه الذى لم
ترى شبحه الحزين . وبما أحسست بهواجسه وشكوكه . لكنك لم
تتصورى أبدا أنها ستصل به الى الشك فى حبك . وخرجت من جنتك
الى الأبد عندما قتل أباك . لم تكونى معه عندما صب سيل غضبه على
أمه . ولم تشعرى باله عندما اكتشف أن القتل الذى تخفى وراء الستارة
لم يكن هو رأس الأفعى ، لم يكن هو الدمل الكبير الذى سمم صديده
عروق المملكة ، والذى عاش حياته وكرس جهوده لفنه بضربة سيفه
القاضية كان المقبول أباك . وحزن الأمير الحبيب ، لا لأنه جدير بأى محبة
أو تقدير فهو يد الدس التى أرسلها الملك فى أعقابها - بل لانه والدك
أنت - والد أوفيليا الطاهرة التى أحبها كما أحبت . وان عجز من فرط
التأمل والتألم عن الاحساس بمدى حبه ...

وخرجت من جنتك الى الأبد ...

واستدعاك الملك والمملكة فرحت كهذين بغناء لا يفهمه أحد ، لأن
الجميع - بما فيهم محبوبك - مشغولون بالتأمل والتدبير ، بالتمثيل وكشف
التمثيل ، بالكر والتزييف والخداع الذى أفسد الحياة وكان دائما - دون
أن تدري - هو طابع الحياة .

وحذقت الوحوش الآدمية فى وجهك البرئ وخصلات شعرك
المضطرب الجميل وأنت تغنين :

أوفيليا : سافر الموت به ياطفلتى

ونما العشب على أجفانه
واستراحت فى ثبات صخرة
عند رجله وفى أحضانه

الملكة : ولكن يا أوفيليا ..

أوفيليا : أرجوك اسمعى :
كفنه فى رداء أبيض
فبدا كالثلج فى أكفانه

الملكة : أنظر اليها ياسيدى ..

أوفيليا : وتزيا النعش بالورد شذى
وسوى الموكب فى أحزانه
وبدا القبر فمدت شوقها
أدمع حرى الى جثمانه ...

الملك : كيف حالك يا جميلة ؟

أوفيليا : بخير والحمد لله . يقولون ان البومة كانت ابنة خباز ،
اننا يامولاي نعرف مانحن . لكننا لانعرف ماسيؤول اليه .
بارك الله مائدتك !

الملك : انها تقصد أباهما كم مضى عليها وهى على هذه الحال ؟

أوفيليا : أرجو أن يتم كل شئ على خير . علينا أن نتمسك بالصبر .
لكننى لا أملك الا البكاء كلما تصورت أنهم سيقردونه فى
الأرض الباردة . سيعرف أخى بالأمر . ولهذا أشكر لكم
نصيحتكم الطيبة . تعالى يا عزيزتى ! تصبحن على خير
ياسيداتى . ياسيداتى اللطيفات تصبحن على خير .
(تنصرف)

الملك (للملكة) : هذا سم الحزن العميق ، وهو ينبع كله من موت
أبيها ..



أصحيح أن السم كله ينبع - كما قال الملك - من موت أبيك ؟ أم
أن السم تفشى فى المملكة بأسرها. وانتشر فى شرايين الطبيعة البشرية
نفسها ؟

وتهمين كالشبح الشاحب فى أرجاء البلاط . كشعاع يتخبط وسط
الظلمات ، يتخبط حيناً ثم يذوب وينطفىء يبحر الظلمات .

وتعودين للظهور فى المشهد الخامس من الفصل الرابع بعد رجوع
شقيقك « لايرتس » من غربته . لقد رجع ليثأر من قاتل أبيه ، وها هو ذا
يصمم على الثأر ممن يتصور أنه تسبب فى جنونك . انك تترنمين بأغنيتك
الغامضة أمام أخيك وتقولين :

أوفيليا : فوق نعش حملوه

وبقبر مددوه

آه يا ويلي آه !

بدموع أمطروه

بدموع أمطروه

الوداع يا حمامتى

حمامتى الوداع ..

لايرتس : ان هذا الجنون أقوى من كل حس سليم . انها تلمس
الغم والأسى والعذاب والجحيم نفسه فتحيله الى حسن ورواء

أوفيليا : ألن يعود من قضى ؟

كيف يعود من مضى ؟

هيا اذهبي

فلن يعود

لن يعود أبدا

ونحن نبكيه سدى ...

يا رحمة الله به

ورحمة الله بنا ...



على الموج الهادئ الأسود حيث تنعس النجوم
تسبح أوفيليا الشاحبة كزهرة سوسن كبيرة ،
تسبح فى بطء شديد ، ملتفة فى وشاحها الطويل



الرياح تقبل نهديها وتنشر وشاحها الكبير
كأنه اكليل زهرة تهدمه المياه الناعمة ،
الصفصاف المرتعش يبكى على كتفها ،
وعلى جبينها الكبير الحالم تهجع أعواد البوص •



ورود الماء التى اختلجت من لمسها تنهد حولها ،
أحيانا توقف عشا فى شجرة حور نائمة
فتقلت منه رعشة جناح صغيرة •
— أغنية غامضة تهبط من النجوم الذهبية •



البؤرة ما زالت تنضج بالعفن وتتصاعد منها الأبخرة الموبوءة • والملك
يدبر مع أخيك المكيدة التى ستصرع هاملت • وتدخلت الملكة هالمة
مفزوعة •

الملك : ما وراءك يا مليكتى المحبوبة ؟

الملكة : مصيبة فى أعقاب مصيبة • أختك غرقت يا لايرتس •

لايرتس : غرقت أه ! أين ؟

الملكة : هنالك صفصافة تميل على غدير

يعكس أوراقها الكثيبة فى تياره الصافى

هنالك ذهبى أوفيليا باكالييل غريبة

من زهور الغراب والأقحوان والزنبق فى لون الأرجوان الذى

يدعوه الرعاة بأسماء غليظة وتسميه صبايانا العفيفات

« أنامل الموتى »

وعندما تسلقت الشجرة

لتعلق أكاليها المضفورة من الأعشاب
على الأغصان المتأرجحة
انكسر فرع حسود
وهوة مع أكاليها فى مياه الغدير الباكي
انتشرت ثيابها وحملتها كحورية البحر برهة من الزمن
راحت فيها تغنى مقاطع من ألحان قديمة
كانها لا تدرك محنتها
أو كأنها مخلوق نشأ فى الماء وتعود على عنصره
لكن ذلك لم يستمر طويلا ،
فلم تلبث ثيابها التى ثقلت بما شربته
أن انتزعت المسكينة التعسة من شكواها الحنون
وهوت بها الى حتفها فى الطين
لايرتس : واحسرتاه ! أغرقت اذا ؟
الملكة : غرقت • غرقت •
لايرتس : أوفيليا المسكينة • غزيرة هى المياه التى أنت فيها •
ولهذا سأمع دموعى
وداعا يا مولاي عندى كلمات من نار
تود لو يضطرم لهيبها
لولا أن دموعى تطفئها ..

ضاقَت الأرض بما وسعت فلم تمددى عليها جسدي ولهذا اخترت
فراش زفافك للموت على سطح الماء .. وابتعدت عن الأرض التى تنوء
بحمل القتلة والفجرة والأوغاد الخداعين لكى تموتى طاهرة فى الماء
الطاهر ..

ويأتى المشهد الأول من الفصل الخامس والأخير فترى مراسيم الدفن
المبتورة حتى رجال الدين أبوا عليك تراثيل القداس ، لأن روحك ،
فيما يقولون ، لم ترحل فى سلام ٠٠٠٠ ولولا أن تدخل الملك لدفنت
كما أرادوا فى أرض غير مقدسة وبقيت فيها الى أن ينفخ فى الصور لولا
أوامره لأهيل عليك الحصى والحجارة وشظايا الفخار .. وأذن لك على

مضض أن تشيعى الى مثواك وعليك أكاليل العذارى ، وأن تنثر عليك
الزهور على رنين الأجراس ...

وأنت فى تابوتك - ينمو البنفسج من جسدك ويتضوع منك
الشذى - لا تدريين أن حبيبك المكتئب من طول ما تأمل حقيقة نفسه
وحقيقة الحياة قد آب من غربته ليتم انتقامه ويسعى الى مصرعه ومصيره .
ولقد كان قبل وصول موكب جنازتك مشغولا كعادته بالتأمل والتألم الى
حد السخرية المرة من الحقيقة المرة للموت والحياة ..

ضحك مع حفارى القبور الى حد البكاء ، ونثر نكاته اللاذعة فوق
الجماجم الخرساء لقد عرف وهو الآن مستعد لتقبل كل شيء والتسليم
بكل شيء ..

ان موتك ينتزع منه صرخة حادة . يحرك السكين فى الجرح الساكن
منذ سنين . لقد واجه منذ لحظات حقيقة الموت المجرد ، موت المهرج
« يورك » الذى طالما لعب معه وهو صغير ، وموت السياسى الداهية ورجل
البلابل الأجوف ، والمحامى الماكر ، وموت الاسكندر العظيم الذى أصبح
طينا قد يسد ثقباً ليصد الريح ، أو يصير سدداً لدن خمر أو برميل ،
ولكنه الآن يواجه موتك أنت ومن يدري ؟ ربما يواجه لأول مرة فى حياته
حقيقة حبه لك ، حبه الذى أنكره وتكره له ، ولو أحس به لخلصه من
تردده ، لو آمن به لما اكتسى لون العزم الأصيل بصفرة التوجس والقلق
العليلة .. ان موتك يا أوفيليا هو الذى يكشف له الآن عن سر الحياة
والحقيقة الذى طالما حاول عبثاً أن يرفع عنه الغطاء . اليس من أعجب
أسرار هذا السر العجيب أن حفرة من الطين هى التى ستضم ضيفاً عزيزاً
مثلك ؟ ألم يكن الأولى أن تلتقى فى غيمة أو وردة ؟ أنت يا من نجوت
وحبك من السم الذى استشرى فى دماء كل الذين عرفهم كما استشرى
فى دمه .. يا من لم يزرع فيها .. دون الجميع - ذلك الدمل الكريه
مكان الوردة التى لا تزال تزين جبهتك الناصعة بالحبه البرىء .. رباه !
أكان ضروريا أن تجنى وتموتى ليتم تطهير دولة وبعثها من جديد ؟ أكان
انهيارك رمزا لانهايار المجتمع وتصدع الروح وفساد الطبيعة والانسان ؟
أم كان كالنبوءة المقدسة التى تسبق المحنة وتندّر بالسقوط .. لعله
الآن قد أدرك أنك الضحية .. لعله فهم أخيراً أنه مشترك فى الوزر الذى
ارتكبه الجميع لعله لا يسأل : ماذا فعلوا بك ؟ بل يسأل : ماذا فعلنا
بك ؟ كيف عمينا عن رؤية نورك ؟

وينزل لايرتس وهاملت الى القبر • وينشب العراك حتى يفرق
الحاضرون بينهما • ويصرخ هاملت متوهدا :

هاملت : والله لأحاربنه بهذا الشأن
حتى تتوقف رموش عيني عن الحركة
الملكة : أى شأن تعنى يا ولدى ؟

هاملت : لقد أحببت أوفيليا •
وان أربعين ألف أخ
لن يساوى حبهم
مقدار حبي لها ••

أتريد أن تبكى ؟ أن تقاتل ؟ أن تصوم ؟ أن تتجرع خلا وتاكل
تمساحا ؟ أم تريد أن تمزق نفسك وتدفن نفسك حيا معها ؟ سأفعل ذلك
أيضا •••

لكن ماذا يجدى التحدى ، ماذا تنفع الصرخات والزفرات ؟ ان المأساة
الحقيقية داخل المأساة قد وقعت • والستارة تهبط الآن على أفجع
فصولها •

طبع القدر خاتمة الثقيل على مصائر الجميع • ولم يبق الا أن تدور
عجلات عربته لتنحدر فى الهاوية الأخيرة ••

ويكمل الشاعر الذى ذكرت لك فى البداية أنه يشبهك فى روحه
ومصيره - يكمل أغنيتك الغامضة التى تهبط من النجوم الذهبية :

أوفيليا الشاحبة ! أنت أيتها الجميلة كالثلج !
نعم • مت يا طفلى عندما جرفك نهر !
لأن الريح الهابطة من جبال النرويج الشامخة
كلمتك فى همس عن الحرية القاسية ،
لأن نسمة تخللت شعرك الغزير ،
وحملت لروحك الحاملة أنباء غريبة ،
لأن فؤادك سماء غناء الطبيعة
فى بكاء الأشجار وتنهدات الليالى ،

لأن نداء البحار المجنونة ، نشيجها الهائل المرير
 كسر قلبك الطفل ، قلبك الانسانى الرقيق ،
 لانه فى صباح يوم من أبريل جثا فارس شاحب جميل
 فارس مسكين مجنون
 عند ركبتك فى صمت وذهول !
 السماء ! والحب ! والحرية !
 أى حلم أيتها المجنونة المسكينة
 ذبت فيه ذوبان الثلج فى اللهب ؟!
 رؤاك العميقة هى التى خنقت كلمتك
 واللانهاية الرهيبة أفلقت عينك الزرقاء !



تصدعت أركان المجتمع المريض وانهارت فوق رؤوس المرضى الذين
 تسببوا فى سقوطه . ومضيت أنت يا أوفيليا ، شهيدة عصر مريض
 وشاهدة عليه ، كما يمضى شعاع توهج لحظة فى بحر ليل دامس .
 وانطفأت شعلتك الأخيرة فى الماء بعد أن عصفت به ريح الجنون . لكن
 من الذى فطن الى الحكمة من جنونك وموتك ؟ حتى حبيبك الحزين من
 طول ما تأمل وجه الحقيقة المرة خلف الأقنعة لم يعرف شرك ولم يستطع
 أن يحبك . كان الزمن قد خرج عن مجراه وجذور الشر كانت ضاربة فى
 جسدك الوجود الذى أراد أن يعيده الى مجراه ، كما كانت ضاربة فى جسد
 المجتمع والوجود وكان من المستحيل أن يداويه شعاع نجمة عبرت السماء
 الدنمرك ثم احتواها الظلام أو زهرة بريئة تفتحت وسط غابة من الأعشاب
 العفنة والحشرات الفتاكة ..

لكن شبحك الأبيض كالثلج ، النقى كالزنبقة سيظل يهيم على
 الأرض ..

والريح التى كلمتك فى همس عن الحرية القاسية ستظل
 تتكلم ..

ونداء البحار الذى كسر قلبك الطفل سيظل ينادى قلوب
 الأطفال ..

والحلم الذى ذبت فيه ذوبان الثلج فى اللهب ،
 الحلم العميق الذى خنق كلمتك وألقى عينيك ،

الحلم بالحب والحرية سيظل يهمس للقلوب والعيون التي
تشبه قلبك وعينيك ...
وإذا ظل الزمن يخرج عن محوره ومجراه ،
وظلت الأرض تطفح بالآثام واللعنات ،
والمجتمع ينوء بثقل اللثام والأوغاد والكلاب والذئاب والقروذ
والحشرات ،
فسيوجد دوما من يعيد الزمن لمجراه ،
من يجعل الأرض مسكنا للبراءة والنقاء ،
ولتنبج الكلاب القمر كما تشاء ، فسيبقى القمر ساطعا في
السماء ..
وتبقى أيتها البريئة كشعاع النجم الوضاء ،
كالزنبقة البيضاء طافية على وجه الأرض والماء ...
(١٩٨٤)

اللمعة السادسة

دموعى أوديب ••

التمعة السادسة

دموع أوديب ٠٠٠٠٠

بكائية في تسعة مشاهد

الشخصيات :

- أنتيجونا (ابنة أوديب)
 - أوديب
 - جوكاستا
 - تريزياس
 - كريون
 - بوليبيوس (ملك كورنثة) والدا أوديب بالتبني
 - ميروب (ملكة كورنثة)
 - رسول من كورنثة
 - الراعي
 - الجوقة
 - الهولم
- (تبدأ البكائية بعد انتحار جوكاستا وفق أوديب لعينه وقبل
مغادرته طيبة) ٠٠

(فاجأني وجهه الحزين الملطخ بالدم وأنا أستقل الطائرة التي أقلتني من أرض وطني الى مكان آخر . ثم ظل يلاحقني حتى كتبت هذه البكائية المسرحية . أعلم أن الاقدام على كتابة « أوديب » مغامرة لا تخلو من التهور ، بعد عشرات المحاولات من سوفوكليس الى اليوم . لكنها سطور من وصيتي للاخوة والأبناء الى وطني ، حتى لا يصبح الغدر هو قانون الحياة فيه ، ويسقط القناع الأسود الذي وضعه الانتهازيون ولصوص الحرية والعلم والضمير على وجه مصر النبيل) . . .

(تبدأ البكائية بعد انتحار جوكاستا وفقاً لأوديب لعينييه وقبل مغادرته طيبة) . . .

- ١ -

(المشهد ساحة جرداء أمام أسور طيبة ، ترتفع فيها درجات أشبه بدرجات مسرح قديم مهجور . على اليمين كتلة بشرية مظلمة من عجائز المدينة ونسائها الشكالي ، تظهر أو تتوارى كلما دعت الضرورة ، تصدر عنها تهويمات تحلق في الفضاء كسحابة غائمة ، ولا نتبين أطيافها الا حين يدخل معها أوديب في حوار أو يشتبك معها في جدال يتردد صوتها المعتم العميق قبل دخول أوديب ، تسبقه ابنته أنتيجونا التي جرت مذعورة واستندت الى حجر كبير . .

الجوقة : أوديب . . أخرج أخرج يا أوديب غادر طيبة يا أوديب .

أوديب : (يندفع داخلا يتحسس الطريق بعد أن سبقته أنتيجونا ولاذت بحجر كبير) ابنتي . . ابنتي . . أين أنت يا حبيبتي . . لماذا تركت يدي . . أمسكتها ونزلت بي الدرج فلماذا تركتها . . ؟ يدي التي فقأت عيني . . أين أنت ؟ هاتي يدك . . تعالى يا صغيرتي .

أنتيجونا : (تبكي . . يقترب منها أوديب) لا تتخل عني يا حبيبتي . . أنت عيني الثالثة لم يبق لي سواك . . تعالى (يتخبط بين الأحجار)

الجوقة : أخرج أخرج يا أوديب

غادر طيبة يا أوديب

لم لا تسرع نحو المنفى . .

لم تتلكأ عند السور ؟

أوديب : ها هي المدينة تطاردنا . . ترسلنا للمنفى بعد أن نبذتنا وتخلت عنا . . تبكين يا حبيبتي ؟ المدينة قاسية يا صغيرتي . . عمياء

لا تبصر مثل أبيك .. أما زلت تحنين إليها يا ابنتي ؟ أنتنظرين
رفيقاتك فى اللعب ؟ ألم تتوقعين أن تظهر أختك « اسمينا » من
وراء الشجر لتغمض عينيك بيديها ، وترن ضحكتها وتجلجل
كأجراس القطعان الالهية فوق رأسك المتعب الصغير ؟ لا .. لا تنتظري
أحدا .. لا تتوقعي أن يفاجئك أحد أو يشد ثوبك أحد .. حتى
كلبك الأبيض الحبيب تخلى عنك .. لم يبق لك سوى ولم يعد لى
سواك ..

الجوقة : أواه انى ان أرثى لك أبكى من أجلك يا أوديب ..

يا أتعس رجل نظرتة عيني
يا من تتخبط وحدك فى ظلمات الليل ،
وخطاك تقودك للظلمات الأبعس
فى « هاديس » حيث تقيم مع الأشباح
ومن ذهب اليه لا يرجع ..

أنتيجونا : (تبكى) أبى .. أبى ..

الجوقة : واحسرتاه ! صوت من هذه التى تصرخ وتثن ؟

أهذه ابنتك التى طالما شهدتها معك
ورأيتك تداعبها وتحملها على صدرك
عندما كنت تواجه سكان طيبة
أو تقدم الأضاحى والنجور الطيبة الرائحة
على مذبح الآلهة المقدسين ؟
واحسرتاه عليك يا ابنتى ...
كم يتقطع قلبى من أجلك ..
ومن أجل أبيك الذى صار أختاك ..

أوديب : لا تصدقيهم يا حبيبتي .. لا تصدقيهم ...

أنتيجونا : (يزداد نسيجهما)

أوديب : لقد أطلقوا الكذبة وصنعوها .. ثم جاء هؤلاء العجائز فصدقوها
وروجوها .. ماذا أسمع ! .. هل يكون الآن على ؟

الجوقة : آه .. انى أبكى من أجلك يا أوديب ..

أبكى ابنتك المسكينة وبقيّة بناتك وأخواتك ..

لكن أمطار دموعى على طيبة لن تجف ،
 طيبة التى أنقذتها ذات يوم
 وحكمتها بقوة الحقيقة القوية
 حتى ظننت أنك أسعد انسان
 حين كنت أراك على العرش
 وحولك أبناء طيبة وبناتها
 كالحملان عندما تلتف حول الراعى الطيب
 الذى خلصها من الذئاب
 حقا انى لا أبخل بالدمع عليك
 لكن أمطار دموعى على طيبة لن تتوقف
 وان كنت أعلم أنها لن تروى شجرة عمرى الذابلة
 ولن تعيد الخضرة الى شجرة طيبة
 التى هوت بفروعها وأوراقها فى الهوة الدامية

أنتيجونا : (يرتفع نشيجها - يعثر أوديب أخيرا عليها ..)

أوديب : ها أنا أمسك يدك التى فرت من يدي .. (يقبلها ويغمرها
 بدموعه) صدقي دموعى الدامية ولا تصدقي دموعهم .. صدقيني
 يا حبيبتي ..

أنتيجونا : أبى .. أبى ..

الجوقة : بل قول أخى أخى ..

آه يا أنتيجونا ..

أى مصير ينتظرك يا ابنتى :

أوديب : ابنتى .. حبيبتي .. لا تصدقيهم .. هؤلاء الذين يذرفون دموع
 الأفاعى والتماسيح عليك وعلى .. هم الذين هملوا وصفقوا عندما
 رأوني على عرش طيبة .. هم الذين لم يتحركوا عندما رأوا الكذبة
 تحاك حول رقبتى .. واللعنة تدبر فى الخفاء لتدمرنى وتدمر
 أسرتي ..

الجوقة : واهى لطيبة التى تندثر وتنهار فى الهاوية ..

البذور تخيب أمل الزراع وتموت فى الأرض التى حرثها والقطعان
تصم آذانها عن نداء الراعى وتهلك فى مراعيها والعقم يقتل نساءها
ويودى بالأحياء من أطفالها •

واعصار الوباء الذى اجتاحتها وعصف بأهلها قد صم ألا يخرج منها
حتى تغادر أسوارها •

أوديب : ها أنا أغادرها يا أبناء كادموس المخدوعين ••

تسجبنى ابنتى من يدى الى مصير مجهول •

ابنتى التى ترددون انها أختى وابنتى ••

وس يخرج معي الاعصار ليدخل اعصار آخر ••

وستشيعون الطاغية الذى صنعتوه

ليشيع أبناؤكم وأحفادكم طاغية آخر

الجوقة : أخرج أخرج يا أوديب

احمل دنسك •• لا تتلفت للأسوار

ألق به فى ماء البحر وطهر نفسك أو فى النار

عل الها يرحم طيبة يرفع عنها هذا الرجس ويمحو منها هذا العار •

أوديب : سمعت يا حبيبتي ؟ •• رجس هو أبوك وعار •• والمدينة التى

ولدت فيها كما ولدت تتطهر منه •• لم يكفها دم أمك ولا دم عيني

•• فأنا الرجس الذى قررت أن تنفيه حتى لا تتلقاه الأرض ولا المطر

المقدس ولا الضوء الحبيب •• لكنى أسألهم فاسمعينى •• كيف

يكون رجسا من أنقذ المدينة من الوباء ؟ كيف يدنسها من حل اللغز

فصعق الهولى قبل أن تولدى أنت واخوتك ؟ لا تبكى يا حبيبتي ••

لا تبكى يا صغيرتى •• جففى دموعك واسمعينى • قبل أن تغادر

هذه الأرض عليك أن تسمعينى •• أتركى أباك المسكين يفتح قلبه

لك •• قلبه الذى طالما ضمك اليه حين كنت تبكين ولا تسكتين

حتى تعبثى بشعر لحيته •• دعيه يدافع عن نفسه أمامك •• دعيه

يبرر تهمته التى ألصقها به الذئاب والكلاب والعناكب التى نسجت

مؤامراتها فى الظلام •• لا تتلفتى لهؤلاء الشيوخ المخدوعين الحداةين

•• سيسمعوننى اذا شاءوا •• واذا شاءوا ينصرفون •• أنت وحدك

التى أريد أن تسمعنى وتفهمنى •• أنت وحدك يا حبيبتي الصغيرة

•• أنتظرين الى المدينة الغافية من بعيد ؟ لا تنتظرى شيئا ولا أحدا

•• « اسمينا » تلعب هناك ولا تكثر بشئ •• ربما تقطف الزهور

من بستان القصر لتزين جيدها الناصع المغرور .. ربما تعبت مع رفيقاتها وتتسلى بالقاء كتبها فى الجدول الصغير .. ربما تغازل شابا من وراء سور البستان .. أخويك تنتظرين ؟ لن يجيبك أحد مهما ناديت .. انهما يجربان ألعاب الشباب أو يتصارعان على عادتهما خارج المدينة .. الرفاق يتفرجون عليهما ويصفقون .. ورأساهما العنيدان تنقهلما أحلام المجد وتعصف فيهما رياح الرعونة الهوجاء .. اسمعيني يا حبيبتي .. اسمعى آخر كلماتي .. لا يهمنى أن ينتهى العالم كله .. لا يعنيني أن تشير الى جميع المدن كأنى ضيع ضار أو ذئب ملعون .. لا يهمنى أن أخرج من طيبة كغراب مشثوم .. كل ما أريده أن تعرفى الحقيقة .. والحقيقة أن أباك لم يدنس بارادته ولن يدنس .. لقد دفع الثمن قبل أن تسحقه الأسطورة وتسحق أسرته .. هل تسمعوننى أنتم أيضا أيها الشيوخ ؟ أين أنتم ؟ لماذا غاب صوتكم ؟ أوديب المنقذ يتكلم .. أوديب الطاهر يتطهر .. يدفع التهم التى صدقتموها بعد أن صنعتموها .. نعم أيها الشيوخ .. اسألوا أنفسكم مرة واحدة : ألم تكن رغبته فى المعرفة هى التى دنسته ؟ ألم يصمم أن يعرف نفسه فأحرقها وجلب عليها الخراب ! انه لا ينتظر جوابكم انه يقف أمامكم الآن ويسأل نفسه .. لا يبالي ان سمعتموه أو انصرفتم عنه ..
أنتيجونا وحدها ..

أنتيجونا : أبى .. أبى .

أوديب : أنت وحدك وحدك يا حبيبتي التى يريد بحديثه .. وعلى صدرك وحدك تسقط دموع ذكرياته .. فاسمعيني يا حبيبتي .. كونى عيني الثالثة وانظرى معى فى سطور الماضى .. الماضى الذى أفتحه الآن أمامك .. أمامك أنت وحدك .

أنتيجونا : أبى .. أبى (تبكى)

الجوقة : (فى صوت رهيب) تكلم يا أوديب ..

- ٢ -

أوديب : انظرى يا ابنتى ترى أباك يشتعل بنار الشباب .. يحوم كالفراشة حول أنوار الحكمة . يسأل الكتب التى يلتمها فتصمت أو تنطق كلمات لا تفهم . انه يتنقل فى قصر أبيه وأمه فى كورنثة ولا يكف عن السؤال . يتجول فى شعاب الجبل والوادي ويتطلع

للنجوم ولا يكف عن السؤال . يختلط بالناس فى السوق والجبل
والحقول والمبعد فيشير اليه الجميع : هذا هو الحالم الذى سيعيش
ويموت وعلى شفثيه سؤال وذات يوم تحدانى أحد الشبان هل
تستطيع يا ابن الملوك أن تبارز بالحربة وبالسيف كما تبارز
بالأسئلة والألغاز ؟ ثبت عيني فى عينيه وقلت : لو كانت كل الألغاز
كهذا اللغز لهان الأمر . قال ساخرا وهو يمتشق سيفه : ولكنه
يحتاج الى الشجاعة . قلت وأنا أجرد سيفي وأناجته بطعنة فى
صدره : ان كان هذا هو الحل فخذ ! ارتمنى على الأرض وهو يصيح :
قتلتنى ولم تحل اللغز ! أقبل الرفاق فمنعوني من الاجهاز عليه .
قالوا : مخمور لا يفيق دائما يجرح غيره . فاتركنا الآن نداوى
جرحه . قلت : لن أتركه حتى يكشف عما فى صدره ، حتى يتكلم
عما يقصده باللغز . تأوه من الألم وصاح : تعرف كل الأشياء
ولا تعرف نفسك . تسأل عن كل الأشياء ولا تسأل من أنت .
اندفعت نحوه وأنا أهتف : لا تسأل من أنا ؟ وهل تعرف أنت ؟
أن أنين المذبوح : آه ! انى أتألم من جرحى ، لكنى أتألم لك . لست
ابن أبيك . . . جريت الى القصر كمن لدغته أفعى واندفعت الى حجرة
أبى فوجدته راقدا على فراش المرض مفتوح العينين . صعد بصره
وقال : ولدى ؟ أشفقت عليه فلم أنطق . أشار بيده النحيلة
فاقتربت منه وطالعت على وجهه الطيب المكدود آثار الصراع مع العلة
القديمة . ابتسم وقال : ماذا يريد البرىء الجرىء ؟ ماذا يريد حبيب
الفقراء والحكماء ؟ قلت : وأخشى أن أخرجه من شفثى اعتدل فى
فراشه وهو يتأوه من الألم : ماذا يضنيك يا ولدى ؟ كتاب نبحت
عنه ولا تجده فى خزانتي التى أتيت عليها ؟ قلت : بل سؤال
اكتمه منذ سنين حتى آثاره اليوم شاب مخمور تصارعت معه .
ضحك وقال : مخمور ؟ تتلقى منه سؤالا أو تنتظر جوابا ؟ أنت
يا أوديب ؟ قلت : أبى . . من أنا ؟ رفع حاجبيه دهشة : من أنت ؟
ألم أنطق الآن باسمك ؟ تلعثمت وأنا أشبه التجاعيد التى تتلوى
على وجهه : لا لا . . أقصد . . ربت على كتفى وضمنى الى صدره :
أنا أعرف قصدك أكثر منك . الحكيم الصغير مثلك لا يسأل عن
شئ زائل . ها أنذا أموت يا ولدى وعندما يقترب الموت لا يبقى
غير سؤال واحد : ما الانسان ؟ هذا هو السؤال الأكبر يا ولدى . .
أما من أنت فهذا أمر واضح . لم أملك عيني من الدمع . لم أستطع
أن أتحكم فى صدرى الذى أخذ يعلو وينبسط . أردت أن أصرخ :
أقصد من أبى ؟ ومن أمى ؟ حل أنا حقا ابنك وهل أنت حقا أبى ؟
لكننى لم أقو على اخراج كلمة واحدة . رفعت رأسى عن صدره .

جففت دموعى .. قلت : ربما يستطيع العراف فى دلقى أن يجيبنى
 .. قال متعجبا : العراف فى دلقى ؟ هل يعرف من أنت سواك
 اذهب يا ولدى .. اذهب الى فراشك . لقد توغل الليل . والليل
 يفرخ مسوخ الأسئلة السوداء . اذهب يا ولدى فالفجر ينتظرك
 .. قلت : وأنا أقبله أذهب يا أبى حتى لا يطول انتظاره . ضحك
 وهو يتابعنى بعينيه الكليلتين . لم يدر أنه يرانى لآخر مرة ، واننى
 سأسمع بعد ذلك عن موته دون أن أراه . نزلت على سلم القصر
 مسرعا . كان تصميمى على الخروج هو الذى يحث خطاى . ولم
 أكد أهبط الدرجات حتى أحسست بثقل يشل قدمى ويقبض على
 صدرى . رجعت مرة أخرى فأسرعت الى حجرة أمى ، فتحت الباب
 عليها فوجدتها نائمة . تأملت الوجه الطيب الذى طالما ضمنى اليه .
 هل يمكن أن أغضب ! إلهة فافزعه من نومه وأسأله : أنت وجه
 أمى أغلقت الباب برفق ورجعت أهبط الدرجات بين دهشة الحراس
 وابتسامهم وعندما وقفت على الباب الخارجى لم أستطع أن أتلفت
 ورائى . كان السؤال الكبير يجذبنى اليه وينادىنى . وكنت أحلم
 أن أسمع الجواب على لسان العراف فاندفعت على الطريق الطويلة
 بلا تردد .

الجوقة : الطريق الى دلف طويل شاق
 لكن طريق الآلهة محفوفة بالضباب .
 ها أنت تقف أمام المذبح وتلقى السؤال
 انى أتخيلك يا أوديب ولا أكتفم الخوف والاعجاب
 تكلم .. ماذا حدث هنالك مما أجهل ؟
 ماذا كان جواب العراف ؟

أوديب : أجل أيها الشيوخ .. لم أجد الجواب . لم يأذن لى أحد بالدخول
 الى المعبد . أوقفونى على الأبواب وأنا الذى كانت الحراس تفتح
 لى الأبواب قلت لهم : ابن ملك وملكة يمد يديه بالسؤال وقالوا :
 بيد خالية حتى من الماء والزاد ؟ قلت : تركت كل شىء وجئت أقف
 على الاعتاب . قالوا : أين هداياك وأين عطاياك ؟ أين الأضحية وأين
 القربان ؟ قلت : ان وجدت الجواب فسوف تغمركم هداياى . قالوا :
 أى جواب وعلى أى سؤال ؟ قلت : سؤال الأسئلة أيها الكهان .
 من أنا ؟ ما أصلى ومصيرى ؟ ومن الانسان ؟ فاجأنى صوت يخرج
 من جوف المذبح : رجل لا يكف عن السؤال . تقدم يا أوديب !
 يا قاتل أبويك ويا من تنجب من الرحم الذى خرجت منه . ارتعش
 القلب ورفرف مذعورا فى صدرى ، صحت بمن نادانى :

سَخَف ما قلت وحق الأرباب ! لن أرجع أبدا للقصر ولن تبصر عيني الأم ولا الأب • تضاحك صوت النبوة حتى ارتجت جدران المعبد : قدر قدر من قبل عليك • لن ينفعك رجوع ، لن يجديك هروب • أذعن للقدر ومن نسج خيوطه ! صحت : ومن نسج خيوطه ؟ اله هذا أم نصف اله قاسى القلب ؟ بعد قليل قال الصوت : وستصبح ملكا يا أوديب ؟ سخرت منه وقلت : ملكا أصبح أم قاتلا ردد الصوت الملك القاتل يقتل بعد قليل أو ينفى •

ركبت موجات النبوة المضطربة ، واجهت البحر الثائر كالرياح القادر • أرعدت وأبرقت وأرسلت صواعق غضبي : ومن قال انى أسعى للملك وقد تركته وراء ظهري ؟ اننى عابر سبيل • وإذا صبح كلام المخنور فاني لقيط صار ابن ملك وعاد ابن الملك فصار شحاذا - قلت لك لقد تخيلت عن الملك • • رد قائلا تخيلت عن ملك لا تستحقه وستحصل على ملك لا تريده - صحت بأعلى صوتي : انما أريد أن أحل اللغز • • قال الصوت : ستحله يا أوديب ولن تحله • • اشتد بى الغضب فقلت : من حق الانسان أن يكذب نبوءة لا يصدقها العقل رد الصوت : هذا من حق العقل لكن القلب له شأن آخر • والنبوءة قد تصدق وتكذب • قلت : ولكن يجب أن تفهم ضحك الصوت لا تتعجل ستفهم يا أوديب لكن بعد فوات الوقت ضربت جدار المذبح بيدي وصحت : بل أفهم •

وأحل اللغز • تمدد الصوت فى أذنى كظل الوحش الرابض فى الغابة ألم أقل لك ؟ ستحل اللغز ولا تحله • وستقضى على الوباء وتسبب الوباء • ستجلس على عرش المدينة وتدمر المدينة • وستقتل الوحش وتصبح وحشا يقتله وحش • • اذهب يا أوديب • • اذهب يا أوديب قدرك لن تغفل منه • • صحت : وسؤالى ؟ هل أذهب قبل أن تجيب عليه ؟ قال الصوت مودعا : وستذهب أنت وأذهب مثلك وعلى الشفتين سؤال • • هذا قدرك يا أوديب • • هتفت يائسا لكنى سأتحدى القدر • سأتحداه • • جلجلت الضحكات : اذهب وتحداه • • صحت : والى أين أذهب ؟ الى أين ؟ دوت الضحكة كالزلازل : الى طيبة • الى طيبة • ضربت الأرض بقدمي وبكيت وضحكت : طيبة ؟ ماذا أفعل فى طيبة ؟ انك لم تجب على سؤالى • • طاردتنى الضحكة : اذهب لتجيب عليه بنفسك • • اذهب • • اذهب • • الجوقة : خفية هى أسرار الآلهة

كامنة كالشجرة داخل البذرة الصغيرة

والويل لك ان حاولت أن تشد الشجرة قبل الاوان •

ضع البذرة في الوعاء المقدس ،
تعهدنا بالماء والضوء والهواء
لا تخف ان تعرضت للأمطار والأخطار
وعندما تغمرك الشمس فجأة وبلا انتظار
ستجد المأوى في ظل الشجرة الكبيرة ..

أوديب : ليس صحيحا ما تقولون . فقد غمرتني الشمس ولم أجد الظل
ولا المطر ولا المأوى . وعندما استبدت بي الدوار ورحت أحترق ويتصاعد
مني البخار كأنني فحمة ملتهبة ، جلست تحت صخرة على جانب
الطريق الضيق ذي الشعب الثلاث . الجبل أمامي صخر والوادي
حول قفر . والجوع مع الغضب الحارق في جوفى جمر . وغفوت
قليلا ثم فتحت على أصوات قريبة مني . . كان في الأثني غبار . .
وموكب صغير يجرح الأقدام على الطريق المترب الحائق بالبخار لمحت
نساء وأطفالا ورجالا يحملون متاعهم القليل على أكتافهم . فقراء
هؤلاء الناس ، مزارعون أو رعاة مما تنبت الأرض من أشواك . .
مروا على وتوقفوا ليستريحوا في ظل الصخرة الكبيرة التي كنت
أحتمى بها سألتني شيخ عجوز - الى أين يا بني ؟ قلت : مسافر
يا عمي . قال شاب يبدو على وجهه الاعياء : الطريق طويل . حذار
أيها الشاب قلت : اطمئن اني أعرفه وأعرف هدفي . قال الشيخ :
سافر كما تشاء لكن لا تتهور . قلت : ماذا تقصد ؟ قال لا تقترب
منه طيبة . سألت . أهى قريبة من هنا ؟ قال الشاب : أقرب مما
تظن قدماك وأبعد مما يتصور عقلك . رفعت عيني الى الشيخ فنظر
الى وقال : نحن من أبناء طيبة . لم تخرج منها كما يخرج الناس من
الأبواب . لقد تسللنا من ثغرة في السور قاطعه الشاب : بل حفرناها
بأظافرنا في الظلام ! قلت ولماذا لم تخرجوا من أبوابها ؟ تعجب
الشيخ وقال : وهل يخرج أحد من طيبة أو يدنئها ؟ ألم تسمع يا ولدي
بالهولي ؟ ألم تسمع بالوباء ؟ قلت : الهولي ؟ والوباء ؟ ماذا أسمع ؟
قال الشاب : منذ أن ظهرت العذراء ذات المخالب وهى تتربص
بالداخل والخارج . تطرح عليه اللغز ثم تقتله . قلت : اللغز ؟
ما هو هذا ؟ ماذا تقصد ؟ قال الشيخ : لا أقصد شيئا يا ولدي .
نحن فقراء لا نحل الألغاز نحننا من الوباء بمعجزة . ونبحث عن
أرض نتنفس فيها الهواء . أنا وهؤلاء الصغار . هيا يا أولادى . .
هيا يا أولادى . . ناديت عليه قبل أن يضييهم الجبل عن بصرى :
كلمنى عن الهولي . صف لى الوباء . انصحنى يا شيخ ! تردد

صوته قبل أن يختفي : حذار يا ولدى • حذار لا تذهب الى طيبة ! • لا تذهب الى طيبة ! • رحت أفكر فيما قال فلم أهتد الى شيء هل غادرت مدينتي وملكي لأحل أَلغاز الناس أم لأحل لغزى ؟ وسقطت على صدر الية النوم وقتا لا أعرف مداه ثم صاحوت على قرقة عجلات على الطريق الوعر • ناديت فلم يجبنى أحد • وقفت وتعرضت للعربة فلم يكثر أحد • هتفت بأبناء الانسان فلم يرد انسان • ولسحتى سوط ألهب رأسى وكنتى فصحت : أيها الفجرة ! أما من لقمة أو جرعة ماء لعابر سبيل ؟ صاح صوت المنادى : مل عن الطريق أيها الكلب ! وقفز من العربة ثلاثة رجال سود الوجوه • لم أدر الا وقد أنزلت بهم ذراعى صاعقة من نار ، رفعت وجنيتى للشمس وهتفت : شكرا يا رب الأرباب زيوس ! كدت أجذف باسمك لكنك أطلقت صواعقك من يدي وذراعى • وتناهى الى صوت وقور جذبني اليه واحتوانى : من أنت أيها الشاب المتهور ؟ نظرت فى داخل العربة فرأيت شيئا جذبتنى كذلك نظرة عينيه واحتوتنى • تأملتها لحظة وارتعشت • آه يا ابنتى ! ما الذى جعلنى ارتعش فى تلك اللحظة ؟ ما الذى جعل تلك اللحظة تسطع كشرارة البرق فى ليل العمر ؟ قلت فى غضب : ومن أنت أيها الشيخ ؟ قال الرجل فى هدوء : أنا الذى يسألك : من أنت يا ولدى ؟ صحت دون أن أنتبه الى الكلمة الأخيرة • وأنا ضيعت ملكى بحثا عن جواب هذا السؤال • قال العجوز : لكنك لم تنطق بسؤالك • صحت غاضبا : وهل سأجد الجواب لدى عجوز مثلك ؟ انى أسأل ما الانسان ؟ تفكر العجوز قليلا وقال : وتريد أن تقابل الهولى ؟ وتضيع ملكك لتفوز بملك آخر ؟ وتحل للغز لتقضى على الوباء ؟ اذهب يا ولدى اذهب ! هتفت : بل تذهب أنت أيها العجوز أعرف أنت تهرف بالنبوءات أم قائد عصابة من اللصوص الذين صعبتهم بعون رب الصواعق ؟ قال الرجل وهو يشير بسوطه : لا تتهور يا ولدى لا تتكبر • اسمع قوى : عد من حيث أتيت قلت وأنا أنحداه بعصاى ليس قبل أن تقول لى من أنت • تشرع بصوت باك : أنا الهارب من نبوءة قديمة ليسأل اله هذه الأرض نبوءة جديدة - حاذر يا ولدى وارجع حاذر يا ولدى • قلت : عراف كاذب • شأنك شأن العراف الآخر • لن أرجع لأبوى ولن أخشى النبوءة • قال العجوز : وتصمم على حل اللغز ؟ قلت : حتى الموت • لوح بالسوط وقال : هذا السوط سيمنعك رافة بك • صعدت الى العربة ورأسى يحترق بنار الغضب ونار الشمس : وأنا أنزعه منك وأنزع منك الروح اذا زدت هجمت عليه وشددت السوط

من يده ، وفي لمح البصر وقع الشيخ على الأرض فشجرت راسه
على حجر كان قد أوقف العجلة عن السير . وحين انحنيت عليه
لأساعده علي النهوض التقيت بعينه . آه يا حبيبي ! ليتني ما نظرت
الى هاتين العينين ! هزتني الرعدة التي ظلت طول العمر تزلزلني
نفذت نظره كالسكين بقلبي . لا لا . عانقت القلب كموجة ضوء
أو ماء صاف . آه يا ابنتي ! لن أنسى تلك النظرة أبدا . لن
أتخلص من تلك الرعدة أبدا . وها هي ذى تعاودني الآن . تعاودني
وترج أعضائي المتصلبة وشعراتي البيض . تجيش وترتفع وتهدم
وتتدفق من عيني اعذريني ان بكيت الآن أمامك . اعذريني ان
مكبت . . .

أنتيجونا : أبى . . أبى . . أبى .

أوديب : حبيبتي . . أنت أيضا يا صغيرتي ؟ أتبكين على أبى أم تبكين
على أبيك ؟

- ٣ -

الجوقة : الهولى تقف على أسوار مدينتنا . .

تربص بالداخل والخارج منها .

وحش يربض فى مخبأه أم عذراء فائنة الوجه ؟

لا نعرف شيئا لم نرها أبدا .

لكن حدثنا عنها الآباء وحدثنا الأجداد

قال الكاهن ما قال وحذرنا منها

قالت رسل الملك ابتعدوا عنها

وتغنى الشعراء بأغنية

راحت كل الناس تردددها

أغنية غامضة لا أفهمها

ولهذا أعرض عن أسرار الغيب وأشغل نفسى

بأهزج العيش وما ألسه بيدي

ودا تنظره عيناي ،

أما أنت فأشفق منك عليك

لو كنت رأيتك يا مسكين لناديت : لا تتهور !

ارجع يا أوديب ! ارجع بالفرس الجامع من حيث أتيت
ارجع يا أوديب !

أوديب : لا لن أرجع أبدا • ولو سمعتم أيها الشيوخ ما ترددت عما صممت
عليه • لقد خرجت ولن أعود • حيا أو ميتا لن أعود ، كم حللت
الألغاز الصغيرة وأجبت على الأسئلة البسيطة • كم قرأت في كتب
الحكماء وتحيرت مع أسرار الشعراء لكنني اليوم أواجه لغز الألغاز
والأشرف لي أن أحله أو أموت على الأسوار •

تقدمت وتقدمت • بدت قمم الجبل من بعيد وأشباح تماثيل
الآلهة المقدسة • ثم برزت الأسوار وظهرت الأبواب الحديدية •
سرت وسرت • وعاصفة تدوم في قلبي ويضطرب لها جسدي كالطير
التائه في الريح • هل أدق على الباب ؟ هل أعلو السور وأنظر ؟
أين أجد مخبأها وكيف أواجهها ؟ هل أناديها : أخرجي أيتها الهولي
التعسة ! أم أترضها بالكلمات الحلوة : أبرزي من خدرك أيتها
العروس ؟ هل أعر على خيط يهديني إليها أم تلتف حولي خيوط
العنكبوت ؟ ليكن ما يكون • ولتلتف خيوط القدر كما شاءت حول
رقبتي • فأنا أحمل قدرى في صدري ولن أتركها تخنقني • ولماذا
سافرت • وغامرت ولمن خلقت الجرأة والجسارة ؟ ألم تخلق
للإنسان ؟ ألم أخرج بحثا عنه ؟ وإذا خذلته في قلبي فأين أنا ،
وفجأة وأنا أتجول أمام السور سمعت الصوت • لم يكن خشنا
ولا عميقا مظلم كاصوات النبؤات • كان رقيقا يوشك أن يمحى
من فم ناء :

- تتقدم أو لا تتقدم ؟ اني أراك حائرا •
- بل أتقدم • لقد تركت ملكي وأرضي ولن أعود •
- الا بعد أن تحل اللغز ؟ أليس كذلك ؟
- نعم •• هذا ما أنويه •
- وهل تعرف الثمن أيها الشاب ؟
- أعرفه وأريد الآن أن أعرفك ••
- تعرفني ؟ يا لك من جرى متهور !
- هذا ما أطلقوه على وقد صممت أن أخترق السور أو أموت عليه
•• هيا أرني وجهك ••
- ولا تخاف !

- لا أنكر خوفى ..
- ألم يحكوا لك عن الهولى ؟
- وعن عذراء لنا مخالب مقوسة .
- ولا تخاف أن تنسب المغالب فى رقبتك لتشرب دمك ؟ لا تخاف
- أن تطأك بشهيقها وتسحق جسمك الهش ؟ لا تخاف ..
- أخاف .. أخاف .. قلت هاتى ما عندك ؟
- اذا أقر وجهك نحوى أيها الشاب الجميل .
- لن يصعقتى جمال وجهك ..
- لا تجزم بشئ قبل أن تراه ..
- ولن تخنقنى خيوطك ..
- حتى لو كان فيها خيطك ؟
- لن أتركه يلتف على .
- اذا لم يلتف عليك الآن فسيخنقك غدا .
- تعودت ألا أفكر فى الغد . اللحظة هى ما يعينى . هيا !
- من سبقك كانوا مثلك .
- وأعلم أين هم الآن .. فى جوفك ..
- جمال وجهك لا ينبىء عن قسوة قلبك ..
- وبرز الوجه من المخبأ الصخرى . وجه أجمل من أفروديت .
- حزين كقمر شاحب أو شمس غاربة . تنبعث منه أشعة حسن
- طاع . سألت نفسى : وجه هذا أم فخ ؟ خاطبتها فى همس :
- ما أجمل هذا الوجه : هل يمكن أن يكون لصاحبه قلب قاس
- ويد قاتلة ؟
- تأمله ثم احكم ..
- أفروديس : أوشكت أن أغرق فى الجمال الذى نسيته ألحان جميع الشعراء .
- لكننى أفقت كالخريق وحولت وجهى سريعا حتى لا يجذبني فتتهشنى
- المخالب . ضحكت واستمرت فى الضحك وقالت :
- الهولى : لا تنظر وجهى . أنظر يدي ..
- أفروديس : لا وجهك ولا يديك . هاتى اللغز !
- الهولى : ألا تتطلع لمن حاصرت طيبة ، وصنعت الوباء ، وسفكت دماء .

الأبطال ؟ ألا تحب أن ترى العنكبوت التي غزلت خيوط القدر
الفضيع وأوقعت فيها المدينة البائسة ؟

أوديب : لا أصدق .. لا أصدق .

الهوى : ألم تعرف من قبل أن وجه القدر ساحر جميل ، أن يد الخديعة
ناعمة الجلد والأظافر ، أن قلب الظلام ساكن عميق ، أن خيوط
الكذب رقيقة دقيقة ؟

أوديب : سأمزق هذه الخيوط ..

الهوى : (تقترب منه) وتمزقي ضلوعي ؟

أوديب : (مبتعدا) ألم تنسجى بها القدر الفظيع ؟ ألم تنثرى بيا بذور
الموت والعقم والجذب والفناء ؟ ألم تحولى طيبة ..

الهوى : أنا ؟ يد واحدة تصنع هذا ؟! انك تعطينى قوة لا أملكها تنسب
لى شرفا لا أستحقه .. ما زلت غريرا ! أيها الشاب .. آه ! نسيت .
لم تقل لى اسمك ..

أوديب : وكيف غاب عن لوح قدرك ؟ ألم تنسجى خيوط قدرى ؟

الهوى : كم تضحكنى ! كانوا مثلك مغرورين ..

أوديب : لكنى لست مثلهم . هاتى لغزك ..

الهوى : قبل أن ترينى وجهك ؟ قبل أن تقبلنى ؟

أوديب : أقبل الأفعى فى نابها ؟ أدخل قدمى فى جحرها ؟

الهوى : سامحتك الآلهة ! لست مخيفة الى هذا الحد . (تبكى)

أوديب : دموع الأفاعى . أعرفها جيدا فلا تخدعيني ..

الهوى : وهل تعرف أننى مخدوعة ؟

أوديب : والوباء ؟ والجذب والموت والخراب ؟ وطيبة التي تنكفى على
بؤسها كجثة عجوز ..

الهوى : لو منحتنى قبلة واحدة لعرفت أننى لست مثاثا جثة ولا عجوزا ..

أوديب : تعلمت من الأموات أكثر مما تدرين .. لن تخدعيني أيتها ال ..

الهوى : الأفعى والعذراء والكلبة المخنية .. ألا أستحق مع ذلك قبلة
منك ؟

- أوديب : بأى حق ؟
الهوى : لأنك لو حللت اللغز فسوف تقتلنى ..
أوديب : أو تقتلينى .. ليس فى هذا جديد ..
الهوى : لا تفرح قبل الأوان ..
أوديب : لم آت لأفرح أو أحزن أتيت لأحل اللغز .
الهوى : تتعجل موتك أو موتى .. لم أعرف أحدا قبلك فقد الصبر الى
هذا الحد .
أوديب : وسترين أننى لم أفقد الشجاعة ..
الهوى : فلماذا تتردد ؟
أوديب : عن أى شىء ؟
الهوى : شجاع وغبى .. دائما ما يجتمعان فى واحد . ألا تساوى
التضحية من جانبى .. ؟
أوديب : ما هى هذه التى تساوى تضحيتك ؟
الهوى : القبله الصغيره أياها الغبى ..
أوديب : وما الفائدة اذا كنت ستموتين ؟
الهوى : أموت على صدر المنتقد من الوباء .. أهذا شىء قليل ؟
أوديب : خدعة جديدة ؟ لقد تعلمت ممن سبقونى ..
الهوى : ستعرف أنك لم تتعلم ما يكفى ..
أوديب : لا يهم .. سيعرفه شيخ شاب شعره وانحنى ظهره ..
الهوى : وبكت عيناه بحور الدم . وارتكب أفظع ما يرتكب انسان أو
حيوان .
أوديب : لن يكون أفظع مما ارتكبته أنت ...
الهوى : ما زلت تعطينى قوة لا أملكها .. تنسب لى شرفا لا أستحقه
القبله أولا .
أوديب : اللغز أولا .
الهوى : واذا حللته وقتلتنى ..
أوديب : ربما فكرت فى تقبيلك ..
الهوى : اننى لا أئسول أياها المغرور .. ولو قتلتنى فلن أموت ..
أوديب : لغز آخر .. ؟

الهوى : لأننى أبعث دائما من جديد .. كلما عصف الوباء بمدينة وجدتنى
أقف على سورها . أسأل نفس السؤال وأنتظر نفس الجواب فإذا
حله البطل شب وباء آخر فى أجساد البشر وأرواحهم وظهرت مرة
أخرى على السور .. ستقتلنى أيها الشاب ولكننى لن أموت .
ستقتلنى ولن أموت ..

أوديپ : أو تقتلنى وأحيا فى بطل آخر ..
الهوى : وسنلتقى من جديد .. ويومها لن أطالبك بشيء .. لأنك ستكون
عجوزا بلا أسنان ..

أوديپ : اذا فأجلى طلبك الى ذلك الحين ..
الهوى : لأقبل قبرا ؟ لأعاق جثة ؟ القبلة يا أوديپ !
أوديپ : اللغز أولا ..

الهوى : عنيد كالصخر مثل كل الأبطال .. شجاعان وأغبياء ..
أوديپ : أعدك ألا أحرمك منها ..

الهوى : تتعجل موتك أو موتى .. لا بأس .. يبدو أن القدر قد دبر
كل شيء . أن تكون البطل أوديپ .. وأكون أنا الضحية .. التفت
الى يا أوديپ .. لست كريهة الى هذا الحد .. لست قبيحة كما
صوروا لك .. وعندما تعرف ..

أوديپ : عرفت كل شيء ..

الهوى : مغرور وجميل .. هل عرفت هذا أيضا من الكتب ؟

أوديپ : ماذا تقصدين ؟

الهوى : أننى لست كما صورونى .. أننى الضحية التى يقدمها كل
الأبطال .. أن الأبطال كذلك يصبحون ضحايا ..

أوديپ : تنظرين للمستقبل ..

الهوى : بل للماضى ..

أوديپ : وأنا لا أنظر الا للحاضر .. لا أشعر الا بالواجب .. لا أفكر
الا فى الانقاذ .. طيبة تنتظر أيتها العذراء .. طيبة تحتضر
وستموت ان لم تقدمى اللغز ..

الهوى : وأنا سأموت اذا استطعت أن تحله .. (تبكى)

أوديپ : لكنك ستعودين ..

الهوى : وسنلتقى كما قلت لك . ويومها لن أطالبك ..

أوديب : أعدك أن أعطيها لك .. لكنك لن تخدعيني .. هات لغزك أولاً ..

الهلوى : ألا تلتفت الى على الأقل ؟

أوديب : (يلتفت ثم يدير وجهه بسرعة) الأفضل أن يصعقني لغزك .. على أن يصعقني جمالك ..

الهلوى : لن أتركك تلح على .. قل أيها الشاب العنيد المغرور .. قل يا من عرفت وفكرت وصممت .. يا من حللت كل الألغاز ولم يبق سوى هذا اللغز .. (في صوت غامض) : ما هو ذلك الذي يجبو في الصباح على أربع ويسير في الظهر على اثنتين ويتوكأ في المساء على ثلاث ؟

ما هو هذا أيها الجميل البريء ؟ ما هو أيها الغبي العنيد ؟

أوديب : (ضاحكا بصوت عال) ها ! ها ! ها !

الهلوى : وتضحك أيضا ؟ انك أول من يضحك .

أوديب : كانوا يرتعشون أمامك .. كانوا ينتفضون من الرعب .

الهلوى : مني أيضا .. ومن اللغز .

أوديب : (يضحك ... يزداد ضحكه)

الهلوى : وتصر على ضحكك ؟ .. هل عرفتة ؟

أوديب : أرايت يا أوديب ؟ هذا ما جئت تبحث عنه .

هذا ما تركت من أجله ملكك وأرضك وشعبك ..

هذا من تبحث عنه .. هذا من تبحث عنه ..

الهلوى : من ؟ من يا أوديب ؟

أوديب : أيتها الهوى .. أيتها الهوى .. هو من يقف أمامك ..

الهلوى : يقف أمامي ؟ ما أكثر من وقف أمامي ..

أوديب : هو من تنظرين ولا ترين .. من تسمعين ولا تفهمين .. من تخدعين ولا تعرفين ..

الهلوى : وهو من يخدع نفسه .. من لا يعرف نفسه ..

أوديب : وهو كذلك أحيانا ..

الهلوى : بل في كل مكان وزمان .. من ؟ من ؟

أوديب : أما زلت تسألين ؟ اسمعي اذا .. هو الانسان .

الهولى : حقا يا أوديپ .. لم يعرفه أحد قبلك .. آه ! آه !

أوديپ : معذرة .. لم أقصد أن أؤذيكَ ..

الهولى : لن ينفعنى اعتذارك .. اننى أموت .. (تتهاوى مصعوقة) ..

أوديپ : وأنا لا أنسى وعدى .. (يسرع إليها ويقبلها) آه يا ابنتى !
وكانت شفتاها باردتين .. قبلتها وأنا أصرخ .. حتى الجمال يموت
أيضا .. وارتفع صراخى وأنا أحمل جثتها بين يدى : أوديپ ،
أوديپ آ أحقا حللت اللغز ؟ أحقا حللت اللغز ؟ !

- ٤ -

أوديپ : « هل أنا فى هاديس ؟ أتلفت : حول أشباح وظلال ، خلفى
أشباح وظلال أم أنا فى طيبة ؟ طيبة ذات البوابات السبع ؟ لا لا ..
انى أنكر عيني .. عيني تنكر ما تبصره هذا قبر .. هذا قبر ..
قلبي يرتجف من الرعب » هذا يا ابنتى ما قلته لنفسى وأنا أخطو
أول خطوة على الطريق . لابد اننى هبطت الى العالم السفلى . لابد اننى
أخطأت الطريق . أتكون الهولى حلما أو هما من أوهامى ؟ هل أنا
حقا من حل اللغز ؟ من كشف قناع السر عن الانسان .. وها هو
يسعى للانسان ؟ مر على ذلك اليوم الذى لا أنساه . ساعدنى
يا ابنتى كى أتذكر . ساعدونى أيها الشيوخ يا من كنتم حينئذ
صبية وشبابا .. حاولوا أن تتذكروا ..

الهولى : نحن نذكرك يا أوديپ

يا من أقبلت لتنقذنا من الوباء

يا من مزقت خيوط اللغز فهوت العنكبوت

سقطت فى هاديس فابتلعها كلبة الجحيم

وتعالت صيحتها فى آذان المنكوبين

أوديپ : أجل أيها الشيوخ . لابد أن صيحاتنا أيقظت الأموات . والأموات
بشوا من القبور . ارتفع صوت بعد صوت وانطلق رسول بعد
رسول ، وأقبلت الحشود من كل اتجاه . كالغربان الجائعة حطت
من كل سماء . يتعثر جمسى فى أشلاء تصدم عيني الأوراق الصفراء
تجرحها الأشجار الجفاء .. يمدون الى الأيدي والأعين والاعناق .
ينغم نور فى قلبي يشتمل سؤال : أنتم أبناء الانسان ؟ من يقف
على قدميه ويرفع رأسه . يشمخ بجبين عال نحو الشمس . ويمد
يديه الى الأنجم ، يسرج منها مصباح الأمل ، يضئ ظلام الأرض .

اخوتى : أبناي ! ما الذى جعلكم تدبون على الأرض كالديدان
والحشرات ؟ أى لص خطف منكم النار التى أتاكم بها جدكم
الشجاع ؟ وتردون أيها الشيوخ وتقولون :

الجوقة : ليس لصا واحدا بل لصوص عديدون سرقوا منا النار وسرقوا
النور ربطونا الى الصخور وسلطوا علينا النسر حتى صرنا صخرا
وحجارة .

أوديب : واكتفيتم بالبكاء والآنين ؟
ووقعتم مشلولين عاجزين
تفقاً الجوارح عيونكم ولا تتحركون
تأكل النسر أكبادكم ولا تنطقون ؟

الجوقة : دعونا الآلهة وصلينا ،
أرسلنا الرسل الى المعبد وسألنا
النبوءة قالت : لعنة
والكاهن فسر ما قالته النبوءة ،
قلب عينيه المطفأتين وقال :
قدر حل بطيبة

لن يرفعه الا قدر مثله
دنس ملعون لوث طيبة
ويطهره دنس مثله .

أوديب : قدر ... دنس .. لعنة
كلمات لا أفهمها ..

الجوقة : نحن كذلك لم نفهمها
فصبرنا وسكتنا ..

أوديب : وعجزتم عن حل اللغز فسلمتم
واستسلمتم للذل فمتم

الجوقة : رحنا ننتظر المنقذ
حتى جئت ..

أوديب : ويلي منكم ! ويلي منكم ! هل ينقذكم الا انتم ؟

الجوقة : هل تطرح لغزا آخر يا أوديب ؟
أنت المنقذ أنت

أنت البطل وأنت الملك
وأنت الراعى يا أوديب

أوديب : بل انسان لا يتميز عنكم
يقف على قدميه ويطلب منكم
أن تقفوا فوق الأرض
تكونوا أنتم ..

الجوقة : بل أنت البطل المنقذ
والملك القائد والراعى الملهم

أوديب : وتعالى الأصوات كهدير البحر وقصف الرعد : البطل المنقذ .
الملك القائد . الراعى الملهم يا أوديب تقدم ! يا أوديب تقدم !
كان الموكب قد التأم وانضمت اليه حشود وحشود . انتعض
الموتى الذين أهلكهم الجذب والجوع فأخذوا ينادون ويغنون : البطل
المنقذ . الملك القائد والراعى الملهم . الجموع تشير الى وتبتف :
يا من حل اللغز تقدم وأنا أسأل نفسى : هل حللت لغز لأواجه
الغازا ؟ أقتلت الهوى لأجد أمامى آلافا أخرى ؟ وتنضم الى الجموع
أمواج من الحرس ترف الموكب . ووفود من النبلاء وأعيان المدينة .
ويبدو القصر من بعيد ، ترفرف فوقه الأعلام والزينات يسطع بأنوار
المشاعل فى وهج الشمس . ويشق الصفوف وجه مهيب تطل منه
عينان صارمتان .. مرحبا يا أوديب ! أسأله : وتعرف اسمى فترتفع
صوته : النبوءة صدقت يا ولدى . حتى اسمك ! لم يغيب عنها .
أتلقت للرجل المهيب وأسأل : ومن أنت ؟ فيضحك الشيوخ
ويقولون :

الجوقة : نعم ضحكنا . قلنا يا أوديب
ذ هل يجهل أحد سيد طيبة ؟
من يرعى الأمن ويحكم فينا بالعدل ؟
من تنام المدينة بأذنه وتصحو بأذنه ؟
هل يجهل أحد كريون ؟

أوديب : هل أنت الملك ؟
كريون : بل جئت أسلمك مقاليد الملك .
أوديب : ويبد من كانت قبلى ؟
كريون : بيد من ذهب ولم يرجع .. ولهذا وضعنى هؤلاء الشيوخ بدلا
منه ..

أوديب : هل ذهب قبل ظهور الرباء ؟ وانطلق صوت أجش عميق . التفت
الى مصدره فأرى شيخا أعمى يتقدم نحوى وصبى يسحبه من يده .

- الشيخ الأعشى :** النبوءة صدقت يا ولدى • فلماذا تسأل ؟
- أوديب :** يسأل من يريد أن يعرف •
- الشيخ :** ألم تشبع من السؤال ؟ ألم تحل اللغز ؟
- أوديب :** والآن أسمع ألغازاً أخرى •
- الشيخ :** أتركها للقدر يجيب عليها النبوءة ستجيبك عنها • الأسطورة مسطور فيها •
- أوديب :** القدر ؟ النبوءة ؟ الأسطورة ؟ هل أقتل هولى كى تبعث أخرى ؟
- الآن •**
- كرويون :** الآن تزجل أسئلتك • • تجلس فوق العرش وتحكم •
- الشيخ :** وأباركك وأضع التاج على رأسك •
- أوديب :** أنا لم آت لأحكم •
- الجوقة :** أنت الحاكم منذ اليوم •
- أوديب :** وسكت وأخذت أنظر اليكم يا أهل طيبة • نظرت للرجل المهيب والشيخ الأعشى فعرفت • تم أنشأت أقول بصوت عال : أنا لم آت لأحكم • جئت لأتلم منكم وأعلم أن الحاكم لا يتحكم • أن السلطة لا تتسلط لا تظلم • والحاكم انسان منكم لا لغز مبهم • اسألوا أنفسكم يا أهل طيبة : من ذلك الذى يحبو فى الصباح على أربع ويسير فى الظهر على اثنين ويتوكأ فى المساء على ثلاث ؟ لقد صعقت البولى حين أجبتها : هو الانسان • لم يتصور أن يعرف انسان نفسه • لم يتصور أن يملك قدره • أن يحل اللغز ويعلم الأسطورة •
- لقد حللت اللغز يا أهل طيبة وجئت لكى تحلوا ألغازكم • مزقت نسيج الأسطورة التى التفت حول رقبتى وجئت لتمزقوا أساطيركم • ليس الانسان دودة ولا الها انظروا الى قلوبكم تجدوه • قفوا على أقدامكم تعرفوه • أطلقوه من أقفاص صدوركم • عاموه كينب يشنى ويعذب ويعمل ويفرح • علموه ألا يخذع بقفص ولا يأمن لصياد • عشتم أمواتا فتعالوا نتحدى الموت • سقطتم فى الهاوية فهيا نبدا من الصفر • أهلككم الوباء فلتكونوا وباء عليه • أنا لم آت لأحكم أو أتحكم بل جئت لأبداً معكم منذ اليوم • لم آت لأصبع هولى أخرى •
- الآن :** أنت قتلت البولى يا أوديب • أنت قضيت على الوباء يا أوديب
- الآن :** يمكن أن تزحف هولى أخرى • مئة أو ألف • يمكن أن يذهب وباء ويأتى وباء أشد • • فلنبداً منذ اليوم • • فلنبداً منذ اليوم • •

الجوقة : فلنبدا يا أوديب .. فلنبدا يا أوديب

أوديب : وأشار كريون بيده فاحتبس الصوت الهادر .. والتفت الى وقال :
كريون : بل تبدأ منذ الغد . المنقذ يحتاج الى الراحة . اذهبوا الآن أيها
الشيوخ والأبناء والزوجات والبنات . أما الملك فيدخل الآن الى
القصر فالجائزة الكبرى تنتظره ..

الجوقة : بل جاءت بنفسها يا كريون هاهي ذى تتقدم منه ما أسعده بالزوجة
والملكة ما أسعدها به أما نحن فنذهب ونعود صباح الغد
كريون : أختي ؟ ها هو ذا المنقذ والملك الزوج . أما نحن فنذهب أيضا ..
هيا يا تيريزياس . هيا يا أبناء مدينتنا هيا .. هيا ..

أوديب : آه يا ابنتي ! كيف أنسى هذه اللحظة ؟ نظرت فرأيت سيدة جليلة
تقف أمامي وتبتسم . لماذا شعرت بالرهبة والحنان ؟ لماذا أحسست
أننى أريد أن أقبلها وأن ألقى رأسى على صدرها وأغيب فى أحضانها
لماذا اشتعل دمي وارتجف قلبي فى آن واحد ؟ لابد أن عيني قد
زاغت فلم أر شيئا ولم أحس أحدا حتى أفقت على قبلة تطبع على جبيني
ويد تضغط على ذراعى وصوت دافئ يمتد الى ويقتادنى : يا ملكى
وولدى الحبيب .. لقد غابت الشمس وذهب الجميع ألا ندخل الى
القصر ؟



أوديب : وازداد شعورى بالرهبة حين وقفت على باب المخدع . كانت أمك
قد أخذتني من يدي ودارت بى فى أبهاء القصر وحجراته وشرفاته
وتجدد عندى الاحساس بأننى فى هاديس أخرى . انى والمرأة الجليلة
المتلثة التى تسير بجانبى شبحان تائهان . لن يلبث أن يهبط البنا
الملك الزوج الغائب فيقبض على صدرى ويسألنى : ماذا تفعل فى
بيتى ؟ كيف تفكر فى الدخول الى مخدعي وتدنيس فراشى ؟ بل
كدت أتخيل نفسى أمام محكمة الآلهة الذين يثبتون فى عيونهم ويهزون
رؤوسهم وخطوت الى داخل المخدع فارفع وجيب القلب وزاغ البصر
وتاه . كنت أستند الى الجدار حين أقبلت على ومدت يدها فأخذت يدي
وهمست فى حنان ..

جوكاستا : مضطرب أم خجلان ؟

أوديب : لا أدري . احساس لا يمكننى وصفه ..

جوكاستا : هل كنت تتوقع جائزة أخرى ؟

- أوديب : أنا لم أتوقع شيئا ..
- جوكاستا : ويظل البطل بلا جائزة ؟ ألم تعده النبوءة بزواج الملكة ؟
- هل يمكن أن تبخل طيبة على من قتل الهولى وخلصها من الوباء ؟
- أوديب : طيبة لم تبخل على ان كنت قد أعطيتها شيئا فما زال على أن أعطيها
- جوكاستا : يبدو يا أهل كوزنثة أنكم مختلفون عنا . أم أنك زهدت فى المكافأة بعد أن رأيتنى ؟
- أوديب : ماذا تقصدين ؟
- جوكاستا : ربما كنت تنتظر شيئا آخر ..
- أوديب : قلت لك لم أنتظر شيئا قلت لك
- جوكاستا : أنك أعطيت وتعطى . لكن عطايانا
- أوديب : تكلمى أفصحى عما تريدن ..
- جوكاستا : لملك توقعبت امرأة أخرى .. عذراء فى مثل سنك وشبابك جلوة الوجه لم تنبت فى رأسها شعرة بيضاء ... (تبكى)
- أوديب : تبكين يا .. (تضع رأسها على صدره فيضمها اليه)
- جوكاستا : جوكاستا .. حتى اسمى لم تسأل عنه .. (تقبله) أنا أيضا كنت شابة يا أوديب .
- أوديب : قبلتك تقول : وما زلت ..
- جوكاستا : أعلم أنى فى عمر أمك ..
- أوديب : (يقبلها) : وزوجتى وحبيبتي ...
- جوكاستا : وأنى قبل سنوات توازى عمرك كان لى ولد أيضا ..
- أوديب : وأين هو ؟ لابد أنه الآن شاب قوى . هل يتجول مثل فى أرجاء الكون ؟ هل أمرته نفسه أن يحل لغزا اخر ويقتل وحشا آخر يتربص بمدينة أخرى ؟ هل ..
- جوكاستا : هل .. هل .. الآن أصدق ما سمعته عنك ..
- أوديب : وماذا سمعت ؟
- جوكاستا : أنك لا تكف عن السؤال . هل تنسى أن السؤال يلد أسئلة أخرى أن كل جواب يحمل بذرة سؤال جديد .. هل تعلم يا صغيرى المسكين ؟
- أوديب : أعلمه ؟ .. انى أحياء . وهل جاءنى الى هنا شىء سواه ؟

جوكاستا (ضاحكة) : لا شيء ؟ ! حتى الجائزة التي بين يديك ؟
 أوديب (يقبلها) : لم تتكلمي . أين ذهب صغيرك الآخر ؟ مع أبيه ؟
 جوكاستا : ليتته ذهب معه في ذلك اليوم . لو فعل لتغير حالى . . لكن
 النبوءة بشأت أمرا آخر . .
 أوديب : دعينا الآن من النبوءة . .
 جوكاستا : وكيف أنساها ؟ كيف أنسى ما حدث (تبكى) سأل الآلهة
 فقال الكاهن
 أوديب : تيريزياس !
 جوكاستا : وكيف عرفت ؟
 أوديب : أكمل ما ذا قال ؟
 جوكاستا : أئذره أن الطفل سيقتله يوما . . لم يكتف بهذا . .
 أوديب : ماذا ؟ ماذا قال ؟
 جوكاستا : ولم اللهفة ؟ آه يا أوديب . لا أدري ان كان على أن أضحك
 أو أبكى
 أوديب : عليك أن تكمل . .
 جوكاستا : لكى تعرف . . دائما تريد أن تعرف . قال ويتزوج أمه . .
 أوديب : ولهذا أمرته النبوءة أن يتخلص منه . .
 جوكاستا : ولم يكتف بهذا . . ما أبغضه من زوج . . ما أتعسه من أب . .
 أوديب : وتلعينيه أيضا ؟
 جوكاستا : بل أستمطر اللعنات عليه . . لا أقوى حتى أن أذكر اسمه . .
 أوديب : يستحق اللعنة من يتخلص من ابنه . .
 جوكاستا : ويستحقها مرتين من يشيع بين الناس أن أمه هي التي تخلصت
 منه . . انها هي التي سلمته لمن يلقيه وحيدا في الجبل ، وحيدا بين
 أنياب الوحوش وجوارح الطير . . (تبكى)
 أوديب (يربت على كتفها ويضمها لصدره) : معذرة يا جوكاستا . انسى
 ما قلت . .
 جوكاستا : وتساعدنى على النسيان ؟
 أوديب (يقبلها) : وتساعدك بنات وأبناء تعوضك عنه . . وحنان أبيهم . .
 جوكاستا : تحتاج اليه أم حرمت منه . . عشرين سنة يا أوديب . .
 أوديب : يا زوجتى وأختى وأمى وحبيبتى . .

جوكاستا : يا زوجي وأخي وولدي وأب عيالي (يضحكان)

أوديب : وضحكنا في تلك الليلة وبكىنا . وعرفنا معنى الحب ومعنى الجسد ومعنى الخوف ومعنى الأمل وداعبناهم حتى طلع الصبح . وظللنا نداعبهم كلما ولد لنا ولد أو بنت . جاء أخواك أولا يا ابنتي . كم فرحنا بهما وكم دللتهما ولعبت معهما لعبة الفارس والحصان . كم تابعنهما بعيوننا وهما يكبران ويتصارعان على ركوب الخيل ورمي الرمح . وكم حاولت أيضا حين كبرت أن تهدئي نزواتهما وتعتدي الصلح بينهما دون فائدة . آه يا صغيرتي ! كنت دائما أما صغيرة . نموت أمام أعيننا ونما معك ضميرك الذي عذبك كثيرا وسوف يعذبك يا ابنتي . وشعرت بأنك مسئولة عن أخويك . وعن أختك التي تكثر بشيء . الا أن تنظر في المرأة وتتأمل حسن ملامحها في ماء النبع وتنسج قصص الحب مع الصبية والحلان . الا أنت يا حبيبتي ؟
الا أنت ..

انتيجوننا : أحبك يا أبي .. أحبك يا أبي ..

أوديب : وهل كنت أعيش بغير الحب ؟ هل كنت بغيرك أنت سادعي بين أهالي طيبة بالأب ؟ هذا هو أوديب الزوج الصالح ، هذا هو أوديب الأب . في كل مكان أظهر فيه تطرق سمعي نفس الكلمات : أوديب الراعي . أوديب الأب . أوديب المنقذ من فم الموت . وكما تعلمت مني الحب علمتني . رحت أنثر بذوره في كل أرض . أذهب للزراعة وأغرس معهم بذر الحب وبذر الحب . ينمو الزرع ويورق ، يزدهر ويتم ، يجري في دمهم حبا في حب أذهب للصناع فأسألهم وأحاورهم ، أعمل معهم ، أنسج ، أطرق ، أنجر ، أبنى الحب على الحب ، يأتي الشعراء الى فاستقبلهم ، أسمع منهم ، وأردد معهم حبا في حب . تزدهر قلوب الناس وتثمر . تزدهر عقول الحكماء وتثمر . يرتفع بناء بعد بناء ، يعمر بالحب وينبض بالحب وتولد فيه أطفال الحب . رفعت الديون عن الزراع ، أخرجت المساجين من السجون . علمت الحراس أن يحرسوا المدينة لا أن يفترسوها كالذئاب . حرسهم من أنفسهم ومن الأعداء داخل المدينة وخارجها . ما للصوص والمذنبون فوضعهم أمام ضمير الشعب . وجعلت القانون هو السيد . وجعلت الكل يشارك في أمر الكل . والبحارة تشترك مع الربان . وسفينتنا تبحر آمنة في البحر الآمن ترسو في شط الأمن . وتوافد علينا الرسل من المدن الأخرى وهتفوا : هذه طيبة أخرى . وأقبل الغرباء من البر والبحر وتعجبوا : طيبة تحيا المعجزة الكبرى . حتى الشتاء خجل أن يقيم بيننا وجل علينا ربيع

دائم • وكلما حررت بانسان فى الشارع أو فى المصنع أو فى الحقل
أو المسرح هتف سعيدا أوديب بالراعى أوديب الأب • بل كان البعض
ينادى : يا قديس • بفضلك صارت طيبة بستان الحب وحسن
الأمن • بستان الحب وحسن الأمن • حتى كان صباح غابت فيه
الشمس وضاع النور • كان الهمس يدور وراء ظهري • لكننى كنت
أستقبل الغد ولا أتلفت للأمس ، أواجه النور ولا أهتم بالظلال التى
تمد الحناجر فى ظهري • كنت قد لاحظت أن أمك تكثر من التطلع
من الشرفة فى قلق • تجمعكم يا ابنتى وتضمكم وتقبلكم وتمنعكم
من اللعب خارج القصر • وحين كنت أعود مرهقا فى المساء
أو أذاعبكم وأرفعكم الى صدرى تحذرني من تدليلكم وهى تهمس
خائفة : ماذا يخفى لكم القدر ؟ ماذا يخفى لنا ؟ أضحك من خوفها
وأهزأ بقدرها فتقول : نمت الشجرات البيض على مفرك وما زلت
كما أنت • أضحك بصوت عال وأسأل : من ؟! فتجيب وهى تقبلكم
وتأخذكم الى الفراش : نرق وجريء وبرئ أهوج • لا تدري ماذا
يجرى حولك أو خلفك • يزداد ضحكى وأقبلكم قبل النوم : أنا
لا أنظر حولي أو خلفي • ألم تعرفينى بعد يا أمى وأم عيلى ؟ تتجهم ،
ترسل نظرات قاتمة ، تنكفى على أحزان القلب وتسكت •

لكن الهمس بدأ يشتد يوما بعد يوم • وأبشع من الهمس أن
يشيح الناس بوجوههم عنك بدلا من أن يحيوك ويفرحوا بك • وذات
ليلة فاجأنا فيها برد وعواصف وظلام لم نألفه طوال السنوات
العشرين • كنت راجعا الى القصر بعد جولتى اليومية فى شوارع
المدينة وأسواقها • لم أكن قد انتهيت الى الفتور الذى قابلنى به
الناس • عزوته الى الصقيع الذى حاصر البشر والبيوت والقطعان
فى الحقول وتوقفت قليلا عند بوابة القصر لأخلع سترتى الثقيلة
وأسلمها للحارس • أشاح بوجهه بعيدا ، تمتم بأصوات مبهم •
حسبته يرد تحية المساء فسألته :

أوديب : مالك يا ولدى ؟

الحارس (صمت)

أوديب : لم لا تتكلم ؟

الحارس : الأفضل ألا أتكلم ؟

أوديب : ولماذا يا حارس ؟ اهمس ان شئت بأذنى •

الحارس : يكفى ما فى طيبة من همس •

أوديب : وبماذا تهمس طيبة ؟

الحارس : لا لأقدر •

أوديب : حذرنى ان كنت أمينا • انصحنى •

الحارس : ما زلت أمينا يا أوديب • أدع كريون وتريزياس •

أوديب : أدعوهما ؟ لماذا ؟

الحارس : ان كنت تريد التحذير أو النصح ••

تركته وأخذت أدور حول القصر • كريون وتريزياس ؟ لم يتفوه
باسمهما اليوم ؟ أو لم يلزم كريون داره ؟ أو لم يتخل بنفسه عن الحكم
ويسلمه الى ليفرغ لتأملاته ورعاية ماشيته وقطعانه ؟ والشيخ الأعمى ؟
هل خرج من المعبد ليبحث السم ألم يعكف هناك على صلواته ولم يرنى
وجهه مرة واحدة - ماذا يحدث يا أوديب ؟

ماذا يحدث حولك ووراء ظهرك يا أوديب ؟ ••

ورجعت بخطوات متثاقلة الى القصر • كنت أقف على أول الدرج عندما
لمحت صبية فى مثل سنك ، لم تكذ ترانى حتى ولت هاربة • جريت
وراءها • أمسكتها من يدها وأخذت أطمئننها • تذكرت أنها رفيقة لعبك •
أنك كثيرا ما دعوتها معك الى حجرتك لتريها عرائسك • سألتها :

أوديب : ماذا بك يا ابنتى ؟ لماذا تقفين فى البرد والظلام ؟ لماذا خفت منى ؟
الصبية : دعنى ! دعنى !

أوديب : لن أدعك حتى تتكلمى •

الصبية : اسأل غيرى • طيبة كلها تهمس ••

أوديب : سمعت هذا من الحارس • وبماذا تهمس ؟

الصبية : أنك •• أنك ••

ويدب : تشجعى • قولى ••

الصبية : أنك قاتل والدك الشيخ

أوديب : قاتل والدى الشيخ ؟ وماذا أيضا ؟

الصبية : أنك دنست مدينتنا •

أوديب : أنا يا حبيبتي ؟ الأب والراعى والقديس ؟

الصبية : لما دنست فراش أبيك ••

أوديب : وماذا يا صبية ؟ تكلمى ••

الصبية : لا لا أقدر ••

أوديب : بل تقدرين •• قولى ما سمعت ••

الصبية : وتزوجت بأملك ••

أوديب : أمى ؟

أوديب : تركت يدي يدها رأسى تسقط كالحجر على الأرض . هربت الصبية مذعورة وما هي الا لحظات حتى رأيتك قادمة من حديقة القصر تتغلتن حولك . ناديتك : صاحبتك ذهبت يا أنتيجونا تعالى . تعالى يا حبيبتي . وقفت أمامي كتمثال صغير . فتحت عينيك دهشة ثم أخفيت وجهك بين يديك وصحت هاربة : لا . لا . لا . لا ترى وجهك ! لا ترى وجهك !!

عندها بكيت وأنا أسأل نفسى : هل رجع الوباء ؟ هل رجع الوباء ؟

٦

أوديب : آه يا ابنتى ! لا تريدن أن ترى وجهى . الحارس أيضا لا يريد . المدينة تتنكر لى . وسقف البيت وجدرائه تنهار على رأسى . ولبشت جالسا على الدرج طول الليل . الجميع نائمون فى حضن الليل الهامس بالأخطار . أنا وحدى مؤرق الجفون . أنا حقا دنس يا طيبة ؟ هل يمكن أن يدنس نور الشمس الأشجار والأحياء ؟ ألم تسمونى الأب والراعى والقديس ؟ أحقا قد خرجت عن طاعة الآلهة وازدريت قوانينها المقدسة وسقطت فى الكبر والغرور ؟ ماذا ينتظرك يا أوديب ؟ أى مصير يتربص ببنتاك وأولادك ؟ ماذا يحدث لمدينتك المسكينة ؟ تردد فى أذنى نداء جوكاستا من الشرفة . لابد أن القلق دفعها لأن تطل منها وتهمس فى سمع الليل المسود الوجه أوديب ! أين أنت يا أوديب ! ولكن ما أكثر الهمس فى هذه الأيام والليالى ! وحين أقبلتم أيها الشيوخ بنسائكم وأولادكم كنت ما أزال ممددا على الدرج . أتأمل مصيرى على مرايا النجوم . لمحت الذبول على وجوهكم والضنى فى أعينكم . ورأيت أغصان الزيتون فى أيديكم . وعرفت أنكم جئتم تستجيرون بالآلهة المقدسين وتقدمون القرابين والدموع والأنين . وتكلم رئيسكم فقال :

الجوقة : ماذا يحدث يا أوديب !

أحقا رجع الوباء لوطننا الحبيب ؟

أوديب : وأنا أسألكم أيضا

يا رجال طيبة ونساءها

ماذا يحدث لمدينتنا ؟

الجوقة : ان المصائب تتوالى علينا

فننظر حولنا حائرين
ويختتم اله مقدس على أفواهنا
فنصمت أمام أسرار المقدسة

أوديب : كنتم دائما حائرين
كنتم دائما تنظرون وتلتفتون
واليوم وقد رجع الوباء كما ترون
ألا تتحركون يا أهل طيبة ؟ ألا تعملون ؟

الجوقة : لهذا جئنا إليك يا أوديب
يا من أنقذتنا من مخالب العذراء المجنحة
يا من خلصتنا من الرجس الذي دنس أرضنا
ها هو الرجس قد زحف علينا
طرق أبوابنا وحاصر حقولنا ومراعينا

أوديب : وتريدون أن أنقذكم
ألم أعلمكم أن تنقذوا أنفسكم ؟
ألم أضع الفأس بأيديكم لتحرقوا البستان ؟
ألم تحملوا الرماح والدروع لتحملوا الحصون ؟
ألم تمسكوا المجاديف وتوجهوا السفينة ؟
والمدن الأخرى شهدت أفراحكم
وسمعت غناءكم وعزفكم على القيثارة
أو لم تصبح طيبة بستان الحب وحسن الأمن !

الجوقة : لكن سقطت الفأس من يد الزارع
والطرقة من يد الحداد
والمنشار من يد النجار
والقيثارة خرست في كف الشاعر •
زحف السأم على الدار وأهل الدار
ولهذا أرسلنا الرسل الى سادتنا
وسياتون إليك الآن لتسألهم

أوديب : سادتكم ؟ أسألكم عن رجس صنعوه ؟
نفخوا فيه النار لتحرقكم ؟

الجوقة : صبرا يا أوديب ولا تنفخ في نار أخرى
انى أمتدح الرجل اذا رضى بحكم اله
يجب عنا السر المبهم

لا يكشفه الا الحكيم أو عراف ملهم
ها هو ذا يتقدم نحوك
يسحبه من يد طفل
وينوب عن العينين المطفأتين العكاز الأبيكم
أقبل يا شيخ، تقدم .

تيزياس : ليتنى بقيت أخرس أبكم
ليتنى لزممت معبدى وصمتى
فلم أخرج منه الا الى قبرى

أوديب : ولكنك لم تلزمه يا شيخ
تيزياس : أنا لم أتكلم . لن أتكلم .
عبثا تطرح أسئلتك ..

الجوقة : أعرفك وأعرف أنك لن تتخلي عنا
لن تكتم عنا وحى أبوللو
أو أسرارنا نقلتها للطير المسرعة إليك .
يا من تكشف ما فى الغيب
وتبصر ما فى الأفق وتحت الأرض
ان مدينتنا ملقاة بين يديك
كالجثة يصرعها الوحش الفاتك
وهى مدينتك ومن يسكنها أبناؤك

تريزياس : الأفضل أن تدعونى فى صمتى .
الجوقة : ولماذا الخوف ؟

تريزياس : اسألوا من صرع الوحش .
أوديب : تعلم أننى صرعته . ولكنهم يسألونك أنت .
تريزياس : يا من لا تخاف انى أخاف عليك أنت ..
أوديب : صمتك هو الذى يخيفنى ويخيف هؤلاء الشيوخ : تكلم اذا
ولا تثر غضبى .

تريزياس : لو فعلت فسأثير غضبا أشد ..
أوديب : الحقيقة لا تغضب العادلين ..
تريزياس : الحقيقة هى ما أقول دائما . والحقيقة تحمينى من غضبك .
أوديب : وماذا تقول ؟

تريزياس : أيها المتغطرس ! يا من تتجراً على حدود الآلهة ! اسمع اذا

ما يقوله الهى والهك : اعلم أنك أنت الرجس الذى يدنس المدينة .
أوديب : أنا الرجس الذى يدنسها ؟ أنا من دعانى هؤلاء الشيوخ الطاهر
 القديس ؟

تيريزياس : لكن الاله يدعوك باسم آخر . وهو الذى يرى حقيقتك .
أوديب : وتراها أنت أيضا أيها الأعمى ؟

تيريزياس : ان كنت تسخر من عجوز أعمى فأعلم أيها القوى المبصر أنك
 لا ترى الخزى الذى تحيا فيه ، ولا تبصر من الذين تعيش معهم .
 انك تصحو وتنام مع أمك التى أنجبته ثم أصبحت زوجتك . تأكل
 وتلاعب أطفالك الذين هم اخوتك .

أوديب : سمعت هذا من قبل . استمر أيها الأعمى .
تيريزياس : سأتحمل سخريتك كما أتحمّل عقابك .

أوديب : قلت لك انى لا أخافك ولا يلقى بك أن تخاف عقابى .
 ان نزل بك عقاب فسوف ينزله هؤلاء .

الجوقة : اننى خائف يا أوديب

ولا أكتمك خوفى أيها الشيخ الملهم
 لست أدري ماذا أفعل .

فأعنا أيها الاله ذو القوس الذهبى
 أرسل ، بأمر رب الصواعق ، برقك الخاطف
 لبيض الطريق أمام سادتنا
 ويذيب الثلوج السوداء التى تراكمت علينا .

تيريزياس : اعلّموا أنتم أيضا أيها الشيوخ أن الاله يرسل برقه الخاطف
 ولن يبدد الظلمات التى ترين عليكم حتى تتخلصوا من الدنس الذى
 جلب اللعنة عليكم . .

الجوقة : وكيف نتخلص منه أيها الأعمى البصير ؟
 أين نجده وما هى العلامة التى تدل عليه ؟

تيريزياس : لن تحتاجوا للعلامات والاشارات . انه يقف أمامكم .
أوديب هذا هو قاتل أبيه وزوج أمه وشقيق أولاده .

الجوقة : أوام يا قوانين الآلهة الخفية .
 وأنت أيها القدر الذى دبره أبوللو .

أوديب : لم يدبره سوى هذا الشيخ . هل لديك خيط آخر تضيفه الى
 مؤامرتك ؟

تيريزياس : ولماذا أتأمر عليك ؟ ألسنت أنت الذى أخرجنى عن صمتى ؟

- أوديب : ليكتشف هؤلاء الشيوخ حقيقتك .
- تيرزياس : فيسألوا أقرب الناس اليك .
- أوديب : من تقصد أيها الملعون ؟ أهى أيضا تتآمر على ؟
- تيرزياس : ليسألوا شقيقها الذى كان سيد هذه المدينة .
- أوديب : آه ! أرايتم يا أبناء طيبة ؟ لم تكن وحدك اذا ! لقد تآمرت على مع كريون لتجلس بالقرب من عرشه . . . ليكن النفى أو الموت عقابكما .
- تيرزياس : سمعت منى أننى لا أخشى عقابك . . .
- أوديب : وسمعت منى أن هؤلاء . . .
- الجوقة : اهدأ يا أوديب . وأنت أيها الشيخ الحكيم
لذ بحكمتك التى تبصر لنا ولك . . .
وأنت أيتها الآلهة التى تدبر كل شيء
لا تتخلي عن سادتنا فى وقت المحنة .
لا تتخلي عنا . . .
- أوديب : أما أنا فلن أتخلي عن نفسى . لن أتخلي عنكم . وسأكشف المؤامرة قبل أن يحكم هذا الأعمى خيوطها مع شركائه ، أيا كانت درجة قرابتهم لى سأعرف كل شيء أيها الشيوخ . سأعرف كل شيء .
- الجوقة : افعل يا أوديب .
- يا من خلصت مدينتنا من الوباء
لا تجعلنى أقول انك تركتنا
أو جحدت أفضال المدينة التى رفعتك الى قمم الأبطال
بينما تركتها تسقط فى الهاوية
بين أنياب الوحوش ذات المخالب القوية
والأجنحة المرفوفة كالعواصف العاتية
- أوديب : وعرفت أيها الشيوخ . عرفت يا ابنتى المسكينة . اندفعت الى الهاوية كما يندفع النسر البائس . وأمك بجانبى تحاول أن تهدئ روعى وتشهد الريش من جناحي . كان رسول من كورنثة قد حضر الى طيبة . أنبأنى كما تعلمون بموت أبى بوليبيوس الذى تركته على فراش المرض . مات بالشيوخوخة لا بيد الطفل المثقوب القدمين الذى قال الأعمى الملعون انه سيصرعه .
- وتظل أمك يا ابنتى تحذرنى وتتوسل الى :

اهدأ يا أوديب • النبؤات تكذب ولا يثق بها الرجل الحكيم • ألم
أحك لك عن تلك النبوءة التي أعلنت لزوجى العجوز ؟ ألم يأت
رسول من كورنثة فيبدد وهمك ؟ الطفل الذى تنبأت بأنه سيقتل
أباء قد مات من زمن طويل • وأبوك كذلك مات على فراشه فى
كورنثة • أما أملك فهى هناك فى القصر تنتظر عودتك • اهدأ
يا أوديب وسوف نزورها سويا • وستفرح بك وتضم البطل العائد
الى صدرها • وستضحك من أوهامك وخرافاتك يا زوجى ، يا صاحب
الرأس الحجرى العنيد • وتضمك يا أنتيجونا أنت واسمينيا الى
صدرها تضعكما على صدرى وهى تصيح وتضر باكية : من أجل
ابنتيك يا أوديب ! من أجل ولديك الغائبين ! فكر فى مستقبل
ذريتك ، فى مستقبل بناتك • (دفع عنى يدها المتضرعة فتكبو فوق
الدرج وتصرخين يا أنتيجونا وتصرخ أختك • ويأتى رسول يستدعيني
من داخل القصر فأخرج على عجل ويهمس فى أذنى بأنه قادم لتوه
من السفر ، وأنه فضل أن يلقانى قبل أن يدخل بيته ويرى أطفاله
وينفض عن جسده غبار الطريق • أسأله : ماذا عندك يا ولدى ؟
يتأوه ألما ويقول : سمعتها يا أوديب • سمعت صوتها الساحر
المخيف - من يا ولدى ؟ - الهولى يا أوديب • الهولى ؟! - أين ؟
أين سمعت الصوت ؟ يلتقط النفس الهارب ويتمتم : عند الأسوار •
حول البوابات السبع - أسأله : سمعتها أم رأيته ؟ - لا لم أرها •
سمعت • سمعت • ماذا قالت يا ولدى ؟ لا أعرف يا أوديب • لم
أفهم شيئا مما قالت • لكنى سمعت اسمك أو هذا ما يبدو لى •
اسمى ؟ هل نادتنى ؟ - يشهق بالدمع ويهتف : أخشى هذا
يا أوديب • يخرج صوت من قلب الحجر • وتخرج أصوات من
جوف الأرض ، تدوى فى كل مكان : أوديب • أوديب • أسأله :
هل قتلت أحدا ؟ - لا أعلم - هل طرحت لغزا ؟ - لا أعلم • لكن
هذا ما تذكره عيناي وأذناي ورجفة قلبي الخائف : أوديب !
أوديب ! تتدخل جوكاستا فى الحديث • تصيح من أعلى الدرج :
نبوءة أخرى يا أوديب ! نبوءة أخرى كاذبة • أرد عليها : تعلمين
أننى أحقر النبوءات • ثم ان هذا الرجل الفقير ليس كاهنا أعمى !
تصرخ : انه يردد أسطورة ، ينقل همس الأوغاد • يلف خطا جديدا
حول رقبتك • انتظر يا أوديب ! لا تذهب يا أوديب !

أهتف بها وأنا ألوح بذراعى : تعرفيننى يا حبيبتى • لابد أن
أعرف • تبكى وتولول : ليتك لا تعرف أبدا من أنت • ليتك
لا تعرف أبدا من أنت ••

ويرن صوتى المبتعد مع خطواتى المسرعة الى خارج القصر ، الى خارج المدينة : لابد أن أعرف ! لابد أن أراها !

- ٧ -

أوديب : قادم اليك أيتها الهولى الملعونة ! المدينة وراء ظهري تغط فى نومها أو فى موتها . وأنا أسرع الخطى لأواجهك وأخنقك بيدي . انتظري أيتها الهولى الدموية ولا تشمتي . غنى ما شئت من أغانيك الغامضة . فلن تخدعيني . لا تغتري بالشعرات البيضى على رأسى فما زلت أسير على قدمي . لم أتوكأ بعد على عكاز ولم أزحف على أربع . أنا الانسان الذى حل اللغز وقتلك . أنا الذى وجد السر ولن يفقده أبدا . مزقت الأسطورة التى نسجتها حول رقبتى وسحقت القدر الذى فرضته على مدينتي . كيف بعثت من الموت وقد حملت جثتك بيدي ؟ كيف يسمعون صوتك وقد أسكنتك الى الأبد ؟ أتكونين الحرباء التى تلونت بلون الموتى لتخدع عابري السبيل ؟ هل عدت لتنتقمى منى أم عاد أبناؤك وأحفادك ؟ سأواجهكم أيها المسوخ كما واجهت أمكم العذراء سأنقذ المدينة من وبائكم الجديد كما أنقذتها من وبائك القديم . لن أهرب أيتها العذراء ولن أراجع . لن يخدعنى حسنك أو سحر كلامك . وأنا أوديب القادم اليك . أوديب الذى يسير على اثنتين ولا يزحف على أربع . أوديب ...

الصوت : أوديب .. أوديب .

أوديب : أعرف صوتك .. أعرف وجهك .

الصوت : هذا وهم يا أوديب .. لم تعرف شيئا .. لم تر شيئا يا أوديب .. كنت تحلم ..

أوديب : أحلم مفتوح العينين ؟ أو لم أقتلك وأحمل جثتك على ذراعى ؟

الصوت : ونسيت ما قتلته لك ..

أوديب : وماذا قلت ؟

الصوت : اننى أقتل ولا أموت .

أوديب : سأقتلك اليوم كما قتلتك بالأمس .

الصوت : وهم آخر .. لقد قتلت جدتى الساذجة ..

أوديب : جدتك الهولى ؟ كانت ساذجة ؟

الصوت : وحالة غارقة فى الأحلام . ألم تظهر لك يا أوديب ؟

أوديب : نعم . نعم . هناك على السور القديم . كانت على الأقل أشجع منك .

الصوت : ألم أقل لك ؟ كانت حاملة مثلك .

أوديب : لأنها ظهرت لي وألقت سؤالها علي ؟

الصوت : ولأنها وقفت هناك عند السور .

أوديب : وراحت تلقي سؤالها على كل من يريد أن يدخل المدينة أو يخرج منها . ومن لا يجيب على سؤالها تخنقه بيديها .

الصوت : كما كانت تفعل جداتها الساذجات .

أوديب : وهل كان لها جود وجدا ؟

الصوت : وساذجات مثلها . وقفن على أبواب بابل وطيبة التي بناها الفراعنة ورحن يلقين ألفاظهن الساذجة . كل من عجز عن حلها أنشبن فيه مخالهن أو غرسن فيه أنيابهن أو خنقنه بأيديهن .

أوديب : ومن حلها . وماذا فعلن له ؟

الصوت : أصبح بطلا مثلك . هتف الناس وغنوا له . سموه المنقذ والراعي والقديس .

أوديب : نال ما يستحق . أي ساذجة في هذا ؟

الصوت : أولا لأنه لم يحل اللغز .

أوديب : كيف لم يحله ؟ ألم يكن هو الإنسان ؟ ذلك الذي يحب في الصباح على أربع .

الصوت : أف ! . ويسير في الظهر على اثنين . ألم يخطر ببالك أن الإنسان أعقد من هذا بكثير ؟ . ألم يقل لك عقلك أو قلبك .

أوديب : قالا اننى قد حللت اللغز . وأن الهوى لم تكده تسمع حتى صرخت مصعوقة .

قالته المدينة كلها وتغنت به .

الصوت : وهذا دليل آخر على سذاجتك وسذاجتها . لقد صارت ذريتهم أكثر مكرًا ودهاء .

أوديب : لأنها مثلك لا تقف عند الأسوار ؟ . ولا ترى وجهها لكل مغامر ؟ ألا تقولين انكن صرتن أكثر جينا .

الصوت : جينا أو مكرًا . الأمر واحد . لقد خلعنا أقنعتنا القديمة المضحكة وصرنا بلا أقنعة ولا وجوه . وتركنا الأسوار العتيقة لكي لا يتعرض لنا المتهورون من أمثالك .

أوديب : وأين تقفن الآن ؟ أين تعيش ؟
الصوت : أهذا سؤال يطرحه من حل اللغز ؟ من عاش ليسأل ويعرف ؟
أوديب : لأنى لا أرى وجها أتحداه • لأنى أسمع صوتك يأتى من كل مكان ولا أعرف له أى مكان •
الصوت : ها أنت عرفتة أخيرا • نحن الآن فى كل مكان وفى غير مكان ؟

أوديب : ماذا تعنين ؟
الصوت : ألم يقل لك الوباء الجديد ؟
أوديب : قال ان اللعنة قد حلت بالمدينة •• أن رجسا أصابها ولا بد أن تتطهر منه •

الصوت : وانك أنت الرجس الذى دنسها •
أوديب : كذب ! ما زلت أحقق فيه لاكشف المؤامرة التى تختفى وراءه •
الصوت : المؤامرة التى دبرها الكاهن وشريكه المتقاعد وشريكه •
أوديب : وتعرفين هذا أيضا ؟ والأسطورة التى لفقوها وروجوها بين الناس فانتشرت كالريح السامة •
الصوت : انك قتلت أباك العجوز •• وتزوجت الأم التى أنجبت منها • بعد أن أنجبتك •

أوديب : كذب ! حتى أنت •
الصوت : وماذا فى هذا ؟ أسطورة جديدة مثل أسطورة الهوى القديمة •• لغز جديد كاللغز القديم •
أوديب : ولكنى حللت اللغز القديم ولنى أتحرّك حتى أحل لغزك الجديد •
الصوت : ومن قال اننى سناطرح عليك لغزا جديدا ؟ الأمر واضح ولكنك لا تراه ••

أوديب : بل هو واضح وأراه •• أنت التى أوحيت اليهم بكل هذا •• أنت التى لفقت الأسطورة ولقنتها لهم ••
الصوت : وهذه أسطورة أخرى • لن تراها الا عندما تتعلم كيف ترى بغير عينين •

أوديب : لغز آخر ؟
الصوت : لكنه أبسط من اللغز الذى حللته ولم تحله • ستعرفه بعد فوات الأوان •

أوديب : ولماذا لا أعرفه الآن ؟ لماذا لا تظهرين لى أثبت لك ..

الصوت : أنك ما زلت ساذجا ؟ ما زلت أعمى مثلهم ؟

أوديب : ومتى أبصر فى رأيك .. متى ؟

الصوت : عندما تغمض عينيك وترى أن الهولى فيك وفيهم . أنها تسللت الى روحك ونفذت فى دمك ، كما تسللت الى أرواحهم ونفذت فى دمائهم . أنها لم تعد فى حاجة الى الوقوف على السور أو القاء أسللتهم الغامضة على كل عابر سبيل . ان الانسان هو الهولى . والهولى هو الانسان . هذا هو الرباء يا أوديب .

أوديب : وما شأنه بالرباء الذى يحتاج مدينتنا ؟

الصوت : هو نفس الرباء الذى اجتاحت كل المدن العفنة . نفس الرباء فى كل البلاد والعصور . وعندما انهارت المدن صنع سكانها الأسطورة . وأسرع الكاهن الأعمى والحاكم العجوز ومعهما الجلاد والكذاب واللص والمرتشى والمزور والحاقد والوغد فصنع الهولى التى تقف على أبواب المدينة ، والبطل الأحق الذى يجيب على أسللتها ويفوز بالجائزة ، تماما كما حدث لك يا أوديب .

أوديب : كذب ! غدر ووجود ! الجميع يعلمون أننى لم أفز بالجائزة . الا بعد أن خللت اللغز .

الصوت : والجميع لا يعلمون أنك حللته ولم تحله .. حتى أنت لا تريد أن تعلم أنه أعقد مما تصورت ..

أوديب : ولكننى كشفت عنه وفزت بالجائزة وجعلت طيبة ...

الصوت : بستان الحب وحسن الأمن .

أوديب : أليست هذه هى الحقيقة ؟ اسأل الجميع ..

الصوت : أسألهم وأنا أحيأ فيهم ؟ انها الأسطورة يا أوديب .. الأسطورة التى نسجها الكاهن الأعمى والحاكم المتسلط والشاعر الكذاب واللص والجلاد .. الأسطورة التى أوحى بالنبوءة ، والنبوءة التى نسجت اللعنة عليك وعلى أسرتك ..

أوديب : أم أنت التى نسجتها ؟ ألا تعيشين فيهم جميعا ؟

الصوت : نعم يا أوديب .. لكننى من صنعهم . هم الذين نسجوا خيوطى وغدونى من دمهم كما يتغذى الجنين من دم الأم . هم الذين حقدوا وغدروا ، وتآمروا وزوروا ، وتسلطوا واستبدوا ، هم الذين أرادوا أن يكونوا عقارب وأفانق تلدغ ، وقرودا تقفز فوق الأكتاف ، وكلابا تقعى عند الأقدام ، وذئابا تنهش الحملان ، وضباعا تنهش

جثث الموتى الأحياء وأنا أتغذى من سمهم وأسمن على قيحهم حتى
صارت طيبة غابة يسكنها آكلة لحوم البشر .. حتى صار الإنسان
هو الهولى والهولى هي الإنسان ..

أوديب : لا لا .. ليس صحيحا ما قلت .. ليس الأكل والمأكول سواء ..
الصوت : وهم آخر .. حلم من أحلامك .. لو قدر المأكول لكل الأكل ..
أوديب : لقد قتلتك من أجل الضحايا .. علمتهم أن يقفوا على أقدامهم
ويعرفوا أنفسهم ..

الصوت (ضاحكا) : هل عرفوها ؟! لو ملكوا أنفسهم ما احتجت أن
تقتلنى وتقتل جدتى الساذجة .. لو صاروا سادة أنفسهم ما احتاجوا
بطلا مثلك يصبح أسطورة كى يأتى بطل آخر ينقذهم منك ويصبح
أسطورة ...

أوديب : وما ذنبى أو ذنبهم فى المؤامرة التى دبرت لنا ؟ ما ذنبى أو ذنبهم
إذا كان كلاهما ..

الصوت : تيريزياس وكريون ؟ لم تخل المدن منهما أبدا . لن تخلو المدن
منهما ومن أعوانهما . وتدور الدورة أبدا يا أوديب ..

أوديب : بل تتوقف . لابد أن تتوقف كما حطمت أسطورة جدتك ساحطم
أسطورتك .

الصوت : والأسطورة التى نسجت حولك وقبل مولدك ؟

أوديب : كذب . ساءت أنها كذبة .

الصوت : ليتها كانت كذلك يا أوديب ..

أوديب : الرسول الذى جاء من كورثة قد وضع كل شيء تحت عين الشمس
وأمام عين الشعب . اننى لم أقتل أبى ، لأن بوليبيوس العجوز مات
على فراش المرض والشيخوخة . أما ميروپ فسوف أزورها مع
زوجتى بعد أن نبدد الأسطورة ونرفع الوباء وتظهر من الرجس .

الصوت : لن نتطهر منه الا حين تطهر نفسك .

أوديب : المهم أن أظهر شعبى ..

الصوت : ليلوثة رجس آخر .. ويحل عليه وباء آخر .. وأبعث حية
من جديد ..

أوديب : كذب ! كذب ! ستموتين الى الأبد ..

الصوت : أظن هذا ؟

أوديب : عندما يصير كل واحد منهم أوديب .. عندما يتحدأك أيتها الماكرة
كما تحدى جدتك الساذجة ..

الصوت : الذى تحداها صار بطلا وملكا .. هل يصبح كل سكان طيبة
أبطالا وملوكا ؟

أوديب : لم لا ؟ عندما يصير كل منهم سيد نفسه .. عندما يعرف أن
الآلهة المقدسة لم تتحدث بالنبوءة ولم توح الأسطورة .. عندما
يتأكد أن خدامهم هم الذين تحدثوا باسمهم ونطقوا بالكذب على
لسانهم ..

الصوت : وهل سيدفعون الثمن ؟ هل هم مستعدون للتضحية ؟
أوديب : ولم لا ؟ المهم أن يعرفوا .. وسوف يدفعون أكثر مما دفعت ويبدلون
أكثر مما بذلت ..

الصوت : لا أقصد الثمن الذى دفعت ولا التضحية التى بذلت ..
أوديب : وماذا تقصدين ؟

الصوت : أقصد ما سوف تدفعه وتبذله ..

أوديب : لغز جديد ؟ ألم تهزئى بالألغاز ..

الصوت : وبمن حل الألغاز ..

أوديب : كفى سخرية .. لو كنت نفذت فى باطن كل انسان فى طيبة
لعرفت أننى حللت اللغز ..

الصوت : أنا مدينة لأسطورتك بوجودى فيهم ..

أوديب : ولكنك ستغادرين مكانك .. ستغادرينه مذعورة مصعوقة مثل
جدتك ..

الصوت : ها ! ها ! يدهشنى تهورك أكثر مما تدهشنى سذاجتك ..

أوديب : ولماذا أيتها الهولى ؟

الصوت : لأنك تتصور أنهم سيدفعون نفس الثمن الذى لم تدفعه بعد ..
وأنهم سيبدلون نفس التضحية التى ..

أوديب : بل أثق بأنهم سيفعلون ..

الصوت : التفاؤل شقيق التهور .. وهل عرفت الثمن ؟ هل تصورت
التضحية ؟

أوديب : لن يبخل بهما أحد لكى يكون انسانا .. لن يتردد أحد عن بذلها
لكى يتخلص منك ..

الصوت : وتصبح طيبة بستان الحب وحصن الأمن ؟ وتصبح كل المدن ..

أوديب : بساتين ربيع دائم • وحصون الأمن الأبدى •

الصوت : ويقتل كل انسان أباه ؟ ويتزوج كل الأبناء أمهاتهم ؟ وينتشر
الوباء ..

أوديب : قلت لك كذب ! أسطورة ! نبوءة كاهن أعمى ومتآمر حقود ..
ستعرفين ..

الصوت : وسترعى يا أوديب ..

أوديب : وعندها تتحطم الأسطورة ..

الصوت : وتتحطم أنت أيضا ..

أوديب : وسأرى كل شيء ..

الصوت : بعد أن تفقد بصرك ..

أوديب : لغز مضحك ..

الصوت : ليتك كان كذلك يا أوديب ..

أوديب : لا يستحق أن أضيع فيه وقتي ..

الصوت : ستضيع ما هو أثمن منه •

أوديب : المهم ألا تضيع طيبة .. المهم أن يطردك كل انسان منها ..

الصوت : حاذر ألا يطردوك أنت ..

أوديب : لا يهم أيضا • سأكون قد خلصتهم منك ..

الصوت : وستكون قد دفعت الثمن ..

أوديب : وحللت اللغز ..

الصوت : كما فعلت من قبل ؟!

أوديب : اسخرى كما تشائين .. اننى ذاهب الى طيبة .. ذاهب لأطردك

منها .. لأطردك من كل المدن .. لأطردك من كل القلوب ..

الصوت : وتتصور أن يصدقوا ..

أوديب : ماذا يصدقون ؟

الصوت : أنك حللت اللغز ؟

أوديب : سيصدقون ..

الصوت : ولكنك لم تحل اللغز يا أوديب .. ولم تدفع الثمن ..

أوديب : حللت اللغز ودفعت الثمن ..

الصوت : لم تحل اللغز يا أوديب .. لم تدفع الثمن ..

أوديب : سترين .. سترين ..

الصوت : أوديب .. أوديب .. أوديب ..

٨

أوديب : جئت اليكم يا أبناء طيبة ويا شيوخها .. جئت لأحل اللغز الأكبر .. اللغز الكامن فيكم .. ان كنت أخطأت فيها أنا أصلح خطئي .
ان كنت قتلت الهولى الرابضة على سور مدينتكم فيها أنا أدعوكم لقتل .. الهولى الرابضة فى أعماق نفوسكم . تعالوا نطردها من مدينتنا ، من بيوتنا ، من أروحتنا ودمائنا ، من نومنا وأحلامنا ..
الهولى يا أبناء مدينتنا .. ونظرت فى عيونهم يا ابنتى فوجدتها كالزجاج المعتم . وتطلعت الى وجوههم قرأيت آلهة الصمت الساخرة تبتسم وتحلق فى . قال رئيس الجوقة :

رئيس الجوقة : أية هولى يا أوديب ؟ أية أحلام ؟

أوديب : اننى قادم من عندها . لم تظهر عند السور كما فعلت من قبل .
لقد أصبحت داخلكم . تسللت الى ضمائرکم .

رئيس الجوقة : هل تحلم يا أوديب ؟ أتكلم نفسك يا ربان سفينتنا ؟
ريح الموت العاصفة ستغرقنا فاستيقظ يا أوديب ..

أوديب : لقد سمعتها وكلمتها .. أنا لا أحلم ..

رئيس الجوقة : بل تحلم مفتوح العينين .. لكنك لا تبصر هذا الراعى ..

أوديب : الراعى ؟ أية راع ؟

رئيس الجوقة : ألم ترسل فى طلبه ؟

أوديب : نعم . نعم . وكلفت اثنين من خدمى بالبحث عنه . لقد عاهدتكم
يا أبناء طيبة ..

رئيس الجوقة : أن تبحث عن قاتل لايوس وعن مصير الطفل الذى ألقى فى
الجليل . وها أنت تطرق كل الأبواب وتسلك كل السبل حتى تعرفه .

أوديب : حتى لو كان الموت جزائى . حتى لو كان الثمن حياتى ..

رئيس الجوقة : ها هو يقف أمامك فاسأله يا أوديب .

أوديب : وصحت بالراعى العجوز أن يتقدم . وأشارت الى الرسول القادم
من كورنثة وأمرته أن ينظر فى وجهه . ويطالع سطور السنين المحفورة
فى جلده وهتفت بالجميع : اننى لا أخاف شيئاً يا أبناء طيبة ليكن

أصلى ما يكون فلن أخجل من وضاعة مولدى • لقد صممت أن أعرفه
وأن يعلنه هذا الشيخ أمامكم • وإذا ظهر أن هذا الرجل الواقف
على حافة القبر هو أبى أو هو الذى ربانى فى الجبل الموحش أو فى
الغابة الكثيفة الشجر فلن يخجلنى هذا وسيقتخر هذا الراعى
العجوز بأن ابنه أو ربيبه هو الذى حل اللغز وقتل الهول وقضى
على الوباء •• هيا أيها الشيخ •• هيا أيها الرسول الغريب تعرف
الغريب على الراعى • وتردد الراعى فلم يشأ أن يتكلم • واحتتمى
بكهف نسيانه فانتزعت منه •

أوديب : ان لم تتكلم فسوف أرغمك على الكلام •• سآمر بأن توثق يداك
خلف ظهرك ••

الراعى : لم هذا ؟ ماذا تريد أن تعرف ؟

أوديب : الطفل الذى يتحدث عنه هذا الغريب على أعطيته له ؟

الراعى : ليتنى هلكت فى ذلك اليوم ••

أوديب : هذا مصيرك ان لم تقل كل ما عرفت •

الراعى : ولكنى هالك اذا تكلمت أيضا ••

أوديب : لابد أن تتكلم حتى لو هلكت أنت وأنا وكل هؤلاء الشيوخ ••
ابن من كان هذا الطفل ؟ أكان ابنك ؟ هل أعطاه لك شخص آخر ؟

الراعى : مولاي لا تسألنى أكثر من هذا ••

أوديب : لا تحاول الهرب • كل هؤلاء يعلمون أننى أوديب الذى يسأل
ولابد أن يعرف ••

الراعى : أوديب ذو القدمين المثقوبتين •• ما أبشع أن أقول ما أعرف ••

أوديب : وما أبشع أن أسمعه • ولكن لابد من سماعه ••

الراعى : سلموه لى يا مولاي لكى ألقيه فى الجبل ••

أوديب : من سلمه ذلك ؟ تكلم أيها الرجل •

الراعى : لا أدري يا مولاي كنا فى الليل فلم أر اليد التى أعطته لى • لم
أتبين فى الظلام ان كانت يد أبيه أو أمه ••

أوديب : ومن أبوه وأمه ؟

الراعى : لا تسألنى يا مولاي • لا أعرف ارحم شيخوختى وضعفى ••

أوديب : وهل رحمت أنت ذلك الطفل المسكين ؟

الراعى : نعم يا مولاي • وليتنى ما فعلت • كان موثوق القدمين ففككت

قيده كان على أن أتركه للوحوش وجوارح الطير فعهدت به الى هذا الشيخ ..

أوديب : ولماذا تندم على انقاذه ؟ هل أمرك بقتله ؟ ولماذا فعلوا هذا ؟

الراعى : سمعت أنهم فعلوه لكى لا يقتل أباه .

أوديب : رضيع يقتل أباه ؟ هل سمعتم بهذا يا شيوخ طيبة وأبناءها ؟ ومن الذى قال هذا ؟

الراعى : قالته نبوءة مشثومة ..

أوديب : سمعتم ؟ نبوءة أعلنها تيريزياس ؟

الراعى : لا أعلم يا مولاي ..

أوديب : ورواها كريون وأعوانه .

الراعى : لا أدري عمن تتحدث ..

أوديب : ولا هؤلاء الشيوخ يدرون . لكن النبوءة قيلت على لسان أبوللو . والأسطورة نسجتها اليد الخفية ثم نسبتها للآلهة .. أما أنت فأخذت الطفل الى الجبل ..

الراعى : لم أتركه وحده كما أمروني . سلمته لهذا الشيخ رحمة به . ليتنى ما فعلت .. ليتنى ما فعلت !

أوديب : هل عدت الى الندم لأنك أشفقت على الطفل وسلمته له ؟

الراعى : اسأله يا مولاي ..

أوديب : لقد سألته وأجاب . قال انه أنقذ الطفل الواقف أمامك وسلمه لملك كورنثة ..

الراعى : ولى .. ليتنى مت قبل أن يتحرك لسانى .

أوديب : ولماذا تتمنى الموت ؟

الراعى : ان كنت أنت الذى أنقذناه فاعلم أنك بائس مسكين ..

أوديب : لان النبوءة صدقت ؟

الراعى ورئيس الجوقة (معا) : وقتلت أباك الذى أنجبك . وعشت مع من لم يكن ينبغى أن تعيش معهم ، وألقيت بذورك فى نفس الرحم الذى خرجت منه ..

أوديب : (ضاحكا) النبوءة .. النبوءة .. اسمعوا يا أبناء طيبة واحكموا . صرخت الجوقة وبكت وراحت تنعق كالبوم ..

الجوقة : ويلاه ! ويلاه !

ماذا نسمع يا أوديب ؟

هل صوت الرعد القاصف فى الآذان

وصواعق زيوس الحارقة

تثير الضحك الرنان ؟

أخجل من نفسك يا أوديب ! ..

أخجل من نفسك يا أوديب ! ..

أوديب (مستمرا فى الضحك) : أخجل من نبوءة أعمى ؟

من أسطورة طاغية

أعمن فى الطغيان ؟

الجوقة : ويليك أنت الطاغية

وأنت الطغيان ..

أنت الرجس فغادر طيبة

منذ الآن ..

غادر طيبة منذ الآن ..

أوديب : وضحكت يا ابنتى كما لم أضحك فى حياتى . وتلفت الى الشيوخ

فلم أر الوجوه التى كانت تتطلع فى وجهى . لقد التفت فى عباءاتها

السوداء وراحت أجسادها تنتفض كأنما اهتز من تحتها الزلزال

أو انفجر البركان . واندفعت الى القصر وأنا لا أدري ان كنت

أضحك أم أبكى أم أصرخ . وصعدت الدرج لاهت الأنفاس . خيل الى

أننى سمعت صرخة رنت فى أذنى كعواء كلب مسعور . وعبرت

البهو الكبير والصرخة ما تزال تدوى فى سمعى . ودفعت باب الحجرة

التي تنامين فيها مع اخوتك . هل شعرت ساعتها بأننى عملاق

أوليمبي يتحدى آلهة القدر أم طفل مرتعش القدمين ينوح عند مهد

أطفاله ويفسل أقدامهم الصغيرة بدموعه ؟ كانت الحجرة مظلمة الا من

بصيص نور باهت يتسرب من الشموع الموقدة فى البهو . وفتحت

عينيك الواسعتين يا حبيبتي فى الظلام وجلست فى سريرك وأنت

تهمسين : أبى ؟

تحمست رأسك الجميل وشعرك الناعم وربت على صدر أختك

النائمة وقلت : النبوءة يا صغيرتي ! النبوءة تريد أن تحرمنى منك ؟

قلت : النبوءة ؟ مامعنى هذا يا أبى ؟ صحت بأعلى صوتي : النبوءة

التي روجوها فى كل مكان . الأسطورة التي نسجوها قبل مولدى .

منذ عشرين سنة وهم يسوونها على نار الغدر لتحرقنى وتحرقكم .

منذ عشرين سنة وهم يفترون على الآلهة ويكذبون على لسانهم

وطيبة تصدق مايقولون وشيوخها يتأوهون أمام القصر ويكون .
طيبة تلقى الفأس من يدها وتخرس القلم والقيثارة وتترك الدفة
للأعاصير . طيبة قررت أن تقتل أباك يا حبيبتي، أن تسحقه وتسحق
أبناءه وملكه وبطولته . وفجأة سمعت صوتها . صوتها المهيّب
الحنون يتسلل الى ظلام الحجرة ويسحبني منها فأنقاد اليه كالبحر
الأخرس .

جوكاستا : أوديب ! أوديب !
وأستسلم للأنفاس المتقطعة والعينين الدامعتين وأنا أقول :
أوديب : جوكاستا ؟
جوكاستا : دع الأطفال وحدهم يا .
أوديب : ماذا ؟ أتبكين ؟ ماذا جرى لك ؟
جوكاستا : لأدرى بم أدعوك .
أوديب : أنت أيضا يا حبيبتي ؟
جوكاستا : حبيبتك ؟ زوجتك أنا . أو . . . ؟
أوديب : جوكاستا ! هل سمعتهم ؟ أيمن أن تصدقيهم ؟ أيمن أن
تصدقني النبوة التي حذرتني منها ؟
جوكاستا : ان كانت كاذبة فاين الحقيقة يا أوديب ؟
أوديب : الحقيقة أنني أحبك أنت وأولادنا وبناتنا .
جوكاستا : وأنت زوجي وابني . . .
أوديب : وتقولينيها يا جوكاستا ؟ أنت التي شجعتني على تحديها ؟ أنت
التي تعلمين أنها من صنعهم . . ؟
جوكاستا : من صنعهم أو من صنع الآلهة . . هل يغير هذا من
الحقيقة ؟
أوديب : الحقيقة . . الحقيقة . . لقد صنعوها يا حبيبتي ونسبوها للآلهة
. . اختلقوها ليلقوا شبكتها علينا وعلى أولادنا . .
جوكاستا : أولادنا ؟ هل قلتها بنفسك ؟
أوديب : بالطبع يا حبيبتي . .
جوكاستا : حبيبتك . . وزوجتك أم . .
أوديب : لا تقول لها . . لاتدعيها تخرج من شفتيك . .
جوكاستا : زوجتك أم أمك ؟ وأنت ؟ زوجي أم ابني ؟ . . زوجي أم
ابني ؟
ويلاه . . ويلاه . . ويلاه . .

وجرت مذعورة كشبح خائف في سراديب هاديس . وصراخها:
ينفذ كالسهم في سمعي ولحمي وعظمي : زوجتك أم أمك ؟ زوجي.
أم ابني ؟ ويلاه . . . ويلاه . . . ويلاه . . . وتسمرت في مكاني كأنني
شجرة أمرها رب الصواعق أن تبقى في مكانها حتى يحرقها
بشواظه . ثم أفقت على صوت هبط على فأحسست بأنني صرت
فحمة سوداء . واندفعت الفحمة في طرقات القصر وأبهاثة تصطدم
بالأبواب والجدران . وتعالص صيحات الحراس وأنا أجرى في كل
اتجاه وأصطدم بأجسادهم ودروعهم . وأخيرا وصلت الى باب المخدع
فدفعته على مصراعيه ودخلت . واشتعلت الفحمة وتوهجت بنيران
الغضب والرعب . وجرت تصطدم بالأبواب والجدران والأجساد
والدروع . سيفا أيها الحراس ! سيفا أيها الكلاب ! ألا ترون
سيدتكم ؟ ألا ترون الجبل الذي تتدلى منه ؟ سيفاً أيها الحراس !
سيفاً أيها الكلاب ! ولع حد السيف على ضوء المشاعل فقبضت عليه
واندفعت . وهجمت على الجبل وقطعته . وسقط الجسد الحبيب على
فراشنا سقوط الصخرة من أعلى الجبل . وعلى صوت صراخك
يا ابنتي أنت وأختك نزع المشابك الذهبية من شعر أمك وملابسها
ورحت أدفعها في عيني لكي لا أراكم . وانطلقت صيحاتي المظلمة
مع شلال الدم المظلم من عيني فلم أعد أبصر شيئا . رن صوت
مهيب وراء ظهري : فلتفتح الأبواب ليري أهل طيبة قاتل أبيه
وزوج أمه . . .

فلتفتح الأبواب ليري أبناء طيبة الرجس الذي دنس أرضها . . .
وشعرت بكفك الصغيرة المرتعشة تمتد الى يدي وتشدد قبضتها
عليها وأحسست بماء صاف ينساب فوق النار الحارقة فيطفئها ،
ويمر على فوهات البركان فيخمد أنفاسه الملتهية . وشهدت على
يدك الصغيرة يا حبيبتي وأنا أتلقى الما لصراخك وأصرخ معك : نعم !
افتحوا الأبواب ولينظر أهل طيبة ماذا فعلوا بالبطل المنقذ من هول
الهولى . . . ماذا فعلوا بالأب الراعى والقديس . . . افتحوا الأبواب . . .
افتحوا الأبواب . . .

- ٩ -

وفتحت الأبواب يا ابنتي . . . وأخذتم يا أبناء طيبة تنظرون الى من
كان ملككم وراعيكم وقديسكم . مققوء العينين رأيتمونى والدم المظلم
يلطخ خدى ويدي وثيابي . والصراخات محتبسة في صدري كصخرة
تسد فمي . ويدك الصغيرة تتشبث بيدي وترتعش من هول الموت الذي

لا يفهمه عقلك الصغير . ويرن صوت مهيب من خلف ظهورنا :
 كريون : انظروا يا أبناء طيبة الى قاتل أبيه وزوج أمه ..
 وتنزاح الصخرة قليلا فيخرج صوتي المحبوس :
 أوديب : لا يليق بالقاتل أن يشمت بقتيله ..
 كريون : مازلت متغطرسا كما كنت . أما أنا فلا أشمت فيك بل أتركك
 لهؤلاء الشيوخ والأبناء ليقضوا في أمرك . ان منظر ك يثير اشفاق
 العدو نفسه ..
 أوديب : أولى بك أن تشفق على أختك التعسة وتقوم بمراسم دفنها ..
 كريون : وهذا ماكنت أنويه الآن . أما أنت ..
 أوديب : أما أنا فسوف أطلب منهم أن يقتلوني أو ينفوني أو يرموني
 في البحر ..
 كريون : ليس لك أن تطلب منهم شيئا ، فسوف ينفذون أمر الآلهة ،
 أوديب : أمر الآلهة أمرك أيها السيد الجديد ؟
 كريون : لن أرد عليك يا أوديب . سأترك أمرك لهؤلاء ولقوانين الآلهة .
 واعلموا يا أبناء طيبة أنه الرجس لا ينبغي أن تراه عين الشمس ،
 ولا أن يلمسه المطر المقدس . أما أنتم أيها الحراس فتعالوا معي
 لنؤدي واجب التقوى نحو الجسد الذي دنسه هذا الشقي ..
 أوديب : هذا الابن اللعون والزوج المشتوم .. أليس هذا ماتريد قوله ؟
 أليس هذا ماتفكرون فيه ؟
 وأخذت يدي يا حبيبتى فنزلنا الدرج خطوة خطوة .
 واستقبلتمونا بأنين كبكاء الريح المحزونة في سمع الشجر
 المحزون :
 الجوقة : من هذا الذي أراه أمامي ؟
 الى أي بحر خضم من البؤس تتجه قدماه ؟
 أليس هو الذي حل اللغز المشهور !
 أوديب الذي جلس على عرش طيبة
 وصار أقوى وأسعد انسان
 وتقدمت منكم وأنا أقول :
 أوديب : وصار أتعس انسان
 لأنه حاول أن يعرف
 ولم يدر أن المعرفة هي الموت والهوان
 الجوقة : ويلاه ! ويلاه !
 انى أنتفض من الرعب لمنظر ك المؤلم

وأرتعش كالبحارة الذين تهزهم الرياح
حين يرون ربان سفينتهم الغارقة
يتخلى عنها للعاصفة العاتية
ويغادرها كغراب مشنوم ..

أوديب : لم أتخل عن السفينة ولا عنكم
أنتم تخليتم عن أنفسكم

الجوقة : نحن تخلينا عن أنفسنا ؟ ماذا تقصد يا أوديب ؟

أوديب : مددت يدي لأنقذكم من الغرق

الجوقة : ودعوناك المنقذ والربان

وهتفنا : أنت الأب والراعي والقديس

أوديب : ثم تركتم أيديكم

للذئب الغادر

والكلب الحاقد

والقرصان الفاجر ..

أسألتكم أنفسكم يوماً

كيف يعيش القديس العابد

وسط كلاب وذئاب ؟

صنعوا النبوءة ، نسجوا الأسطورة ، فسكت

قالوا طاغية ، فرضيتهم

الجوقة : بل قالوا جاوزت الحد ولم ترع قوانين العدل

صممت على معرفة القاتل ، لا تعلم أن القاتل أنت ..

أوديب : صممت على معرفته من أجلكم ..

الجوقة : وتمردت على النبوءة والأسطورة ..

أوديب : لأخلص نفسي وأخلصكم

الجوقة : يا أشقى الناس جميعاً .. ليتك ما كنت عرفت ولا كنت تمردت ..

أوديب : ليظل الوباء يهلككم ؟ لتبقى الهولى تحاصركم وتنفذ في دمائكم ؟

الجوقة : لكى لا تصبح طاغية ، فتعاقبك الآلهة ، وأى عقاب ..

أوديب : أسألتكم أنفسكم : من صنع الطاغية أو الطغيان ؟ أنتم .. أنتم ..

الجوقة : نحن ؟ هل تلقى التهمة حتى لا نصرخ فيك : دافع عن نفسك ؟

أوديب : وما جدوى الدفاع والاتهام ؟ انكم ترون ملكاً فقد ملكه ، وأباً

حطم أسرته . وسقيا يترك أرضه الى أرض أخرى لا يدنسها

ولا تدنسه .. هل تذكرتم الطفل المثقوب القدمين ؟ من قيده وأمر
بأن يلقي في الجبل وحيدا ؟

الجوقة : الملكة والملك السابق ؟

أوديب : بل أنتم ! أنتم ! سمعتم عن الجريمة وسكتتم . لفقت وراء ظهوركم .
ورضيتتم . قيل لكم : حتى لا تصدق النبوءة . أى اله قاس يحكم .
على طفل تعس ؟ أى اله يقضى على رضيع فى يومه الثالث ؟ ألم
يخطر ببالكم أن الآلهة لا ترضى بهذا الظلم ؟ أن الكهنة تلعب بأقدار
البشر ؟

لماذا تركتم كريون يحكمكم بعد أن ارتكب هذه الجريمة ؟ لماذا
دعوتهم الكاهن الأعمى ليقرأ لكم الغيب ويرى ما لا ترون ؟ ومات .
لايوس فلم يسأل أحداكم : كيف مات ؟ وتركتم كريون يدبر أموركم .
دون أن تسألوا أنفسكم : ألا يمكن أن يكون قد دبر الجريمة ؟ وجاء
الرواة يحكون لكم أن قطاع الطريق هاجموا الملك عند مفترق الطريق
ذى الشعب الثلاثة . ومرت الأعوام فلم يبحث عن القاتل ولا بحثتم
عنه . ووقفت الهولى على أسوار مدينتكم فانتظروا من يتصدى لها
من خارجها .. وانتظرتهم معهم فلم يتحرك أحد للقائها .. وعندما
انتشر الوباء وسقطت المدينة تذكروا المقتول ونادوا : لابد من البحث
عن القاتل ، والقاتل الذى قتله دون علمه أصبح بطلا . وتحركت .
النبوءة فطالبت بأن يقتل البطل ليحل محله بطل جديد يصبح قاتلا
بعد حين . وتدور الدورة وتنظرون . وينقل اليكم الكهنة وحيا لهم .
تنطق به الآلهة فتصدقون . ويرى الأعمى ما لا ترون فتسكتون
وتسلمون وتدور الدورة يا أبناء طيبة فأصبح قاتلا والقاتل يصبح
بطلا والبطل الجديد يصير رجسا تطاردونه وتنفونه ، وتظهر هولى
جديدة تتطلب بطلا جديدا ..

الجوقة : لن ننسى أنك حللت اللغز وصرعتها يا أوديب ..

أوديب : وحللت اللغز ؟ لا تقولوا هذا يا أبنائي . لقد حللت لغزا واحدا
تمخضت عنه ألغاز . وقتلت هولى واحدة فأفرخت الآلاف . لن
تعود الهولى الى السور ولن تعترض الشجعان المغامرين . لن تطرح
سؤالها على كل من يدخل طيبة أو يخرج منها . لقد صارت فيكم :
نسجت عنكبوتها فى ضمائركم . ولهذا كنت أحلم عندما تخيلت أن
طيبة صارت بستان الحب وحسن الأمن . كنت أحلم عندما تصورت أننى
قتلت الهولى . لا لا . الآن أعترف بعجزى أعترف بفشلى . لم تمت
الهولى بعد . ما زالت تغدر ، تفجر ، تكذب وتزور ، تتسلط ،

تتآمر وتدبر • وها أنذا أخرج من المدينة التي يفترسها الوباء وأعلم
أننى لن ألقاها على السور ، لأنها ما زالت فيكم • ما زالت فيكم •
الجوقة : ما زالت فينا ؟

أوديب : يوم تموت الهولى يحيا الانسان •
الجوقة : ومنتظر أوديبا آخر ؟

أوديب : بل يصبح كل منكم أوديب • يقتل « هولاه » فتبعث طيبة • •
يملك قدره • • وأفقت على الصوت المهيّب ينحدر كشلال هادر • •
وسمعت خطواته الثقيلة ورائى • •

كريون : والقدر يدمره مثلك ؟ والأسطورة تحطمه وتحطم أسرته ؟ والنبوءة
تصدق فيدنس وطنه •

أوديب : بل يحيا فيه الانسان ويسقط عرش الطغيان • هذا هو الثمن
يا كريون • • هذا هو الثمن الذى ستدفعه • •

كريون : لأصبح بطلا مثلك ؟!

أوديب : والبطل يصبح طاغية • • والطاغية قاتلا • والقاتل مقتولا •
الجوقة : وتدور الدورة يا أوديب •

أوديب : بل تتوقف ليكون الانسان • ترجع طيبة طيبة • •
كريون : بعد أن تغادرها يا أوديب • •

أوديب : سأغادرها يا كريون • • سأغادرها يا أبناء طيبة • لقد دفعت
الثلث وتحررت • فقأت عيني وأبصرت • حريتي لن يمسيها أحد •
عيني الثالثة لن تفقأها يد تمتد فى الظلام • هيا يا ابنتى • • تعالى
يا حبيبتي • •

أنتيجونا : أبى • • أبى • •

كريون : دعها يا أوديب • • انها فى رعايتى • •

أوديب : لن تأخذها منى • لن أحرم منها أبدا • تعالى يا ابنتى نبتعد عن
هذه المدينة التى يهلكها الوباء • تعالى الى أرض أخرى لا نندسها
ولا تدنسنا • انى أراها تغرق فى الدم والنار والظلام • وأراك
يا حبيبتي فى كهف يلطخه الدم والعار • فاتركيها الآن وتعالى لتدقنى
أباك فى قبره الوحيد • فوق أرض وحيدة • وعندما تودعينه وتنشرين
الماء على مثواه عودى يا ابنتى ، عودى لتحررى طيبة من الوباء والظلام •
لتعلمى أبناءها أن يقتلوا الهولى فى داخلهم حتى يحيا الانسان •

الجوقة وكريون : انتظرى يا أنتيجون • • عودى يا أنتيجون • •

أوديب : لا تصدقيهم يا ابنتي • لا تسمعيهم يا حبيبتي • آه يا صغيرتي المسكينة اني أراك تدفعين الثمن الذي دفعه أبوك • أراك تواجهين الطاعمة وتحدينه • تعلمين طيبة أن تكون طيبة ، تذكرينها بأوديب وتحكين لها قصة أوديب • هل ستسمعك يا أنتيجون ؟ هل ستتعلم من درس حياتك ومماتك ؟ هل تتذكر مأساتك ومأساتي ؟ أم ستدور الدورة أبدا ؟ ومتى تتوقف يا أنتيجون ؟ من يوقفها ؟ أنت ؟ أوديب آخر ؟ هل يصبح كل الناس بها أوديب ؟ أم يصبح كل الناس الهولي تقتل كل الناس ؟ لا تبكي يا صغيرتي • هات يدك • هاتها في اليد التي فقأت عين أبيك • أبيك الذي حكموا عليه أن يكون أخاك وزوج أمك وابنها وقاتل أبيه • هاتها يا صغيرتي وقوديه على الطريق •

أنتيجونا (باكية) : الى أين يا أبي ؟

أوديب : تسألين الى أين ؟ ولماذا نسأل ونحن الآن أحرار ؟ تخافين المجهول ؟ ولماذا نخاف اذا كان علينا أن نواجهه ؟ وحدنا ؟ نعم وحدنا يا حبيبتي • حتى يدمروا الأسطورة أو تدمرهم فيتحرروا • حتى ينسجوا أسطورتهم ويغزلوا قدرهم بأنفسهم • حتى يهدموا طيبة الوباء والظلام والحراب وينبؤا طيبة الأخرى - لا تتلفتي وراءك يا حبيبتي • لا أحد ينتظرك ولا أحد يودعك • طيبة نبذتنا وتخلت عنا • لكننا لن نتخلى عنها • سنحملها في قلوبنا ثم نعود اليها • وأعود معك حرا بعد أن أترك عظامي في التراب • ذكرى حب لمدينتنا طيبة • ذكرى موت • هذا ما لن يأخذه مني • لن يأخذه أبدا • تعالى يا حبيبتي • تعالى • تعالى •

أوديب : ويرتفع صوت خشن وراء ظهرنا :

تريزياس : خذ عصاى يا أوديب !

وأرد عليه وأنا أنفجر غضبا :

أوديب : عصاك عمياء مثلك •

ويضحك الملعون ويقول :

تريزياس : أتذكرت كلامي ؟!

أوديب : وأبصرت ما لا تبصره ••

تريزياس : خذها يا أوديب •• قد تحتاج اليها ••

أوديب : عيني الثالثة ستبصر لى • يد أنتيجونا تبصر لى •

عصاك عمياء مثلك ••

أنتيجونا : خذها يا أبى ••

الجوقة : خذها يا أوديب .

تريزياس : خذها يا أديب لتذكرنا ..

أوديب : لا لن آخذها .. هيا يا ابنتي .. ضعي يدك في يدي لنخرج من هذه المدينة .. لا يهم أن تذكرنا أو تنسأنا .. لقد أرادت أن أخرج منها .. أرادت أن أتسول في المدن الأخرى .. ولهذا تعطيني عصا أتوكأ عليها بعد أن أخذت عيني وحياتي وشبابي .. لا يا أبنا طيبة .. لن أتوكأ على عصا .. وإذا كان خلاصك يا طيبة بخروجي وموتني فها أنا أغادرك لأموت خارج أسوارك ..

أنتيجونا : وسنعود يا أبي ؟ ..

أوديب : سنعود يا ابنتي .. عندما يقضى على الوباء ..

الجوقة : نعم يا ابنتي .. عندما نقضى على الوباء ..

أنتيجونا : (تسلمه يدها باكية) .

أبي .. أبي ..

أوديب : حبيبتى .. لا تتلفتي ورائك .. لا تبكي .. لا تبكي .. لا تبكي ..

(ينصرفان . يسمع وقع أقدامهما وبكاء أنتيجونا حتى بعد أن

تسدل الستار ..)

(١٩٨٥)

هذه البكائيات

فى ليلة ممطرة باكية اكتب عن هذه البكائيات • أسأل نفسى أسئلة
تحاول الاجابة عليها أن تكشف الدوافع التى دفعتنى الى تدوينها أو تلقى
الضوء على الغموض الذى يكتنفها :

١ - لم البكائيات فى وقت يدعونا كل شىء فيه لاطلاق الصرخات ؟
ان كل من يفكر اليوم أو يكتب لابد أن يصيبه اليأس وهو ينظر فى الهاوية
التى تفصل الكلمة عن الفعل ، ولابد أن يتحسر على ضياع عمره فى تجميع
حروف فى كلمات ، وكلمات فى جمل ، وجمل فى صفحات وصفحات
لم تطعم جائعا ، ولم تحرك ساكنا ، ولم تنبه وعيا ، ولم تنقل حجرا من
مكانه • وهو فى النهاية لا يستطيع أن يكتفى بحكمة سقراط وحواره
ولا بمصباح « ديوجينيس » فى قلب النهار ، ولا بنبوءات زرقاء اليمامة
ورؤاها ودموعها ، فعليه أن يدق نواقيس الخطر وأجراسه ، يستخدم
« ديناميت » نيتشه ومطرقة •• عليه أن يقرع آذان أهله بكل الطبول
والأبواق الممكنة : نحن متخلفون متخلفون • العدو أمامكم والانقراض
فيكم • تعلموا أن تفكروا بعقولكم لا بالسنتكم • غيروا ما بأنفسكم وواقعكم
حتى يغير الله ما بكم • آمنوا بالعلم والمنهج والخبرة • أعطوا القوس لباريها
والعيش لحبازه • اتحدوا ، اتحدوا اتحدوا • فالذئاب تتربص بكم فى كل
ركن وعند كل منعطف ، وذئاب أشرس منها ترعى فى داخلكم • أمراضكم
الثلاثة : الاستبداد والتسلط والطغيان لن يشفيكم منها الا أدوية ثلاثة :
الحرية والحرية والحرية •• وهو يستطيع أن يمضى فى هذه الصرخات حتى
آخر أنفاسه • لكنه سيسأل نفسه فى النهاية : ماذا يغنى البكاء أو الصراخ ؟
ماذا يجدى القول أو الكتابة ؟ أليسا فى آخر المطاف كلاما فى كلام فى
كلام ؟ أو ليس الأولى من ذلك أن يدعو للفعل ويحدد معاله ويكون قدوة له ؟
ان الكتابة - أدبا كانت أو فلسفة ، دررا كانت أو خزعبلات ، همسات
كانت أو صرخات - قد أصبحت عاجزة عن مقاومة الموت المستشرى فينا •
وربما كان الطريق الباقي هو أن يعمل الانسان لا أن يكتب أو يتكلم ،
فالفعل وحده هو الذى يمكن أن يبرر نفسه وسط الاختناق بالحسرة والندم
والصمت •

لكن هذا الكلام كله عن عجز الكلام والايمان بضرورة الفعل ما يزال
يختنق بالبكاء • والذى يكتبه هو أبعد الناس عن الصراخ لأنه لا يميل

بطبعه لازعاج أحد أو لفت أنظار أحد . ولو قلت ان العبارات هي في الحقيقة صور لعلاقات وعمليات وأفعال ، ولا يكون لها معنى حتى تشير الى علاقات وتترجم الى عمليات وتهدي لأفعال لقال نعم ، ولكن هذا لم يحدث في السنوات الأخيرة من تاريخنا الا في أندر الأحوال . أليس هذا كله مبررا لأن ييكى في صمت ، وأن يضع ما يكتبه تحت عنوان البكائيات ؟

٢ - أتكون هذه البكائيات لونا جديدا من أدب الاعترافات وصورة مختلفة من صور السيرة الذاتية ؟

أما أنها جديدة أو مختلفة فهذا أمر أوتر أن أتركه للقراء والنقاد . كل ما أستطيع قوله هو أنها صور « مقنعة » في أشكال متعددة ، شاعرية وروائية ودرامية غلب عليها طابع المناجاة وأسلوب الحوار الذي تديره الذات مع ذاتها . وربما أمكن أن يقال انها أشكال مفتوحة أو على طريق البحث عن شكل محدد ، ولهذا تتخفى وراء أقنعة تتكتم أكثر مما تفصح عنه .

ان فكرة القناع أو صورته من أهم الأفكار والصور التي تشغل الأدب والنقد الحديث وتستحق البحث عن الدور الذي تقوم به في أدبنا الجديد . ولقد كان من قدر الشاعر والكاتب العربي المعاصر انه يقوم بدور العراف والمتنبى ، والشاهد على العصر والبوقة الحكيمة المنذرة بالآخطار (وكنت أنت بينهم عراف . وكنت في مأدبة اللثام ، شاهد عصر ساد الظلام - البياتي في قصيدته محنة أبي العلاء) وكان من قدره كذلك أن يحاول أن يكون « النقاد » - كما عبرت في كتاب بهذا العنوان عن أفلاطون - والصوت الهاتف في البرية بحثا عن طريق النجاة الوحيد : أن ننقذ أنفسنا بأنفسنا ، ونغير وجه أرضنا وواقعنا وتاريخنا بإرادتنا ، وننسج التوب الذي يمكن أن يسترنا بأيدينا ، ونبتع مدن الغد من قبور الماضي والحاضر التي دفنا فيها بأمر الطغيان على اختلاف صوره وأقنعتة التي كشف شعراؤنا المجددون عن زيفها . هل أقول ان أوديب وأوفيليا والمتعب من الحياة أقنعة تخفى وجها واحدا تغمره الدموع أم تكشف عنه ؟ هل كانت بديلا عاجزا عن السيرة الذاتية التي لجأ اليها الأدباء والمفكرون في الشرق والغرب أم حيلة جديدة للامعان في تعذيب الذات ؟ وحتى لو سلمنا بأن أى تعبير أدبي جدير بهذا الوصف - من الأساطير القديمة حتى أدب العبث واللامعقول وما بعده - قد لجأ بصورة أو بأخرى الى التحجب خلف القناع ، فهل نجحت هذه الأقنعة في التعبير أم لم تنجح ؟ وهل انطبقت عليها شروط القناع الأدبي أم كانت رموزا واستعارات ؟

ان البكاء يكشف عن جوهر الانسان ومعدنه أكثر مما يفعل الضحك
أو أى شيء آخر . والانسان حين يبكي يغطي وجهه بيديه حتى لا ترى
العيون ، دموعه أو تنفذ الى سره . والأقنعة التي استخدمتها - ان كانت
ترقى الى هذا الوصف - قد حاولت أن تستر الدموع التي ذرفت في
لحظات المحنة والضعف وفي مواقف التحدى والمقاومة . لكن يبدو أنيا
عجزت عن ذلك فافتضح السر وكشف المحجوب . . أليس هذا وحده
خليقا بالبكاء ؟ ألا تستحق هذه المحاولات أن تكون بكائيات ؟

٣ - أتكون هذه البكائيات تعبيرا عن اكتئاب مرض متأصل ؟ عن
نمط من الشخصية عصابى أو فصامى أو سوداوى متشائم ؟ ألا تعد بذلك
ذاتية غارقة في مستنقع الرومنطيقية الآسن الذي عفا عليه الزمن وحلقت
فوقه نسور الأدب والنقد والفن والفكر المعاصرة في احتقار وازدراء ؟
أما أنها رومنطيقية فلا أظن أنني أو أى أحد من جيلي يمكنه أن ينكر
التهمة أو يزعم أن تكوينه النفسى قد تخلص تماما من لعنتها السحرية أو
من سحرها الملعون (حتى العلميين والتقدميين في شرقنا العربي - صدقا
أو ادعاء - لن يمكنهم هذا !) وكيف يستطيع كاتب من مصر انحدر
من سلالة « المعدة » والندابة وغار في أعماقه نواح العازف الأعمى على
القيثار وأناشيد كتاب الموتى - كيف يستطيع أن ينكر أنه مكتئب من
صلب مكتئبين وبطون مكتئبات ؟ والجيل الذي انتمى اليه وعاش على
مدى ثلاثة عقود من حياته الواعية محروما من الحرية والأمل وتحقيق
الذات الفردية والجماعية - هل كان جيلا من الآلهة حتى يحطم نير الحزن
الذي عصب عينيه ويتخلص من طوق الاكتئاب الذي حاصر شبابه ورجولته
وقدرا كبيرا من كهولته ؟

أما عن نفسى فقد وضعت كتابا تقارب صفحاته الألف عن ثورة
الشعر الحديث كله على الرومنطيقية ، كما حاولت بجهودي المتواضعة في
تعليم الفلسفة والكتابة عن الفلاسفة العقلين - مثل أرسطو وليبنز وكانط
الذين يستحيل أن تعلق بهم شبهة الرومنطيقية ! - حاولت أن أنتزع من
نفسى شوكة الألم القديمة المتأصلة . ولكننى أعترف بأننى عجزت ،
والنتيجة التي لا أحسد عليها اننى أتهم بكتابة أدب تأملى أو فكرى وفلسفة
عاطفية أو شاعرية ! ومع أن هذه ليست تهمة بالمعنى الدقيق لأن تاريخ
الأدب يزخر بالأدباء الحكماء ، وتاريخ الفلسفة يمتلئ بالحكماء الشعراء
(وأستغفر الله والحقيقة أن أتصور نفسى واحدا من هؤلاء أو أولئك !)
فأننى مع ذلك لا أتصل منها ولا أفكر في التبرؤ من وزرها . نعم ان
هذه البكائيات رومنطيقية والنفس الرومنطيقى يتردد فيها ويعزف على
أوتار جريحة لا تخطئها أذن . لكنها ليست رومنطيقية الفردية المريضة

المستغرقة في تعذيب الذات وأحلامها الكسيرة وآمالها الخائبة ، لأنها تمد جسورا بين الفرد والجماعة ، وتبكي ، حين تبكي ذاتها ، ثقافة وحضارة ووطنا تراه يتمزق وينهار ، وتردد على أوتار أساها وحزنها لحنا بسيطا يؤكد مع ذلك أن الانهيار ليس قدرا غيبيا أعمى ولا حتمية تاريخية أو غير تاريخية ، وانما هو محنة تتحدى الإرادة الفردية والجماعية وتحفزها الى قهرها وتخطيها . بهذا يجتمع فيها الحزن والصلابة ، ويتحد الأسى مع ارادة تجاوزه ، وعقيدتي التي اقتنعت بها ودعمتها التجربة والتأمل أن الانسان هو الكائن الوحيد القادر على العلو على ذاته . وشد نفسه من المستنقع بنفسه . والتاريخ وفلسفته يعلماننا أن ما يصدق على الفرد يصدق على الجماعة . وما انهارت الحضارات البائدة بفعل قدر غامض أو لعنة مجهولة ، وانما انتحرت بيد أبنائها عندما أكلوا لحم بعضهم ، واستسلموا للفراغ والدعة والترف ومهادنة الأعداء ، وفشلوا في إيجاد الاستجابات الخلاقة الممكنة للتحديات التي واجهتهم . وخنقوا روح الابداع والتحرر والتجدد بالتسلط والارهاب والاضطهاد (ابن خلدون وفيكو وتوينبي) واذا وجدنا أحد أفراد الجماعة قد غرق في بحار الأسى ، فان غرقه يجب أن يكون آية ودرسا ، وأن يجدد العزم على الصمود والمقاومة .

لكنني أعيش في حضارة تجمع كل الآراء الشعبية والموضوعية على أنها حضارة مأزومة . واذا صورت لي الحساسية المتطرفة انها تحتضر وتلفظ آخر أنفاسها ، ألا يحق لي عندئذ أن أسمعها لحنا جنازيا يزعجها من رقدتها ويثير فيها ارادة الميلاد والبدء من الصفر ؟ ألا تستحق هذه اللحظة - على حدود تاريخ يغيب وتاريخ آخر لم تبرغ شمس - أن يكون لها مغنيها الباكى أو شاهدها الحزين أو بومتها المكتتبة التي تحدد في ظلام الكارثة الزاحفة فتنعق وتحذر ؟ أليس هذا في النهاية مبررا كافيا لترديد هذه البكائيات ؟

٤ - لم البكاء وما معنى رثاء الذات في زمن العلم الذي يهيب بنا أن نكون علميين وأن نشارك في حضارة العلم والمنهج بكل ما نستطيع ؟ ان ايمانى بالعلم لم يفتر لحظة من حياتي المنتجة الفاعلة ، وما زلت أشارك فيه على قدر جهدى . لكنني أجيب على السؤال فيما يخص الأدب فأقول اننى شعرت منذ أن بدأت الكتابة بأن الأدب كله فى النهاية مرثية طويلة يبكي فيها الانسان نفسه وسوء حظه واخفاق جهده وتعبه على الأرض . ولا شك أن النظرة الى الأدب الانساني على أنه سجل للاخفاق المستمر الذى

يلدحه الواقع بكل آمال البشر نظرة تنطوى على قدر كبير من التعميم
الخاطيء والخطر ، ناهيك عن تشاؤمها القاتم وحسها الفاجع ، فلا شك
أيضا أن من الممكن النظر الى الأدب على أنه أنشودة تمجيد للحياة وسعى
الى الخلود المتاح للبشر عن طريق الفن ، ودفاع متجدد الصور والأساليب
عن انسانية الانسان . وقد يمكن أن تنظر اليه نظرات أخرى لا حصر
لها ، حسب ما نفهمه من طبيعة الأدب وبنيته ووظيفته وأدواته وعلاقاته
بمبدعيه ومتلقيه ومناهج بحثه ونقده وتذوقه . لكننى هنا أسجل تجربتى
مع الأدب والكتابة . وهى تجربة أملتيا طبيعتى التى جعلت منها بكاء
متصلا على النفس (الفردية والجماعية والكلية) أعلم أن هذا البكاء ينطوى
على سخيرية كامنة تقوم على تصور الأدب بوصفه حكاية ساخرة قوامها
المفارقة . وكلما ارتفع نواحيها رن فى الأذن صوت سخرىتها واستبزائها
(ولهذا ليس عجيبا أن يكون أقدر الأدباء على استدرار دموعنا هم أقدرهم
على استثارة ضحكائنا ، وأن يشهد التاريخ بأن أعظم الضاحكين المضحكين ،
مثل أرسطوفان وموليير ، كانوا من أعظم البشر حظا من الألم والتعاسة
والشقاء !) ولقد عشت ما عشت بعيدا عن أضواء المسرح ، زاهدا فيها
بطبعى . على الرغم من جنونى بالمسرح نفسه وحلمى بالتفرغ للكتابة له .

عشت - كما وصفتنى دعابات الأصدقاء - حياة عنكبوت أو شرققة
تعمل فى الظل والصمت والسكينة . وكنت - كما وصفت نفسى - أشبه
بيونس فى بطن الحوت . ولم يكن من قبيل المصادفة أن أكتب تحت هذا
العنوان قصة قصيرة لا أعدها خير قصصى فتترجم الى عدة لغات ويتكرم
أحد المستشرقين بوضع بحث مطول عنها ! نعم ! عشت سنوات طويلة من
عمرى وكل ما أعرفه أنى أموت ، مضغة تائهة فى جوف حوت (خليل خاوى)
فى عيني حزن مزمن ، على وجهى شيخوخة مبكرة ، وفى عقلى وقلبى حكمة
سريعة ممبته . سنوات طويلة أعانى الحرمان والفقر والوحدة وأحاول
أن أفلسفيا وأجرب مصرغ الأمل والحب وشوف الأنا الى الأنت أمام الأبواب
والنوافذ الموصدة وألوذ بجزيرة النقاء والصفاء وسط الضجيج والوحل
والضوضاء ، وأعانق الترفع والكبرياء واستنقذهما من مخالب الشراسة
والندالة والغدر والغفلة كمن يشد شعره لينتشل جسده ونفسه من
المستنقع ، وأعاین مصير الطيبة المطلقة وهى تدان وتتهم بأنها ضعف وذل
وغفلة وهوان ، وأسهر آلاف الليالى كما سهر فاولست فى حجرة دروسه
لأحصد المראה والتجاهل والجحود ، وأدرك فى النهاية صدق ما قاله له

الشیطان : كئيبة مقفرة يا صديقي هي كل النظريات ، أما شجرة الحياة الذهبية فتبقى خضراء (البيتان ٢٠٣٨ - ٢٠٣٩) . وبينما المطلق يطبق قبضته على الرقاب ، ويدق طبوله ويحشد جلاديه ودجاليه فيتحول التدن إلى التعصب ، والاستراكية إلى الارهاب ، والحرية إلى الفهلوة واللصوصية ، والثورة إلى الجريمة ، والعلم إلى التجارة والارتزاق ، والفن إلى الفجاجة والابتذال والنفاق - بينما المطلق - الطاغوت يجوس خلال الديار كتمثال وارد أجوف على قدمين من طين ، يتبجح بدعاويه ويرر هزائمه ويفرخ مسوخ التسلط في كل مكان ، أجدني أكتب وأعلم وأعمل في سبيل حياة بسيطة سوية ، حياة حرة ومعقولة وممكنة ، تصان فيها أوليات الانسانية فلا تقع ولا تهدر ولا تهان في سبيل مطلق مستحيل . وتمر السنوات وتسقط قيم تربي عليها جيلي ، وتبتلى بالاستبداد - وهو شر ما يبتلى به الانسان في كل مكان وزمان - فتقلب إلى الضد والنقيض ، ويتقمص الخضر ثوب ، الجلاد وتنهش الكلاب لحم الشرفاء والطيبين ، وتخلو الساحة «للاقيم» التي وضعت نفسها في موضع القيم المطلقة : للانتهازية والشطارة والتضخم والنجومية والكذب والغدر والادعاء وسائر ما تفرخه حية الأنا المتسلطة التي أنكرت وجود الآخر وألغت حريته وسعادته وكرامته (ربى ! كيف ترعرع في وادينا الطيب ، هذا العدد من السفلة والأوغاد - صلاح عبد الصبور في ليل والمجنون) وأيّا كان تصورك لهذا الآخر على أنه الوطن أو الجماعة أو المصير المشترك أو رفيق الحياة والموت فقد التهمت الحية الطاغية المتسلطة وراحت تصفر وتطير في كل الأجواء الخالية (لدغني زملاء كنت أدرهم للأيام الباقية من العمر ، وعرضني تلاميذ وأبناء أعطيتهم تعب العمر . كلانا - لو علموا - زائل ، وسيبقى وطن صيرناه بأيدينا غابة غدر وجهنم قهر) . أمام هذا كله - هل تملك الذات الوحيدة المدحورة الا أن ترثي نفسها ؟ وهل يكون رثاء النفس الا رثاء لكل النفوس الطيبة المحبطة في مكاني وزماني وعلى مر الأجيال ؟ واذا سلمنا بأن أدبنا الحديث في أصدق أعماله لم يتقن سوى مراثية الوطن والبكاء عليه (محمود درويش) فان رثاء النفس ينطق أيضا بأن الوطن يتطلب شيئاً آخر غير الرثاء والبكاء ، شيئاً يمكن أن نسميه الفعل الحر والعمل المبدع للمجموع . عندئذ تتحول دموع الشعراء والأدباء الى نواقيس خطر ، ويصبح البكاء ندا للإرادة الفاعلة . وعندئذ نغفر لواحد منا أن يصبح « بومة مينرفا » التي تطلق حكمتها الحزينة وسط الحزائب لعل نعيقها يحرك وعلى العاملين فيبداوا البناء الجديد فوق الأطلال . .

لكن الوعي لم ينتبه ، والبناء لم يبدأ ، والصعود الى الهاوية مستمر ، والخلط والتخبط بلغا حد العماء والتصادم في الظلمات . والغربان المنذرة

بالكواريث القادمة تحوم فى الأفق ، والكوارث نفسها تزحف وتزحف وتندق الأبواب . أليس هذا كله سببا كافيا للبكاء ؟!

٥ - وأخيرا ٠٠ هل تبلغ هذه البكائيات دعوة ؟ هل ترسل رسالة ؟ هل تنطوى على نبوءة ؟ هل تقدم وعدا ؟ ٠٠ لا أستطيع أن أدعى شيئا من هذا . فهى محاولات وتجارب فنية قبل كل شئ . قد تجد فى « الدموع على حائط مبكاي » خيبة أمل مرة فى النفس ، حسرة على عمر ضاع أكثره فى الترجمة عن الآخرين أو التعريف بهم . شهادة صراع أليم عانيته وتمزقت منه بين العلم والابداع (لعل أكون قد بالغت فيه حيث لا ضرورة للتناقض بينهما) وقد تلمس فى سطور المناجاة الشعاعية لنفس تبحث عن تحديث اليه (ولا أقول المناجاة الشعرية لأننى لا أدعى القدرة على قول الشعر ولن أدعيها ، ولأنها فاجأتنى فى ثلاث ليال « يمنية » عشتها فى صنعاء ولا أظن أنها ستتكرر أبدا ٠٠) أقول قد تلمس فيها نقدا للذات ومراجعة لحياتها وحصادها ومحاولة لاقناعها بالاستمرار فى الوجود والاصرار على الخلق والأمل فى الفجر المقبل . وربما تحس فى متاهة الكابوس (الذى أشهد الله والحقيقة أننى رأيته بحدافيره فى نومي ثم دونته بعد ذلك فى تسعة أيام وليال لاهثة محمومة) مدى العذاب الذى قاسيته طوال عشرين عاما من تحول عشقى للفلسفة الى مهنة أؤجر عليها وأكل منها خبزي ، كما تشعر بالأحلام المحبطة والمشروعات المختلفة والآمال الميزومة ، « ولحظات المطر » التى مرت خيولها بسرعة ولم أتمكن من الإمساك بخصلات شعرها . وربما تفزعك البكائية الى صلاح عبد الصبور بجوها الأسود القاتم ، وتملوك سخطا على براعتنا فى اغتيال المواهب وقدرتنا التى لا تبارى على قتل بعضنا لبعضنا . ولعلها أيضا تخيفك من « رعب أكبر من هذا سوف يجي » تنبأ به شاعر وإنسان عظيم أرهقناه وعذبناه حتى الموت وملأنا أيامه كمدا وحزنا . وربما نستشف من البكاء بين يدي أوفيليا هول الظلم الواقع على البريء النقي عندما يسقط فى المستنقع « العربى » فيكون موته الإرادى البطيء هو وسيلته الوحيدة للاحتجاج عليه والخلاص منه . وأخيرا قد يراودك الاحساس وأنت تتابع دموع أوديب بأنك تراقب « طيبة » أخرى وهى تنهار وتسقط ، ويبد أنبائها تتحول الى غابة يحكمها قانون الغدر ، وتظل تضيق الحناق على ابنها الذى أنقذها ذات يوم حتى لا يبقى أمامه

الا أن يجتث شجرة عمره بيديه ، ويأخذ طفله معه ويرحل ... ربما تحس هذا كله وتشعر معه بموقف أساسي ثابت لا يتغير هو رفض الاستبداد والتسلط وتأكيد الحرية برغم كل شيء والكفر بأى قول أو فعل لا يصب فيها ويدافع عنها ويدعمها . ولكن هذه كلها شروح عقيمة ودعاوى باطلة . فالبكائيات كما قلت تجارب فنية . والتجربة لا تدعى شيئا ولا تدعو الى شيء . انها تريد أن تكون وحسب ، تتمنى أن توحى وتحرك وتثير ، لا تقدم أفكارا أو معانى مجردة بل تحمل اشارات وأمثلة وحكايات ومواقف وصورا وبناءات لغوية تكفى نفسها بنفسها وتسمح لمن شاء أن يقرأها كما يشاء . لكنها فى النهاية جزء من « وصية » انسان خاب أمله وأمل جيله ، يضعها بين يدي جيل يحبو الآن على الدرب ، أو أجيال لم تولد بعد . يضعها بين يديها وهو يقول : هذا هو كل ما استطعت . ربما يكون شوكا ما حصدت . لكننى تعبت وأخلصت . واذا استطعتم أن تكونوا أقوى منا وأقدر على تغيير الواقع فتذكروا انه كان قاسيا علينا . وان ذكرتمونا يوما فسامحونا ..

(١٩٨٥)



General Organization of the Alexandria Library (GOAL)
 General Organization of the Alexandria Library (GOAL)

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٥٨٣٩ / ١٩٨٧

ISBN - ٩٧٧ - ٠١ - ١٥٠٢ - ٩

. للبكاية في آداب الغرب والشرق تاريخ طويل تطورت خلاله في شكلها ومضمونها ، واتسعت لأغراض وموضوعات متنوعه ، ولكنها بقيت تجر به ذاتية تفيض بالأسى والشكوى والحزن ، وورثاء النفس والزمن والحب ، وذلك منذ أن بدأت مع الشعر الاغريقي في القرن السابع قبل الميلاد حتى بلغت ذروتها عند شعراء الرومانتيكية ثم عند «رلكه» وكثيرين غيره في القرن العشرين ، ومنذ أن بكى عبد يغوث الحارثي نفسه في الشعر الجاهلي ومالك بن الربيع التميمي في الشعر الأموي حتى المازني وبعض المجددين في شعرنا الحديث . وهذه البكايات ليست مجرد رثاء للنفس والعصر والجيل ولا هي مجرد نوع من السيرة الذاتية التي تظهر وتختفي وراء صور وأقنعة مختلفة الأشكال ، ولكنها كما يقول عنوانها- ست دمعات على نفس عربية ، وصرخات ضمير يشهد على المحنة العربية ويعانيها ، وأجراس خطر يدقها الكاتب التحذير من الكارثة ، واستنهاض الإرادة الفردية والجماعية لتدارك القيم التي تسقط وتموت ، والحضارة التي تتدهور وتنتحر بيد أبنائها ، لعل هذه الإرادة أن تبدأ من جديد وتبدع الفجر الجديد . . .